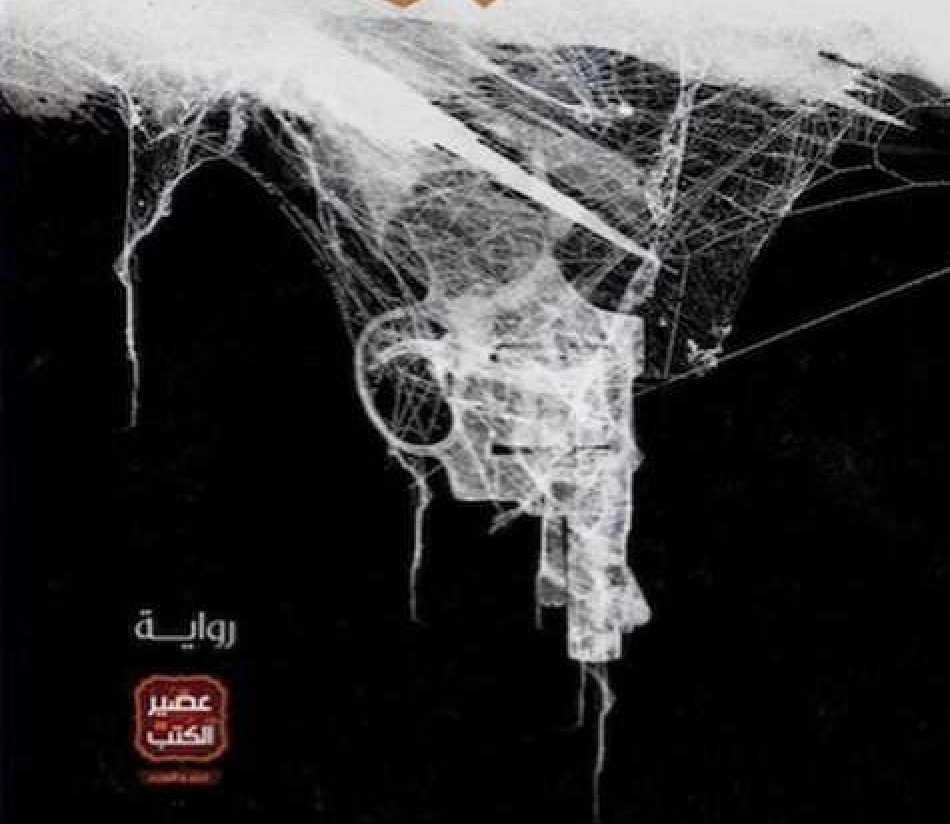
منى سلامة

بلاد تَركَب العنكبوت



رواية

عصير الكتب

بلاد تركب العنكبوت



الكتـــــاب :بلاد تركب العنكبوت

المـــؤلـــف :منى سلامة

تـدقيـق لغـوي: د. محمد فؤاد

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـايـر 2019

رقـم الإيـداع : 2018/27089

978-977-6542-31-0 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

بلاد تركب العنكبوت

-رواية-

منى سلامة



إهداء خاص جدًّا

إلى من نسج بكلماته جناحين.. وفتح لعقلي أبواب الخيال..
إلى دكتور أحمد خالد توفيق -رحمه الله-

طيَّب اللهُ ثراكَ.

«إذا قررتَ أن تنسحِب من الانسحاب .. هل يجعل هذا منك مُتقدِمًا أم مُنسحِبًا؟!»

من فضلك، لا تجب الآن، بل عند خروجك.

بوابة الدخول

مرحبًا بك في «بلاد تركب العنكبوت»

من فضلك،

اخلع منطقك على عتبتها..

فالمنطق سُم الخيال!

(١)

المستوى الثاني.

«الكاتب الكبير»

تبخَّرتْ مياه البحر الأبيض المتوسط!

انحسرتْ تمامًا عن الشواطئ حتى مرمى البصر!.. تركتْ القاع عاريًا تتبدَّى سوءته للناظرين.

منذ ثلاث ساعات أصبح السؤال الأهم الذي يحتل كل عناوين الأخبار والمواقع وبرامج «التوك شو»، وحتى برامج الطبخ والأزياء.. «أين انسحبتْ مياه البحر؟!»

رغم أن «الكاتب الكبير» يعيش بمعزل عما يحدث خارج بيته النائي الواقع على أطراف العاصمة؛ إلا أن هذا الخبر اقتحم عليه خلوته، وانتزعه من عزلته، هجم عليه من النوافذ والأبواب، محمولاً على الرياح، مقذوفًا في وسط غرفة مكتبه.

في البداية لم يفهم زمجرة الرياح وسبب هلعها، ورغم ذلك أحسَّ بنذير الخطر بين جنباتها. أما حارس بيته الذي دنا من أعتاب الستين، فضولي النظرات، هزيل الجسد، والذي لا يُسمع صوته إلا لمامًا، فاضتْ منه الأخبار عن البحر الذي تآمرت عليه الحكومة وسرقته نكاية في الشعب «الغلبان»!

تلبَّست «الكاتب الكبير» نوبة قلق، بينما يتابع حارسه وهو يقول:

- أرأيت يا سيدي «الكاتب الكبير».. لم يكفهم أن حبسوا البحر لسنوات طوال داخل الزنازين.. ها هم الآن يُعبئون به جيوبهم وخزائنهم.. صعدوا بنا إلى المستوى الثاني من القهر.

- توقف عن هذا الهراء، البحر لا يقبل الاستكانة داخل الجيوب والخزائن، إنه يقتحمها ثم يبلعها.

- لقد روَّضوه إذن، كما تُروَّض الأسود والنمور في السيرك.

- هذا هراء.

- افتح التلفاز يا سيدي «الكاتب الكبير».. وتأكد بنفسك.

أخذ الفضول بناصية «الكاتب الكبير» حتى أعجزه عن دحرجة جسده المدكوك المكتنز ليلتقط جهاز التحكم في التلفاز من أسفل الأريكة الوثيرة. كان قد ألقاه هناك منذ أسبوعين، وكعادة الخادمة قليلة الحركة كثيرة الكلام، لم تبلغ هذا الموضع من أجل التنظيف الدوري.. أمر الحارس بجلب جهاز التحكم وفتح التلفاز؛ فتعلق بشاشته زوجان من العيون الفزعة، القنوات جميعها تصدح بالسؤال ذاته «أين ذهبت مياه البحر؟!».

هذا إذن سبب اتصال وكيل أعماله عشرات المرات، لا بد أنه ينتظر منه كتابة مقال كبير ليُنشر في الصفحات الأولى لأشهر الصُحُف المحلية..تابع زوجان من الآذان المصغية حديث مُقدم البرامج الأشهر في البلاد:

- يا له من جنون.. منذ ساعات قليلة.. انحسرتْ مياه «البحر الأبيض المتوسط» في كل شواطئه العربية.. أما في الدول الأوروبية الواقعة على حدوده حول العالم لم يتقهقر فيها البحر ولو بمقدار سنتيمتر واحد!.. وكأن البحر قرر فجأة أن ينكمش على نفسه في بلادنا فحسب.. أو كُلِّف ملكٌ من السماء بأن يقلص من حجمه.. لا نعرف أي شيء.. لا يعرف أحد أي شيء.. ولا زالت الشعوب العربية

الواقعة على حدود البحر المتوسط تنتظر التصريحات الرسمية من حكوماتها لتوضيح الأوضاع.. لكن دعوني أقول لكم.. ليس لديهم أي شيء ليقولوه لنا.. لا شيء على الإطلاق!

تسمَّر «الكاتب الكبير» في موضعه فوق أريكته مضطرب القلب، عيناه لا تزالان معلقتين بالشاشة الكبيرة، تُعرض فوقها كل علامات الاستفهام التي خطرت بعقله في هذه اللحظة.. لكن يا للأسف دون أن تمنحه أي إجابات.. يسمع صوت حارس بيته وكأنه يأتي من مكان بعيد:

- أقسم بعدد شعر رأسي أن الحكومة هي التي خطفتِ البحر.. وستطالبنا بدفع فدية لإعادته.

نظر «الكاتب الكبير» إلى شعراته المتبقية والتي لم تكن كثيرة بطبيعة الحال، ثم عاد ليتساءل: هل يُعقل أن يكون هذا الخبر حقيقيًا!.. هل تآمرت البرامج الحوارية لبث هذه الأكاذيب.. كيف يختفي البحر؟.. أين يختفي البحر؟!.. كادت تصيب عقله لوثة.. تحدث الحارس كثيرًا.. كثيرًا جدًا لدرجة أن«الكاتب الكبير» لم يفقه لكلماته معنى.. تركه في منتصف حديثه وأولاه ظهره ثم وقف أمام مكتبته العملاقة طويلاً.. ينظر إلى الكتب فحسب.. يجهل بأيها يستنجد للحصول على إجابة عقلانية تُفسر ما يحدث.

اقترب أكثر من مكتبته العملاقة.. تلمَّس الكتب.. تحسسها.. تشممها.. وأغمض عينيه مُنتشيًا.

طوال عمره يُعاني من ضعف في النظر ويكره ارتداء النظارات؛ كل ما بإمكانه أن يفعله بمكتبته العملاقة المكدسة بآلاف الكتب أن يتحسسها مُتبركًا بها!

***

قضى «الكاتب الكبير» عدة ساعات أمام شاشة التلفاز يلاحق ما فاته من تفاصيل هذه الظاهرة العجيبة.. وما إن تبدَّت خيوط الأفكار في رأسه

حتى نهض عن أريكته، اندفع صوب مكتبه، أخرجِ قلمه المفضل، وأوراقًا بيضاء ظمأى للحبر، يراها بشكل مُشوش، آملًا أن يتعهدها جميعها بالسقيا.

لازمته لحظات طويلة من الحيرة:

- من أين يجب أن أبدأ؟

يبدو أنه قالها بصوت مرتفع، الأفكار مخادعة مخيفة تتحول إلى كلمات في أي وقت!.. أجابه حارسه على الفور وكأنه المعنِي بالسؤال:

- لا أعرف أنا في حيرة مثلك.

يستطرد «الكاتب الكبير» في غيظ:

- لا أسألك بالتأكيد.

طفق يسترجع المعلومات التي بثها الخبراء عبر الشاشات خلال الساعات الماضية.. وقع في حيرة شديدة.. هل يستهل مقاله بإخبار القارئ أن ظاهرة انحسار مياه البحر ليست استثنائية، فهي ظاهرة معروفة لدى علماء الجيولوجيا، تنشأ غالبًا عن الأعاصير مثل إعصار «إيرما» الذي ضرب الولايات المتحدة الأمريكية، ونتج عنه امتصاص ماء المحيط إلى مركزه؟

أم يخبره أن هذه الظاهرة قد تنشأ عن الزلازل في أعماق البحار والمحيطات، فتتحرك طبقة الأرض، وتنحسر المياه عن الشواطئ لدقائق أو ساعات؛ ثم تعود أمواج «تسونامي» لتندفع بقوة ساحقة، وتحطم كل شيء في طريقها؟

وعندئذ سيختار عنوانًا مفجعًا لمقاله مثل «تسونامي يضرب المنطقة العربية».

أم عليه أن يؤخر ذِكر الحقائق العلمية، ويمسك بتلابيب القارئ مباشرة فيخبره أن هذه الظاهرة ليست عادية على الإطلاق، تأتي عادة

مقرونة بالزلازل والأعاصير، إلا أنه حتى الآن -وكما صرَّحت كل نشرات الأخبار التي ظل يتابعها حتى مطلع الفجر- لم يتم تسجيل أي حركة غير طبيعية في منطقة البحر المتوسط!

ويختار عندئذ عنوانًا وعظيًا مثل «رَفع اللّه جُنده البحر كما رَفع نبييه عيسى».. بعد تردد ملحوظ استقر أخيرًا على عنوانٍ ساخرٍ أحبَه كثيرًا.. «بصق البحر في وجوهنا بصقة أخيرة ثم رحل»!

«أكتب لأنني لم أستطع أن أبصق في وجوه الناس صراحة، فأبصق فيهم على الورق.. الكتابة ليست فعلًا جميلًا شاعريًا، بل ممارسة شرسة عدوانية ينتجها الهياج الذهني.. فما أشبهها بالاغتصاب».

كانت تلك الكلمات «الكارثية» -كما وصفها وكيل أعماله، والتي ألقاها حين تسلمه جائزة أدبية منذ سنوات خمس- تضر بصورته أمام القراء، لكنه لم يأبه أبدًا لذلك .. فضرب الثوابت يعني المزيد من الحديث عمن جرأ على ضربها، أحيانًا إعجابًا وأحايين سخطًا، لكن في المحصلة الناس تتحدث.. وهذا ما يضمن له الرواج.. لا رواج أفكاره فحسب، بل رواج اسمه كذلك. لكنه رغم ذلك يحرص كثيرًا على صورته الذهنية في عقولهم، قد تصيبه ذبحة صدرية إن رآه أحدهم الآن وهو يغمس اثنين من أصابعه السمينة بين الفينة والأخرى في عُلبة الشيكولاتة الكريمية، ويدسها مباشرة في فمه متلذذًا.. بينما الكلمات تدفق مباشرة من عقله إلى أصابعه.. إحدى يديه ملطخة بالشيكولاتة، والأخرى ملطخة بالحروف.

تبزغ أمام عينيه كلمة؛ فيقطفها، ويمررها أولًا إلى فمه.. يلوكها.. يمتصها.. يذيب عصارتها.. فإن أعجبه مذاقها تقيأها على الورق.. وإن لم تعجبه كان مصيرها السير في طريق قاسٍ عبر الأمعاء الغليظة لعقله..

يحب الحروف ذات البطن.. ج.. ح.. خ.. ع.. غ

وخاصة تلك التي تُشبه الأطباق.. ب.. ت.. ث.. ن.. ف.. ق.. ل

يتفنن في استخدامهم.. فتجُر جملة أخرى، حتى ينتهي من كتابة فقرة.

يسترق النظر بعد كتابة كل فقرة نحو النافذة المفتوحة على مصراعيها، وكأنه يستلهم منها أحرفه، تصل إلى حوافها أوراق شجرة موزِ ضخمة زرعها بيديه في الحديقة الخلفية لمنزله قبل ثلاثة أعوام خَلَت.

يعلو الجدار الخلفي لمكتبه لوحة سريالية تبتلع بشراهة مساحة واسعة منه، لرجل يرتدي معطف أسود وربطة عنق حمراء وقبعة بولر سوداء، يظهر من خلفه جزء من سور صخري، يحول بينه وبين البحر، وتطل عليه من الأعلى سماء مُلبدة بالغيوم.. الشيء العجيب في اللوحة هو وجه الرجل المختفي خلف تفاحة خضراء، وكأنها نبتت فجأة في الهواء!

أشفق عليه الحارس فأحضر له صحن الفاكهة من المطبخ، تطلع إليه «الكاتب الكبير» بعينين صغيرتين مدسوسين في شحم الوجه ثم عنَّفه قائلًا:

- ابعد هذا عني.. معدتي وعقلي في خصام مستمر، ما إن يعمل أحدهما حتى يتوقف الآخر عن العمل.

وما إن انصرف الحارس حتى توقف عن تظاهره، وعاد إلى طبيعته المُحبة للأكل.. حارس البيت كالأحبال الصوتية التي تنقل الأصوات من الداخل للخارج.. لذلك يحرص كثيرًا على الحفاظ على صورته أمامه.. لكل كاتب عاداته الغرائبية.. ولا يرى نفسه أقل من «فيكتور هوجو» الذي اختار أن يكتب أمام المرآة، أو «أرنست همنجواي» الذي شيع عنه أنه كان يكتب واقفًا.. إذن فليكتب «الكاتب الكبير» جائعًا!

وما إن رأى الخادمة تُقبل عليه حتى أسرع قائلًا بلهفة:

- أريد شطيرة كبيرة من اللحم.. سريعًا.. كبيرة وسريعًا.

إذا كان حارس البيت هو الأحبال الصوتية فالخادمة هي البلعوم، لا يتحرك فيها الطعام إلا في اتجاه الداخل فحسب، طالما يُبعد عن معدتها الغثيان بثلاثة آلاف يدسهم في يديها في نهاية كل شهر.

دون كلمة والته ظهرها وانصرفتْ لتُعد له طلبه للعشاء.. هل بدت الخادمة أصغر سنًا أم خُيِّل إليه؟ نظره يضعف يومًا بعد يوم.. لكنه يكره ارتداء النظَّارات.

أوشك على الانتهاء من كتابة المقال، لم يتبق سوى الفقرة الأخيرة، وما أشق ذلك عليه؛ فالعنوان والخاتمة أصعب من كتابة المتن ذاته.

زرع الغرفة مجيئًا وذهابًا.. يغدو ويروح بغير كلل، وعندما فشل في العثور على خاتمته المنشودة، دنا من مكتبته الضخمة التي تغطي من الغرفة جدارين كاملين، يستلهم كُتّابه المفضلين، وأدباءه المبجلين.

طالت وقفته حتى نسي أنه كان واقفًا!.. عاد إلى المكتب مرة أخرى.. حشر جسده في الكرسي الذي ضاق بجسده مؤخرًا.. طالع شطيرة سمك موضوعة في صحن فوق مكتبه.. لم يشعر بالخادمة عندما دلفت إلى الغرفة، ولم تُنبهه إلى ذلك، وأعدت له السمك بدلًا من اللحم، سمك متبقٍّ من عشاء الأمس.. ما أغرب تصرفاتها اليوم!

لم تزعجه بثرثرتها عن كل ما يستجد في البلد من حوادث، توقَّع أن تمتطي الثرثرة لسانها اليوم أكثر من أي وقت مضى؛ فتحكي له عن البحر الذي «شفطته» العفاريت التي كانت تروي لها جدتها قصصها ليلًا في ظلمة الحجرة الخشبية الصغيرة فوق أحد البنايات.

- «إذا لم تنامي سريعًا ستغضب منكِ العفاريت».

- «وماذا تفعل العفاريت إن غضبتْ يا جدتي؟».

- «تشفط مياه البحار والأنهار.. فلا يبقى فوق الأرض قطرة ماء واحدة».

لا بد أنها كانت ستقول شيئًا كهذا وهي تؤمن به أشد الإيمان، وتقسم به بأغلظ الأيمان، فلا يتوقع غير ذلك من خادمته نصف الأمية.

الخاتمة.. كيف له أن يصطادها من بين ملايين الأفكار التي تروح وتغدو داخل رأسه.. دومًا الخواتيم تتمنع عليه فلا يمسك بها إلا بعد عناء طويل.. لكن هذه المرة ليس لديه وقت كاف للعب الغميضة مع أفكاره الشقية.. عليه أن يختم المقال سريعًا ويرسلَه إلى وكيل أعماله.. في الحقيقة لقد فكر مرة أو لعلها مرتين في الثورة في وجهه، رافضًا تلك المعاملة المهينة كما لو كان طفلًا صغيرًا، أو عاملًا لديه لا العكس.. لكن ثبطه ما قد يخسره من جراء ذلك.

وكيل أعماله هو الذي صنع منه صورة تصلح لتصديرها في وسائل الإعلام وألحق به لقب «الكاتب الكبير»، لو تركه وكيله، حتمًا سيُفتضح أمره.. ستنفض الهالة من حوله، سيرون رجلًا يقضم أظافره بأسنانه عند القلق، ويبكي كالأطفال ويضرب قدميه بالأرض عند الغضب.. سيرون رجلًا محني الظهر بنظرة طفولية كانت تضبط برامج «الفوتوشوب» وقفته ونظرته.. سيرون رجلًا بصوت خافت مضطرب كانت تُعدل برامج المونتاج من نبرته.

كانت لتسقط من أذهانهم صورة الرجل الذكي المُفوَّه وتتبدى لهم سوءة جهله.

الخاتمة.. عليه أن ينحي كل أفكاره جانبًا ويصب تركيزه على الخاتمة..

يلتهم الآن في غير استمتاع ما تبقى من شطيرة السمك. تتساقط قطرات الزيت فوق الأوراق؛ فتطبع فوقه بصمات لا تُمحى، لم يغضب.. فهذه أمارة تُنبئه أن مقاله سيكون عظيمًا.

ارتأَى أن يشاهد التلفاز ويدع التفكير في الخاتمة قليلًا ويجهد ذهنه في التفكير بعيدًا عنها.. فيتبع معها «أسلوب التخمير».. يمنحها الوقت الكافي في أكثر الأماكن دفئًا داخل رأسه.. حتى تنضج وتتضخم وتفرض نفسها على عقله.. مارس هذه الحيلة كثيرًا، وغالبًا ما أتته بنتائج مثمرة.

عندما تكون الكتابة لعوب عصية تتمنع عليه، يحاول الولوج من بابها الخلفي بأن صرف ذهنه بعيدًا عنها.. «أسلوب التخمير».

قرأ كثيرًا عن أكبر كِتاب في التاريخ، والذي فُقد إلى الأبد!.. كسوة الهرم الأكبر «خوفو» الضَائعة، والتي كانت تحمل رموزًا ونقوشًا باللغة الهيروغليفية، وتضم من العلوم والمعارف ما لم يقرأه أحد!.. كانت الكسوة المصقولة تبدو للناظرين كمرآة تنعكس عليها أشعة الشمس وأضواء القمر والنجوم.. تهدي كالبوصلة، وترشد كالمنارة.

تمنى يوم أن قرأ عنها أن يكتب أكبر كتاب في حياته.. إرث قومي تكتمل به فصوص الحكمة، يتركه للضالين من بعده، لكن هذا الكتاب ظل يختمر في عقله حتى هذه اللحظة، ولم يعرف متى ستنتهي مرحلة التخمير.

قضمة أخرى من الشطيرة أراقتْ سيلاً من الزيت فوق ملابسه والأريكة، تبًا لها من خادمة غبية.. وكأنها صنعتْ الشطيرة من الزيت لا السمك!.. ترك الطبق فوق الطاولة وانصرف مغاضبًا صوب النافذة، يتأمل عصفورًا يأكل في شراهة، تاركًا أجساد صغاره تتلوى جوعَى فوق شجرة الموز الكبيرة.. في الواقع الرؤية المشوشة لم تُمكنه من الإلمام بكل تفاصيل المشهد، فأكمل عقله «الرتوش» الناقصة.

يعود إلى مقعده، وفي فوضى المكتب المكدس بكل شيء لم يعثر على الطبق الفارغ.. هل أخذته الخادمة؟.. متى دخلت؟.. لم يسمع وقع أقدامها أبدًا!

وبدلًا من الطبق يرى وسط الفوضى كتابًا قليل الصفحات.. لا يحمل غلافه سوى عنوانٍ كبيرٍ باللون الأزرق.. «الرواية التي قتلت قارئها»!

إنها الليلة الثانية التي تفعل فيها الخادمة الشيء ذاته. وضعتْ الرواية فوق مكتبه بعد عشاء الأمس.. فقرأها فضولًا منه.. لكنه لم يفقه منها أي شيء.. رواية غبية لكاتب أغبى، لم يكتب اسمه فوق غلاف روايته!

ثم أي حماقة دفعت هذا الكاتب الغِر إلى اختيار مثل هذا العنوان لروايته؟!

لم يُصرِّح لها بالأمس برأيه، ولم يسألها لما وضعتْ تلك الرواية فوق مكتبه، ومن أين حصلت على تلك الرواية من الأساس.. ألقاها بالأمس في سلة القمامة، فلماذا تضعها اليوم فوق مكتبه مرة أخرى؟!.. ثم لماذا يظن من الأساس أن الخادمة هي من وضعتها.. لعله الحارس.

على سبيل العبث قلَّب صفحاتها مرة أخرى، دون قراءة هذه المرة، ثم تذكر أمرًا غاب عنه عند قراءته لها بالأمس.. هذا الاسم اختاره بنفسه ليكون عنوان روايته الأولى التي لا يرغب أبدًا في الانتهاء من كتابتها!

نهض فجأة وكأن عقربًا قد عضه وأسرى في دمائه سمًا زعَّافًا.. تتابعتْ الأحداث داخل عقله، حاول ترتيبها كمن يُشكل صورة من قطع بازل.. البحر الذي اختفى.. الرواية التي قتلت قارئها.. أولًا البحر ثم الرواية

كلا.. الرواية أولًا ثم البحر..

هذا ما حدث تمامًا.. قرأ الرواية ثم اختفى البحر!

***

يترك الرواية فوق المكتب، يظل على حاله لا يحرك ساكنًا، وكأنه كان ملتصقًا في مقعده منذ الأزل، وسيظل كذلك إلى الأبد..

تدخل الخادمة، لا تزيح نظراتها عن الجسد المتخشب في موضعه، تفكر في أن تسأله إن كان بخير، تفكيرًا لا يدوم سوى ثانيتين فحسب، تنفضه عن عقلها طاردة إياه.. تسقط عيناها فوق الرواية.. تبادل النظرات بينها وبين الرجل الذي كان عقله سابحاً في عالم آخر، يتأمل اللوحة الجدارية.. لرجل يختفي وجهه خلف تفاحة، تتلكأ عيناه عند التفاحة.

توليه الخادمة ظهرها.. تخرج من الغرفة بنفس الخطوات الهادئة التي دخلت بها.

ما كان عليها أن تخرج من الغرفة.. بل ما كان عليها أن تأتي إلى هذا البيت من الأساس..

هذا ما ستعرفه لاحقًا.. لكن بعد فوات الأوان!

العصفور كان أذكى منها، ترك صغاره في العش، ثم طار فزعًا هاربًا من شجرة الموز الكبيرة.



(٢)

قصاصات

جريدة الأهرام -صفحة الحوادث- عنوان بخط عريض:

مقتل الكاتب الكبير.

صورة١: الكاتب الكبير بملامحه الجامدة جالسًا فوق مقعد مكتبه، مُنهمك في الكتابة.

صورة٢: امرأة أربعينية، تختفي عيناها خلف شريط أسود.

تفاصيل الخبر: اهتزت العاصمة بالأمس لخبرة وفاة «الكاتب الكبير»، تم العثور على جثته المضرجة بالدماء في حديقة منزله، حيث تبدو ظروف موته مشبوهة إلى حد كبير، عدم وجود دلائل على دخول أحد قسرًا إلى المنزل دفع بأصابع الاتهام إلى خادمة المنزل «س. م» والتي كانت برفقة الضحية في وقت الوفاة الذي حدده الطب الشرعي.

جدير بالذكر أن المتهمة «س.م» تمر بضائقة مادية بعد طلاقها من زوجها «أ.ج»، والذي كان عائلها الوحيد، مما دفعها لمطالبة «الكاتب الكبير» بالمال، وعندما فشلت في مسعاها أعماها الغضب، واندفعت إلى قتله وسرقة مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف جنيه، كان الضحية يودعهم في خزينة صغيرة بغرفة مكتبه، لم يتم العثور حتى الآن على سلاح الجريمة. وتتولى النيابة التحقيق مع المتهمة الأولى في القضية.

جريدة السلام -ركن الحوادث والقضايا-:

الشرطة تتكتم على تفاصيل الحادث الغامض.

صورة١: الكاتب الكبير عابس الوجه وهو يتطلع إلى السماء متفكرًا.

صورة٢: تجمع الناس حول شيء غير واضح المعالم.

تفاصيل الخبر: فور تلقي «المقدم شاهق» لخبر الحادثة، توجه مع قوة من أفراد الشرطة إلى فيلا «الكاتب الكبير»، تم إبعاد الصحفيين، ورفضت الشرطة الإدلاء بأي تصريح رسمي حول الحادث، إلا أننا تمكننا من رصد الأسباب التي دفعت «الكاتب الكبير» إلى الانتحار.

كانت الشائعات تتردد بكثرة حول لياليه التي اعتاد على أن يمضيها حول طاولات القمار، تمكن منه إدمان المقامرة حتى أصبح مدينًا بمبلغ مالي كبير عجز عن سداده، ولما ضاقت به السبل وتخلى عنه الجميع؛ أقدم على هذا الجرم في حق نفسه وفي حق كل قرائه ومحبيه، وتشير مصادرنا إلى أن المدينين بأنفسهم تقدموا إلى الشرطة بعد الحادث يحملون شيكات بدون رصيد، يزيلها جميعًا توقيع «الكاتب الكبير».

جريدة أخبار الأدب- الصفحة الأولى-

القلم ينعي صاحبه.

صورة: الكاتب الكبير بملامحه الجامدة جالسًا فوق مقعد مكتبه، مُنهمك في الكتابة.

تفاصيل الخبر: نُكِّست الأقلام اليوم حزنًا على خسارة قامة كبيرة لا تعوض، رب الكلمة الذي أثرى الحياة الثقافية وترك من خلفه بصمة ذهبية لا تُمحى. فارق «الكاتب الكبير» حياتنا الدنيا حُزنًا وكمدًا على عدم فوزه بجائزة استحقها منذ زمن سحيق عن روايته الأولى التي لم يكتبها بعد..

رحل عنا لكنه سيبقى حيًا في ذاكرتنا ووجداننا إلى الأبد.

جريدة ...صفحة الوفيات

فاجعة تهز البلاد

الصورة: الكاتب الكبير عابس الوجه وهو يتطلع إلى السماء مُفكرًا.

الخبر: «إنا لله وإنا إليه راجعون»

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»

بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره، نعزي زميلنا الكاتب الكبير الذي غيَّبه الموت صباح اليوم عن عمر يناهز ستين عامًا؛ بعد صراع طويل مع المرض.

كان المرض الخبيث يتغذى على جسده لسنوات طوال، حاربه كاتبنا بشجاعة عجيبة. ولا يعد انتصار المرض هزيمة لمُعلمنا العظيم، فالموت بوابة لحياة أبدية فيها لا سقم فيها ولا فناء.

في تغطيتها للحادث الذي راح ضحيته «الكاتب الكبير» صرَّحت شبكة FBS على موقعها الرسمي:

لا للإرهاب.

صورة١: الكاتب الكبير عابس الوجه وهو يتطلع إلى السماء مُفكرًا.

صورة٢: ملثم يحمل بندقية.

تفاصيل الخبر: طالت أيادي الإرهاب الغاشمة واحدًا من أبرز أدباء بلادنا، ونطالب المجتمع الدولي بتكثيف ضغوطه للحد من انتشار

الإرهاب، وقطع دابر المتطرفين في كل مكان.

***

صحف عربية تولي اهتمامًا كبيرًا بتفاصيل الخبر الأكثر إثارة للجدل، وتشير بأصابع الاتهام إلى مؤامرة دبرها له أعداء الحق، أنصار الباطل على ضوء روايته الأخيرة التي يعكف على كتابتها والتي تمس رموزًا مقدسة.

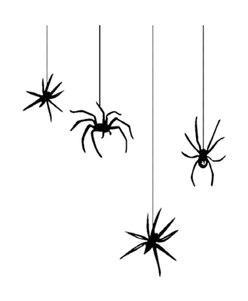
***

صحيفة عالمية:

انتحار أم جريمة قتل أم حدثٌ غامضٌ؟

صورة: الكاتب الكبير بملامحه الجامدة جالسًا فوق مقعد مكتبه، مُنهمك في الكتابة.

تفاصيل الخبر: الشرطة تخفي الكثير من المعلومات عن موائد الصحف والإعلام، إلا أن تسريبات من مصادر مؤكدة تقول أن هذه الحادثة ليست حادثة انتحار عادي ولا جريمة قتل تقليدية، بل إنها مُقدمة لحوادث غريبة تقوم بها مجموعة من الكائنات الفضائية فائقة الذكاء استعدادًا منهم لغزو كوكب الأرض.



(٣)

الشاهد الأول

«أسمر»

– أنا قاتل!

لم تسع الطاولة الدائرية الصغيرة لعشرات من الصور الفوتوغرافية التي تزاحمتْ فوقها؛ فتماطَر بعضها أرضًا، لم يجد «أسمر» متسعًا لوضع فنجان قهوته الساخن؛ فأقصَى بعض الصور، وترك للفنجان مساحة صغيرة يستريح فوقها بحُرية مشروطة.

الصور هي اللغة التي يتحدث بها شخص لا يحب الكلام كثيرًا، لكن الصورة التي يمسكها بين يديه في هذه اللحظة صورة مختلفة.. حية.. تصرخ!

عاد جالسًا فوق الأريكة في محاولة فاشلة ليوقف رعشة جسده، ورعدة يديه المدانتين بجُرم «قابيل»، أول جريمة تنوء الأرض بحملها، وينوء ابن آدم بإثمها.. تَفكَّر في فعلة «قابيل» وما سبقها، كيف شعر حين أقدم على انتزاع الحياة من جسَد أخيه، هل ارتجفت يداه، هل زاغت عيناه، هل زاره التردد، هل ابتدره أخوه بالتودد؟

أم كانت لحظة فجائية تعطَّلتْ فيها حواسه عن العمل، كجهاز كهربائي انقطعت عنه الكهرباء؛ فتوقف مَدد المشاعر الإنسانية عن السير في خلاياه، هل كانت تلك هي الثغرة الأخلاقية التي تسرب إليه منها شيطانه؟.. ملأ رأسه بوسوسته، وغمر قلبه بسمومه، تلبَّسه كرداء لا حول له ولا قوة، ولم يجسر الرداء على عصيان أوامر سيده.

- أنا قاتل!

هل نظر «قابيل» إلى يديه بعدها، هل عادت إليه دفقات المشاعر الإنسانية حين رأى دماء أخيه واشتمها.. أم كان قد فقدها إلى الأبد؟!

أخذتْ مطارق الألم تعمل بهمة ونشاط عند مؤخرة رأس «أسمر» وكأنها ستتقاضى عن جهدها أجرًا!.. ومُسكِّن الألم اللعين عقد اتفاقًا مع رأسه ألا يقرَبها!

- أنا قاتل!

لا تتوقف تلك الكلمة عن التردد بداخله.. وكأنه ابتلع شريط مُسجل لم يحفظ سواها..

رفع «أسمر» يديه بمحاذاة وجهه، وعلى الرغم من نظافتهما إلا أنه اشتم فيهما رائحة دماء بشرية طازجة.

***

الشخصيات الرئيسية تصعد إلى المسرح في الفصل الأول من المسرحية، وتكون الأخيرة حين يُسدل الستار في نهايتها، وفيما بين ذلك يقع على عاتقها القسم الأكبر من العمل، أَحَبَّ «أسمر» في صغره أن يقوم بدور الشخصية الرَئيسية فوق مسرح الحياة، لكن لم تسمح الحياة له، أُرغم على أن يؤدي دورًا ثانويًا هامشيًا، يكاد يكون غير مرئي، لولا وجوده الفيزيائي الذي لا تستطيع أن تُنكره قوانين الطبيعة؛ لاعتبرته الحياة ساقط قيد لم يأتِ إليها قط.

لكن «أسمر» ظل يبحث عن طريقة ليحتال بها على دوره الإجباري في المسرحية؛ ليصرخ:

- أنا هنا.. أنا موجود.. أنا مرئي.

لم يستطع أن يكون مرئيًا ببهرجة أبطال الحكايات، لكنه يحرص على أن يكون حاضرًا عند لحظات التنوير، لحظات سريعة، خاطفة، مؤثرة

بما يكفي لتُغير مجريات الأمور.. لحظات لا يمكن رصدها سوى بعدسة كاميراته الاحترافية الـ DSLR.. إن لم يكن واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين يزخر بهم مسرح الحياة، فعلى الأقل سيكون حاضرًا لالتقاط صورهم.. في الوقت المناسب والمكان المناسب.

لم يدرِأن الصورة التي التقطها هذه الليلة ثمنها سيكون غاليًا.. أغلى مما قد يصل إليه خياله!

اضطربتْ قسماته وهو يمرر عيناه فوق انعكاس صورته في شاشة التلفاز، لم يرَ فيها انعكاسًا لجسده فحسب، كانت تغطيه هالة كبيرة من الظلام، بدا انعكاسه أكثر قتامة من أي وقت مضى، وكأن الشاشة المطفأة قلَّت شهيتها لابتلاع الضوء الساقط عليها..

حمل المتبقي من قهوته ونهض باندفاع، يظن الرائي أنه سيهشم شاشة التلفاز بفنجانه الخزفي.. لكنه عدَّل مساره إلى الشرفة، صدح صوت الهاتف يُنبئه بورود مكالمة،بادَرة الصوت القادم عبر الأثير قائلًا:

- أين أنت؟.. لماذا لم تحضر الصورة حتى الآن؟

- سأحضرها لك في الصباح.. أنا متعب.. متعب كثيرًا.

قالها وهو يتحسس الضمادة الكبيرة الملتصقة بمؤخرة رأسه.. أتاه الرد مُغاضبًا:

- هل تمزح يا «أسمر»؟!.. أريدها الآن!

اعتصر الفنجان في يده حتى كاد أن يتهشم، قال محاولًا قدر استطاعته إخفاء التوتر في صوته:

- أرسل أحدهم ليأخذها.

- هل أنت في البيت؟.. سأرسل لك أحد العساكر... يا «حمار».. أنت يا «حمار».. اذهب إلى بيت «أسمر» وأحضر الصورة... «أسمر» المُصوِّر يا غبي... هيا تحرك.

قبل أن يجهزَ «أسمر» على المتبقي من قهوته الباردة، سقط منه الفنجان أرضًا.. سبَّ، لعن، عاد إلى الأريكة ثانية تاركًا الفنجان المكسور في محاولة لرأب صدع كسر آخر يتصدع بداخله، غاص بين أفكاره السوداوية، التقطتْ أنامله هاتفه المحمول.. استغرق في تفحُّص الصورة التي التقطها به منذ قليل، والتي ستُغير مجرى حياته.. إلى الأبد.

كان «أسمر» لا يزال جالسًا فوق أريكته يتفحص الصورة.. في الوقت الذي كان يعبث فيه أحدهم بـ «آلة الزمن» لتتحرك بضع ساعات إلى الوراء.. تحديدًا قبل أربعًا وعشرين ساعة من هذه اللحظة.

(قبل ٢٤ ساعة)

صور.. صور.. صور..!

إنها في كل مكان، فوق طاولة الطعام الخشبية، وأسفلها كذلك.. عند حواف الفراش، وفي مركزه كذلك.. فوق باب الثلاجة، وغطاء الغسالة، وذراع الأريكة.. خلف الوسائد، وعند الزوايا، وعالقة بين خصاص النافذة..

وحده السقف كان خاليًا من الصور.. هذه هي الحالة التي تُطالعني كل يوم فور عودتي المسائية من العمل.. لا شخص جالس بين أركان البيت ينتظرني، ولا رائحة شهية تنبعث من المطبخ تلبية لصرخات معدتي المُعذَّبة، ولا كلمات دافئة، أو لمسة حانية.. وحدها الصور كانت وفية لعشرتي.

دومًا تساءلتُ، كيف يعيش الناس في بيوت خالية من الصور؟!.. كيف يمكن أن يعيش إنسانٌ دون أن ينظر إلى الصور.. لا يهم أي مشهد ستحبسه الصورة داخل أسوارها الأربعة.. المهم كيف ستتمكن الصورة من أن تروي هذا المشهد الذي حبسته.

تنجح في أن تروي قصة المشهد، تعطي المعلومات، تغني عن ألوف الكلمات، يكتفي معها الرائي بعبارة «بدون تعليق»، تلك هي الصور البليغة الجديرة باصطياد اللحظات الهاربة من الزمن، وتُخلِّدها إلى الأبد.

بعض اللذين خلَّدهم التاريخ لو عاشوا في زمن غير زمانهم، ومكان غير مكانهم لكانوا مجرد ممسحة للأقدام!

وكذلك الصور..!

الزمان والمكان إذن!

هذا ما دفعني للانحناء في اللحظة التالية إلى وضع الركوع، فالسجود، فالزحف.. فوق البلاط العاري للحمام فور أن دخلته بهدف الاغتسال.. يتخفَّى وجهي خلف عدسة الكاميرا -عيني الثالثة كما أحب أن أدعوها- أحركها بتؤدة، أتتبع برغوثًا أزرق اللون، قرر أن يخرج من مخبئه في هذه اللحظة بالذات، ربما للبحث عن طعام، أو رفقة تؤنس وحشته، أول لعله يُلبي نداء حاجة بيولوجية لا أعرفها.. لم أكن برغوثا من قبل لذلك أظن أنه سيتفهم جهلي بالحاجات البيولوجية لحضرته!

- ما الذي أتى بك إلى هذا المكان يا صديقي؟.. أخبرني عما تبحث عنه وسأعاونك.

لم يتلفت نحوي، ظل يقفز ببطء وثبات، لم يكن مثل تلكم البراغيث المجنونة التي تثير غضبي بسرعة قفزاتها حين أفشل في سحقها بقبضتي، كان صغيرًا سمينًا وثقيل الحركة، يستكشف ما حوله بمزيج من الرهبة والرغبة، وكأنه قدم إلى الحياة للتو. جسده خالٍ من الشعر، مثل طفل بَشري حديث الولاَدة.. الملحوظة الثانية التي تعجبتُ لها بعد لونه الأزرق غير المألوف.. فعادة ما تكون البراغيث مُشعرة بنية اللون!

- إن كنتَ تبحث عن رفقة، فأنا لستُ رفيقًا جيدًا يا صديقي.. انظر.. حتى أنني لا أستطيع الاحتفاظ برفيق بشري واحد.. باستثناء «شاهق» بالطبع.

لم يثر اهتمامه فوج من النمل اعترض طريقه أثناء قفزاته المتأنية، ولا صرصور صغير قرر أن يعبر بجواره خارجًا من غرفة النوم، قاصدًا غرفة المعيشة. كنتُ لا زلتُ أتتبعه في وضع الزحف عندما مرَّ فوق قطرات دمائي التي سالت منذ قليل، إثر شظية من صحن انكسر فأصابتْ قدمي. لكن ويا للغرابة، لم يأبَه لدمائي كذلك!

خطر على عقلي فكرة مضحكة، قد يكون هذا البرغوث نباتيًا، يخالف بني جنسه مصاصي الدماء في عاداتهم الغذائية.

برغوثا أملَس أزرق اللون لا يشرب الدماء!.. لعلها فصيلة نادرة من البراغيث تساوي صورتها قيمة حقيقية، فما بال البرغوث نفسه!

فور تبادر هذه الفكرة على عقلي سارعتُ بترك عيني الثالثة أرضًا، ثم أحطتُ هذا البطل بكفي، وبعناية فائقة حملته حبيس أصابعي إلى المطبخ، تركته فوق الطاولة الرخامية للحظات حتى يتسنَّى لي فتح برطمان الملح وسكب ما به فوق الطاولة، ليصبح بعد ذلك بيتًا مؤقتًا له، ثم صنعتُ في الغطاء فتحات بسكين المطبخ، كيلا يختنق ويموت، وقبل أن أغلق البرطمان وضعتُ له عودًا ذابلًا من الجرجير كان قد تبقَّى من فطور اليوم.

- كُل هنيئًا مريئًا يا صديقي.

راقبته لبعض الوقت من خلال الزجاج الشفاف للبرطمان، لكن نداء النوم جذبني من موضعي، يجب أن أستيقظ بعد ساعات قليلة من أجل العمل.

- لا تنزعج ولكنني مضطر للنوم الآن.. فبعض المخلوقات عليها العمل من أجل لقمة العيش.. فإذا ما طُردتُ من مسكني وتضورتُ جوعًا لن أجد من يمنحني مأوى مؤقت، ويلقي لي بعود ذابل من الجرجير.

يا لي من أحمق.. بالتأكيد «شاهق» سيفعل.

كانت ليلتي خالية من الأحلام، ككل الليالي السابقة، وكل الليالي اللاحقة، أشتاق لأن أحلم ولو لمرةٍ واحدة فقط لأختبر هذا الشعور الذي يحكي عنه الآخرين، أن أكون بطلًا لفيلم قصير داخل رأسي، حتى وإن كان فيلمًا مرعبًا يقطع الأنفاس..مطاردة طويلة تنتهي بسقوطي أرضًا.. وجوه مفزعة تتراقص من حولي.. يد قابضة تسحق قدمي.. أو حتى السقوط من عل، أقبل بأي حلم فقط لأختبر شعور الأحلام.. لكن الحياة ضنَّت عليَّ بدورٍ البطولة في الواقع وفي الحلم كذلك!

تفقدتُ زميلي الجديد في السكن فور خروجي من الحمام، وارَى نفسه داخل إحدى وريقات الجرجير، لونه الأزرق اللامع جعله واضحًا جليًا فوق الورقة التي باتت تميل إلى اللون الأسود.. لا أعرف إن أعجبه مذاقها أم نفر منها وراح يتضور جوعًا منذ ليلة أمس.. لعله ليس نباتيًا في النهاية.

رحتُ أنقِّب في البيت بعين خبير عن فأر يتمخطر في طريقه من جدار لآخر، إن كان البرغوث من سلالة نادرة حقًا لا أريده أن يلقي حتفه جائعًا داخل البرطمان الزجاجي.. بئس ذلك.. تمرح الفئران في بيتي متى شاءتْ وكيفما اشتهتْ، لكن لا يُمكنني العثور على واحد إن أردتُ ذلك.. تُرى هل اشتمَّتْ بأنوفها الصغيرة رائحة الخطر؟

يبدو أنها أمهر من البشر.. إذ أن الواحد منا ينطلق بسرعة ضوئية صوب الخطر دون أن تطرف له عين.

قبضتُ على برغوث عاديٍّ بني اللون، ليس فريدًا كصاحبي.. سحقته بإصبعين، ثم فتحتُ البرطمان وألقيتُ بجثته في الداخل.

- لا أعرف إن كنتَ تملك ما يكفي من رادع أخلاقي يمنعك من أكل واحد من بني جنسك ذي لون مختلف ينحدر من سلالة مغايرة.. أم أن الجوع سيدفعك لالتهامه بغير تفكير.. تمامًا كما يفعل البشر مع بعضهم البعض.. يحرقني الفضول لأن أعرف.

لكنني لم أنتظر لأعرف.. فنداء العمل يناديني.. وقبل مغادرتي لم أنس أن ألتقط له بعض الصور.

كنتُ حريصًا على ألا أصدر صوتًا أثناء فتح باب البيت ونزولي الدَرَج، كلِص يفر بعد أن استولى على غنيمته.. حتى أنني حبستُ أنفاسي داخل صَدري، ولم أطلق سراحها إلا عندما بلغت بوابة البناية.. لا أريد لصاحب البيت أن يستيقظ ويراني.

اصطحبتُ إلى سيارتي معطفًا ثقيلًا يقيني برد يناير، عيني الثالثة التي قايضتها يومًا ما بكِليتي اليُسرى، ولم يساورني الندم على هذه المقايضة قط.

واصطحبتُ أيضًا الصورة التي التقطتها للبرغوث الأزرق بعدما مزَّقت التسعة عشرة الأخريات، كان يدنو فيها من جثة البرغوث البني في فضول استكشافي، منفعلًا.. لا أعرف إن كان حزنًا عليه أم فرحًا به.

ألقيتُ نظرة مطولة على حذائي.. يقول صديقي«شاهق» دائمًا أن أناقة الرجل تبدأ من سيارته وتنتهي بحذائه.. تذكرتُ ذلك فقبضتُ إصبعي الكبير كيلا يخترق أكثر الثقب في مقدمة حذائي.

أرحتُ الكاميرا والمعطف فوق المقعد المجاور لي، تركتُ السيارة ثم عدتُ صوب البناية مرة أخرى، لا يمكن أن أنطلق إلى العمل قبل ممارسة هوايتي المفضلة..

لا يزال السلم الخشبي والمطرقة في موضعهما خلف البوابة، أخرجتُ السلم وأسندته إلى جدار البيت الخارجي، حركته لأختبر ثباته فوق الأرض، لا أرغب في أن أقع من فوقه فتُدك عنقي، ليس اليوم على أي حال.

طفقتُ أدق ثلاثة مسامير لتثبيت صورة البرغوث الأزرق.. لم أكد أنتهي من تثبيتها حتى كان الناس قد بدأوا في التوافد صوب البناية، ما فائدة الصور المميزة إن علقناها فوق جدران منازلنا من الداخل، فلا يراها الجميع، لماذا نحتفظ بجمال الصور لأنفسنا في حين أنها اللغة الأسمى في التعبير؟

منذ أن كنتُ في المهد حلمتُ -حُلم يقظة- بإقامة معرض خاص بصوري.. لكن ضيق ذات اليد عائق رافقني لثلاثون عامًا.. ثم ابتكرتُ هذا المعرض المجاني.. جدار البناية من الخارج.. وكل فترة أضيف إليه صورًا جديدة.. تتراكم فوق القديمة.. لم يكن معرضًا مجانيًا فحسب بل روتينًا دفعني للنهوض باكرًا كل صباح دون تقاعس أو كسل.

أسميته «معرض القِيَم».. فكل صورة كانت تُعبر عن قيمة جمالية حُبسَت بداخلها.

ما إن نزلتُ من أعلى السلم حتى كان ثلاثة أشخاص يبدون إعجابهم بهز رؤوسهم في رضا.. على الأقل حين عودتي سأعرف إن كان أحد جيراني قد تعرف على فصيلة البرغوث الأزرق العجيب.

- «أسمر».. لحقتُ بك.. لا تهرب.. إياك أن تهرب.

رغم كل محاولاتي للبُعد عن دائرة انتباه صاحب البيت إلا أنه نجح -كعادته- في اصطيادي..

دون وعي مني كررتُ كلماته «أسمر.. لحقتُ بك.. لا تهرب.. إياك أن تهرب»، ثم قلتُ بارتباك:

- ولماذا أهرب؟!.. صباح الخير يا عَم «شلبي سليم الفخراني».

- صباحك هِباب.. أين أموالي؟.. إيجار ستة أشهر متأخرة.

- بالطبع.. سأدفعهم لك.

- متى.. أين.. كيف؟!

- انظر يا عَم «شلبي سليم الفخراني».. أعدك.. هذه المرة أعدك فعلًا.. أنني سأسدد ديني لك قريبًا جدًا.

- وإن لم تفعل؟

- سأفعل.. هذه المرة سأفعل.. لكن أرجوك اسمح لي بالانصراف الآن.. حتى أتمكن من العمل.. فأحصل على المال.. فأمنحك إيجارك المتأخر.

كاد أن يمسك بتلابيبي لولا شجار نشأ فجأة بين جارين في العمارة المقابلة.. أخرج واحد منهما سكين مطبخ وهجم على جاره في محاولة لتقطيع أوصاله.. بينما الآخر يرد الهجمة بهجمة مماثلة ويهدده بزجاجة بها مادة حارقة تشوي الوجوه.

للحظة واحدة فحسب التفتتْ أنظار المارة إليهما.. سكن الكون.. وكأن شخصًا ما ضغط زِر التوقف في آلة عرض.. لحظةً واحدة ثم عاد الناس يسيرون في طريقهم.. ويؤدون أعمالهم.. وكأن شيئًا لم يكن!

وقبل أن تعود رأس «شلبي سليم الفخراني» لتستدير نحوي، توجهتُ صوب سيارتي التي تعلوها كلمة «أجرة»،ثم انطلقتُ بها.

ومن خلفي تتصاعد صرخة بشعة لأحد الرجلين تشق عباب السماء.

تحركتْ السيارة ثلاثمائة متر يبتلعني وإياها ضباب كثيف، رأيتُ بصعوبة امرأة ستينية تشير بكفها إشارة التوقف، أستبشر عندما أفتتح يومي بالنساء العجائز، وكأن الواحدة منهن تسير وحولها هالة من البركة، وما إن تمس بهالتها مقعد سيارتي حتى تحل البركة في كل أركانها.. فتحتْ الباب الخلفي، واصطحبتْ معها للداخل أمارات الزمن الجميل. في يدها حقيبة بلاستيكية صغيرة تمسكها بإحكام حتى تجسَّد ما فيها؛ فالتفتُ نحوها محذرًا:

- هل حقيبة السمك مُحكمة الغلق؟.. لا أريد لسيارتي أن تتسخ.

عاينتُ خلال مرآة السيارة التوتر الذي افترش وجه المرأة، بالتأكيد لا تحب أن يعرف أحد أنها تشتري السمك أو تأكله، قالت باقتضاب:

- سِر على بركة الله يا أسطه.

رغمًا عني وجدتني مدفوعًا لتكرار كلماتها «سر على بركة الله يا أسطه».. عادة قهرية تُلازمني، تكرار بعض الكَلمات، والعبارات،

والأحاديث.. تمامًا كنبضات القلب اللاإرادية.. لا أستطيع التحكم في الاثنتين!

كان صوتها من تلكم الأصوات المشبعة بالأمومة والتي تجبرك على أن تقول:

- ونِعم بالله يا أمي.

بعد برهة سألتها:

- إلى أين يا أمي؟

أملتني العنوان. التزمتُ الصمت كعادتي. تقل ثرثرة الزبائن في الورديات الصباحية، لا يحلو لهم الثرثرة إلا ليلًا، وكأن زبائن الليل يفدون من عالم آخر غير عالم الصباحات. عالم الليل أكثر حبًا للبوح، وأقل حيطة في حفظ الأسرار. عالم الليل يدفع إلى الثرثرة فحسب، لا فرق بين أذن وأخرى، كل الآذان في الليل متشابهات.

يستطيع الواحد منهم أن ينطق برأيه حول قضية محظور التحدث فيها، أو أن يبوح صراحة بانتمائه السياسي، أو أن يلقي بنكتة ماجنة.. مادام واثقًا أنه لن يلتقي بالسائق مرة أخرى.. وكأن السائق حين يقود سيارته يتحلل من صفاته البشرية ويصير جزءًا من كتلتها المعدنية.. باستثناء لسانه وأذنيه.

وبما أنني لستُ من أولئك السائقين الذين يعانون من فرط التحدث -على غِرار فرط الحركة الذي يصيب الأطفال- فإنني لا أملك ما أمنحه لزبائنيَ سوى أذنين.

لم أهيئ أذني لاستقبال الثرثرة، فالمرأة لا يبدو عليها من النوع الشغوف بالتحدث إلى الغرباء، لكنني وجَّهت عيني شطر مرآة السيارة، وطفقتُ أختلس النظر إليها وأنا أتجهَّز لكي ألعب لعبة التخمين.. أخذتُ وقتي في تفحصها من خلال المرآة، قبل أن أقرر أنها امرأة من أسرة متوسطة الحال، إلى الفقر أقرب.. رغم التجاعيد التي احتلت مساحة

واسعة من وجهها، إلا أن بقايا جمال ذابل لاح في ثناياه، هذه المرأة ولا شك كانت تفاحة مغوية عندما كانت أصغر بنصف عمرها.

ربة بيت جيدة أيضًا تهتم بأهل بيتها فتبتاع السمك الطازج رغم ارتفاع ثمنه.. حجم حقيبة السمك يشي بأنها وجبة لشخص واحد فحسب، أو شخصين ضعيفي الشهية.. لكنني أرجح الأولى.

شيء واحد فيها بدا لي مثيرًا للاهتمام في نظراتها.. فالعين هي النافذة الوحيدة للروح.. الكاميرا الوحيدة التي تستطيع التقاط صورنا من الداخل.. وتعلقها فوق جدران وجوهنا متاعًا للناظرين.. يتأطّر في عينيها صراع جبار تقاسيه منذ وقت طويل.. وكأنها مُقدمة على فعل خطير..!

خالطتُ سؤالي بابتسامة، فالابتسامة بريد الوِد:

- هل تسمحين أن ألتقط صورة لكِ؟

اضطربتْ قسماتها وبدا الخوف جليًا في عينيها، لا شك أنها ظنتني رجلًا ثلاثينيًا غيرٍ متزن، يتعاطى المخدرات على الفطور، أو قاتلًا متسلسلًا يعاني خللًا نفسيًا يجوب الطرقات بسيارته الأجرة وحذائه المثقوب ليقتل النساء الوحيدات اللاتي تجاوزن الستين.

كنتُ قد اعتدتُ هذا الذعر وتلك النظرات كلما وجّهتُ سؤالي إلى إحداهن.. لم يكن سؤالًا في الواقع وإن حمل أداة استفهام، بل رجاءً يائسًا يفوح به صوتي، وتلتقطه حواسهن على الفور، وكأنها الأمنية الأخيرة لسجين ينتظر تنفيذ حُكم الإعدام.

الكثيرات يرفضن، البعض يقبلن، وأخريات يلتزمن الصمت حيرة أو حرجًا، أو خوفًا من إثارة غضب معتوه يشتهي تصوير ضحاياه قبل قتلهن.

فجأة، انفجرت في البكاء بعنف، وكأنه كان حبيسًا بصدرها منذ أن ركبتْ سيارتي وانتظر اللحظة التي أطلب فيها أن ألتقط لها صورة

لينفجر في وجهي.. لم أتفوه بكلمة واحدة، ليس احترامًا لحزنها بل لأنني لا أعرف ماذا أقول في موقف كهذا، أكره دموع النساء، لا أفهمها والإنسان عدو ما يجهل، تربكني، وتتركني عاجزًا عن الإتيان بكلمة أو حركة.

امرأة تفضح عيناها صراعًا رهيبًا بداخلها.. تبكي فجأة بدون سبب.. تلتزم الصمت وتتحرك باضطراب ملحوظ.. تشتري السمك.. كان لدي تخمين وحيد، ولم أقاوم سؤالها كثيرًا؛ بادرتُها:

- أخبريني يا أمي، هل ستُخضعين للجراحة شخصًا تعرفينه؟

على الفور امتقع وجهها وتمعَّر، ردَّتْ لي الصمت جوابًا، لم نتبادل حرفًا حتى محطة نزولها، أنقدتني الأجرة بعدما وجهَّتْ نظرة خاطفة نحو العَدَّاد، ثم فارقَتْ السيارة.

أصبحتْ جراحات زرع «صمام الضمير» متزايدة بشكل لا يُصدق!

كل هذا الهراء بدأ فجأة، باغتنا من حيث لا يتوقع أحد، جراحات بغير مبضع، بغير مخدر، بغير قطرة دماء، انتشرتْ أخبارها في عالمنا كانتشار النار في الهشيم، لم نسمع عنها في الإذاعة، لم نقرأ عنها في الصحف، ولم نشاهدها في التلفاز.

لكننا كنا نعلم أنها موجودة، يتناقل الناس أخبارها خلسة في مجالسهم، يبوح بها الرجال سرًا في استراحات العمل، وعلى المقاهي، وعند نواصي الطرقات، تثرثر عنها النساء عبر الأثير، وفوق المصاطب، ومن الشرفات.. الكل يدلي بدلوه بشأنها، حتى الأطفال في المدارس يتباحثون في أمرها وكأنهم لجنة مُشكَّلة من الفقهاء.

استيقظنا ذات صباح لنجد الناس تتحدث عن عمليات جراحية لزرع صمام للضمير.

في البداية لم نصدق المزاعم الخرقاء، هل تقدم الطب إلى هذا الحد؟.. هل يمكن زرع صمام للضمير؟.. وكيف ولماذا يُزرع؟.. وهل يمكن نزعه من الجسد مرة أخرى؟.. هل يمكن رؤيته ولمسه، أم أنه كالفيروسات لا يُرى بالعين المجردة؟.. هل يمكن شمه، أم أنه كالهواء، حمَّالاً لروائح المواد الأخرى فحسب.. هل يلفظه الجسم ويحاصره بالأجسام المضادة كما يحدث عند زراعة كلية أو قرنية أو جزء من الأمعاء؟.. مئات الأسئلة تتوافد على العقول، وكلما منح الناس أنفسهم إجابات لها؛ نبتت في عقولهم أسئلة جديدة.

كانت إجاباتهم يتم خلقها من العدم، كل منهم يشكلها من طينه الخاص، وينفخ فيها من روحه ما يعتقد أنه الحق ولا شيء سواه.

لا يحتاج إلى زراعة الضمير سوى شخص اقترب من حافة اللاإنسانية، أو هوى في جُرُف الحيوانية.. وهل يُميز الإنسان عن الحيوان إلا في امتلاك الأول لناصية الضمير؟!

جراحات وقائية وعلاجية إذن، كأن تأكل البرتقال كَيلا تُصاب بالزكام، أو تأكله بعد أن تُصاب به كي تكافحه.. ومع ذلك ظل الحديث عنها يحوي نوعًا من الحُرمانية.

الأمر لا يخضع لرغبتنا في الخضوع لتلك الجراحات، لا يشبه الأمر أن نتوجه إلى المشفى لاستئصال الزائدة الدودية، أو لزراعة البنكرياس.. الرغبة هنا لا موقع لها من الإعراب.

ففصيلة «العلماء» الذين أطلقوا تلك الدعوات هي التي تختار مرضاها، تُقدم فرصة الجراحة لأحدهم على طبق من ذهب.. تتيح له فرصة واحدة فحسب لأن يُخضع لها أحد أقربائه دون موافقته، ودون معرفته.. لا أحد يعرف متى وكيف يحدث ذلك، فاللذين وافقوا على أن يُخضعوا أقربائهم لزرع صمام الضمير يتكتمون تمامًا على الأمر.

كنا نعرف أن الطباعة ثلاثية الأبعاد تقدمتْ كثيرًا خاصة في مجالي الطب والهندسة الحيوية، أو على الأقل أنا كنتُ أعرف ذلك من خلال ما يُبث من راديو السيارة، رفيق الطريق الذي لا أمل منه ولا يملني. وعلى الرغم من ذلك لم أتصور أن التقدم الطبي قد وصل إلى الحد الذي مكَّن «العلماء» من تخليق صمام للضمير!

لا أنكر أن المستوى الأخلاقي في تردٍّ يومًا بعد يوم، لم يعد أمام الناس رادع ديني أو أخلاقي إلا القليل منهم.. خلَتْ دور العبادة من المتعبدين، أغلقتْ الكثير من المساجد وتحولتْ إلى عيادات وخدمات للأهالي، عششتْ الخفافيش في أسقف الكنائس.. كنا نهوي بسرعة ولا نعرف إن كانت تلك الجراحات قادرة على إنقاذ ما تبقى من إنسانيتنا أم لا.

ولعل كل ذلك هو محض هراء، لا وجود لـ «العلماء» ولا لتلك الجراحات من الأساس، كملايين الإشاعات التي تُولد في المساء وتعيش لصباحات عدة دون أن يدري أحد كيف ولدت وكيف ماتت.. ويبدو أن ثلاثة أشهر ليست وقتًا كافيًا لأن تلفظ تلك الإشاعة أنفاسها الأخيرة.

هذا دفعني لأفكر لماذا لا تحرص مافيا الأعضاء البشرية على سرقة الضمير؟.. لماذا يقتصر جُل اهتمامهم على العيون والقلوب والنخاع والأكباد.. أليس الضمير أكثر أهمية من كل تلك الأعضاء مجتمعة؟!

الأعضاء تُبقي الإنسان على قيد الحياة، أما الضمير فيُبقي الإنسان على قيد الإنسانية.

نعيش في عالم مثل قطار سريع ينطلق بسرعته القصوى صوب الجحيم، ولا شيء قادر على أن يوقف القطار، أو ينقذ رُكَّابه من مصيرهم المشئوم.

لكن.. ربما يستطيع «العلماء» كبح جماح هذا القطار.. ربما.

أخذت أفكر.. ماذا لو نشأت موجة مضادة تقوم بعمليات استئصال الضمير؟

الضمير هو الشيء الوحيد الذي يتمكن من أن يؤلمني، أحبه حين ينكأ جراحي ويؤلمني، أحبه حين يفتش في الجروح عن الصديد والقيح والوسَخ، أحبه حين يخنقني ويعذبني عذابًا تشتهيه نفسي.. أشعر دائمًا أنني رجل يستحق العذاب، وضمير يقظ هو العقاب الأمثل لرجل يستحق العذاب.

نحن على أي حال لا حاجة لنا إلى عملية جراحية متطورة كي نستأصل ضمائرنا.. إنها تضمر وتفسد وتموت دون تدخل جراحي!

❧❧

لم تبتعد المرأة حاملة السمك سوى بضع خطوات فحسب، ظننتُ خلالها أنها لا ترغب في رؤية وجهي مرة أخرى.. لكنها استدارت بروية.. وعادت إلى مكانها فوق المقعد الخلفي.. طال انتظاري لصوتها.. وأخيرًا خرج مضطربًا متحشرجًا يقول:

- اسمع يا بني.. لا أعرف كيف عرفت ما تعرف.. لكن بما أنك عرفت ما أعرف أنه يجب أن يبقى سرًا.. فسأطلب منك أن تقلّني وزوجي إلى إحدى المدن الساحلية القريبة.. اليوم ظهرًا.. وقبل أن تعترض.. فكر مليًا.. سأمنحك ضعف الأجرة التي تستحقها.

- والصورة؟

-أأأ.. أ.. والصورة.

كنتُ في حاجة بائسة للمال، وأتلهف على الاحتفاظ بصورتها، لكن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعني للموافقة.. إنه الفضول.. الفضول الذي ملأ قاع الجحيم بصرخات العُصاة.

ساعة ونصف تفصلنا عن الظهيرة.. لم أكن بحاجة لأن أسأل سبب احتياج المرأة للساعة والنصف قبل الرحيل.. كان عليها أن تُعد لزوجها وجبة سمك أخيرة.. يجب أن تكون الوجبة الأخيرة للخاضعين لجراحات زرع صمام الضمير هي السمك، ولا شيء سواه!

❧❧

- اختفى البحر.. هل تُصدق هذا الهراء؟!.. أنا لا أصدق أي شيء لا تراه عيناي، ولا تلمسه يداي!

قالها زوج المرأة الجالس في المقعد المجاور لي.. رجل طويل القامة، عريض الجسد، شعره أسود كثيف وكذلك حاجباه وشاربه.. صوته مرتفع كثيرًا بغير داع.. وكأن أحدهم رفع زر التحكم في صوته لأقصى درجاته، ثم انكسر؛ فلمْ يعد قادرًا على خفضه ثانية.

تنبعث منه رائحة قذرة جدًا.. رائحة مطاط محروق كأشد ما يكون الاحتراق.. لا تتذكر غُددي الشمِّية أن مَر بطرقاتها روائح أسوأ. الغريب أنه بدا وكأنه لا يشم تلك الرائحة التي هو مبعثها، إلا أن تقلُّص وجه زوجته المنعكس في مرآة السيارة أنبأني أن أنفها يُشاطرني الرائحة ذاتها.

كان يُكلم جمهورًا وهميًا:

- البحار لا تختفي يا سادة.. إنه وباء قذفته رياح البحر فأصاب عيون جميع من يعيشون في المدن الساحلية فتوهموا ذلك.

- لكن منذ الصباح تَعرِض القنوات صورًا حية للشواطئ الخالية من المياه.

- اخرسي يا امرأة، وما دخلكِ أنتِ!

انكمشتِ الزوجة على نفسها كقطة ركلها صاحبها بمقدمة حذائه.. لو كنتُ رجلًا مُحبًا للحديث لشاركته أفكاري كلها.. لكنني أكره الكلمات التي لا طائل من ورائها.. بعد قليل سنصل إلى المدينة الساحلية، وسنرى بأنفسنا البحر رؤى العين.. أقصد سنشم رائحته من خلف الجدار الإسمنتي العازل.. فلا يمكننا أن نرى البحر أبدًا.. البحر محرَّمٌ على عامة الشعب من أمثالنا.

هل نزع البحر رداءه الأزرق الخارق وعاد إلى حقيقته العارية؟!.. رمال وصخور مهجورة وأشلاء حيوات.

لم أكن قد سمعتُ بواقعة اختفاء البحر حتى جلس الزوج بجواري منطلقين ثلاثتنا في رحلتنا إلى إحدى المدن الساحلية التي لا تبعد كثيرًا عن العاصمة، وقبل أن أسارع بتكذيبه أدرتُ مفتاح المذياع فأكدتْ كل الأصوات المتسربة منه في مختلف المحطات أنه صادق في مزاعمه.

اختفى البحر!.. يزعمون أن البحر لملم أياديه عن بلادنا، وجاد بها في بلاد الغرب وحدها، طغى صوت الزوج الجهوري على صوت ضيف البرنامج الإذاعي، إذ صاح:

- أسمعتَ!..البحر لم يختفِ في البلاد الغربية الواقعة على شواطئه.. نحن فقط من طالنا غضبه.. إن جئتَ للحق نحن نستحق ذلك وأكثر، نحن حثالة البشرية، حتى البحر بنفسه شهد بذلك.

ثم التفتَ نحو زوجته صائحًا:

- ألم أقل لك أن نهاية العالم قد اقتربت يا امرأة.. وأنتِ لا زلت تزعمين أن في الدنَيا خيرًا كثيرًا.. ها ها.. الخير ابتلعه البحر و «طَفَش».

التبس عليَّ الأمر فلم أعد أعرف هل يُكذب الرجل الأخبار أم يصدقها!.. يتحدث كخبير سياسي تارة.. وكرجل شارع تارة أخرى!

كان لا يزال إسهال الكلمات يتسرب منه بغير انقطاع.. حتى عندما وصلنا إلى وجهتنا، وتوقفتُ بالسيارة أمام الشاطئ.. أو ما كان قبل بضع ساعات شاطئًا لبحر بامتداد البصر.. صحتُ بصوت حمل كل أمارات الدهشة:

- من الذي هدم الجدار العازل؟

فأجابني بصوت حمل كل أمارات الاحتقار:

- من بنوه.

ثم استطرد متشفيًا:

- حرمونا من البحر.. فحرمهم من نفسه.. أرأيتَ كيف عاقبهم الله على ظلمهم وبطشهم.. أمن العدل أن البحر لسادات البلاد وحدهم؟.. من يرضى بأن يُطوَّق البحر بجدار عازل كي يتمتعوا به دوننا؟

هذا ما نشأنا عليه منذ الصغر.. البحر للسادة فحسب.. لا يمس شاطئه إلا المطهَّرون، أما باقي فئات الشعب فمن المغضوب عليهم.. يدَّعون أنهم بذلك يحافظون عليه من الوسخ والنجاسات.. في الحقيقة لا أذكر أن البحر كان نجسًا قبل بناء الجدار العازل، لي معه ذكريات قليلة، لكنها في ثنايا عقلي راسخة.. يحتضنني بينما أعوم فيه وأغطس.. وألعب وأمرح.. لا أذكر أنني نجَّسته.. أو لعلي فعلتُ دون أن أدرك.

الآن هُدم جزء صغير من الجدار.. سمح بتجمهر الناس حول مُبتدأ البحر الذي كان.. لا أعرف إن كان في تجمهرهم لوعة الفقد.. أم شغف الفضول.. أخرجني الزوج من شرودي بينما يعبر فتحة الجدار المتهدم وقال:

- لكنني أقول لك لا يمكن للبحر أن يختفي.. هذا جنون.. إنها مؤامرة ماسونية على بلادنا لكي.....

اختنق بغتة ببقية حديثه، أما المرأة فجحظتْ عيناها وحركتْ شفتيها في وجل، تتلو آيات من القرآن بصوت خافت وكأنها تُعاين نهاية العالم.. طفقتُ أزاحم التكتلات البشرية التي تركتْ أعمالها ومدنها وقدمتْ كي ترى البحر الذي تركنا وهرب.. زحام شديد وكأننا في أرض المحشر.

سمك وفير نافق غطى مساحات شاسعة من الأرض لم يتوقع هذه الخيانة قط من البحر الذي آواه.. لولا أنه أحد الميتتين المُحلل أكلهما لكان موته هباءً منثورًا.

اصطدم بي أحدهم مُحمَّلًا بما استطاع حمله من السمك، يتخبط حماسة كأنه عثر على كنز قارون.. فليس البحر وحده هو علينا ممنوعًا.. بل خيراته كذلك!

لا يمكن شراء السمك إلا من السوق السوداء.. يُعادل فيها جرام السمك القيمة ذاتها لجرام الذهب!

- دعه إنه لي.

- بل هو لي.

- إن لم تتركا وعائي ستندمان!

نشبت بالقرب منا مشاجرة بين ثلاثة رجال على وعاء مملوء بالسمك.. ورغم أن تحت أرجلنا ما يفيض منه ويزيد إلا أن ثلاثتهم تشبثوا بالوعاء وكأنّ تاركه تخلَّى عن شرفه ورجولته.

للحظة واحدة التفتتْ إليهم الرؤوس.. هذا ما يتطلبه الأمر في عصر السرعة.. عصر لا يستطيع المرء أن يواكب فيه تسارع الأحداث وتطورها ودرجاتها المتفاوتة.. لا يتوقف ليفهم.. بل يشاهد فحسب.

للحظة واحدة شاهدهم الجمع الملتف حولهم ثم انفضوا عنهم.. وبعد دقيقة أو يزيد كان رجلان منهما يتكومان فوق الأرض والدماء تتفجر من جسديهما ينبوعًا يروي الرمال العطشى.. أما ثالثهم فنفض الدماء عن يديه.. وحمل وعاء السمك فوق كتفيه .. أولانا ظهره.. ثم انصرف.

حاولتُ قدر استطاعتي تجاهل ما حدث منذ قليل.. هذا ما اعتدناه في عصر السرعة.. لا يمكن أن نمنح فيض مشاعرنا لكل حدث ولكل حادث.. فالأحداث كثيفة وثقيلة ومتسارعة.. لكن التجاهل ليس سهلًا كما يبدو..

إنه يتغذى على إنسانيتنا وأرواحنا وقلوبنا من الداخل!

استرعى انتباهي سرطانات صغيرة تقفز فوق أقدامنا فزعة.. أو لعلها غاضبة من تعدينا السافر على مساكنها.. كان بطن البحر مبقورًا فلفظ كل ما فيه من موجودات، كائنات بحرية، طحالب ونباتات، آثار سُفن أبحرتْ فيه ذات رحلة وتدمرتْ، رسائل حب كُتِبت كي لا يقرأها أحد، جثث مُتحللة لأناس غرقوا دون أن يفتقدهم أحد.

نفايات تُركتْ عند الشاطئ عمدًا أو سهوًا؛ فابتلعها البحر الثائر بغضب.. عجبًا،ألم يخبرونا أنهم يحمون البحر منا كي لا يطاله الوَسَخ؟!

لم نبقَ طويلًا.. أو بالأحرى لم يسمحوا لنا بالبقاء.. جاءت دوريات حفظ النظام لتُعيدنا إلى خلف الجدار.. وعكفوا على سد فتحاته بالطوب وَالإسمنت، كانت أمارات التخبط على وجوههم صارخة.. أما الناس فكانت تتوزع نظراتهم بين الشماتة.. واللامبالاة.

عادت سيارتي تواصل رحلتها حاملة ثلاثتنا.

يظن الزوج أنه ذاهب لزيارة أخت زوجته المريضة التي تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، هذا ما فهمته من سيَّال حديثه الذي لا ينقطع، وكان رؤوفًا بما يكفي ليُلبي رجاء زوجته للسفر، حتى أنه قال:

- وهكذا تجدني طلبتُ يوم أجازة من عملي.. أنا عامل في مشرحة الطب الشرعي هل أخبرتك بذلك؟.. يوم عطلة بدون راتب من أجل تلك العجوز البخيلة بنت الـ......، لعلها تموت هذه المرة حقًا وتترك لنا مالًا يُعيننا في هذه الأيام بنت الـ......، ولولا أنها أرسلت لنا سيارة مدفوعة الأجرة لتقلّنا ما تحركتُ من مكاني خطوة واحدة.

ثم التفتَ صوب زوجته:

- ولا تنسي هذا المعروف.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة قائلًا:

- حتى إن نسيتِ فأنا قادر على تذكيركِ.

قالها وهو يتأمل من النافذة مجموعة فتيات في سن حفيدته لو كان لديه واحدة. أخرج رأسه، وخدش حيائهن بعبارة قذرة ومزحة فاسقة، ثم أخذ يقهقه عاليًا.

تمالكتُ نفسي بصعوبة كي لا أفتح الباب المجاور له وألقي به خارج السيارة بينما تسير بسرعة كبيرة، ألقيتُ نظرة على الزوجة تقول الكثير، لا أظن أن أي عمليات جراحية مزعومة قادرة على أن تخلق من هذا «الشيء» كائنًا آخر أكثر آدمية.. هذا درب من المستحيل.

نحن نُحارب كي تبقي ضمائرنا حية، هذه هي الحرب الأشرس وسط حروب الأسلحة والدبابات.. وهذا الرجل يبدو أنه لم يبذل جهده قط من أجل إحدى الحُسنيين.. النصر أو الشهادة.

عامل في مشرحة إذن!.. فهمتُ الآن سر الرائحة البشعة.. لا بد أن ملابسه مشبعة بمادة «الفورمالين»، الحافظة للجثث من التحلل.. لكنها مشبعة بها أكثر من اللازم، وكأنه هو نفسه جثة تمشي على قدمين!

***

تم الأمر بسرعة وبحرفية شديدة، لم أكن لأنتبه لو لم أرقب الزوجين بعد أن غادرا السيارة، أنقدتني المرأة مالي سرًا هامسة:

- شكرًا لك يا بني.

صوبتُ عيني الثالثة على وجهها لأحفظه بين جدران أربع، ثم دارت على أعقابها لتلحق بزوجها.

لو لم أتتبعها بأنظاري لما انتبهتُ للسيارة السوداء المتوقفة على بُعد أمتار من البناية التي تقطن فيها أخت الزوجة.. ففجأة، انقض رجلين على الزوج من الخلف، قاوم لثوان فحسب، ثم سقط جسده الضخم بين أيديهم كخرقة بالية، لم أتبين ماً يمسك به أحدهما في يده، لكن لا بد

وأنه محقن مخدر قوي سرَّبه إلى دمائه بسرعة ومهارة.. الزوجة كانت كمن يُمثل في فيلم تحفظ فيه دورها مسبقًا.

ما إن سقط زوجها حتى هرولتْ سريعًا إلى المقعد الأمامي للسيارة السوداء، يتبعها الرجلان محملين بزوجها في المقعد الخلفي، ثانيتان وانطلقت السيارة بسرعة قصوى.

كان الأمر سريعًا جدًا، وبسيطًا جدًا.. بنفس سهولة عشرات حالات الاختطاف التي نسمع عنها يوميًا والتي لا يشعر بها أحد.

عدتُ إلى العاصمة في الثامنة مساءً، عندها هاجمتني جرعة زائدة من الإجهاد، لم أكد أتوقف لآخذ استراحة عند قهوة «العطَّاسين» التي أعشش فيها ليلًا قبل التوجه إلى بيتي، وأتخيَّر مقعدي المواجه للشارع في الزاوية اليمنى للمقهى؛ حتى صرختْ معدتي جوعى. فغادرتُ متوجهًا إلى «محل الكشري» الذي يمتلكه « شلبي سليم الفخراني» على بُعد شارع واحد من المقهى. هذا الرجل يُعد أسوأ «طبق كشري» قد يتناوله المرء في حياته، لكنه الأرخص كذلك.

لماذا أتوجه بإرادتي إلى الرجل الذي أهرب منه؟.. بالطبع لأن هذا هو قانون الحياة المقدس، تقودنا دومًا نحو الطرق التي لا نرغب في المرور فيها.

عندما وصلتُ كان المطعم مزدحمًا كعادته، فحمدتُ الله على ذلك، لن يتمكن الرجل من التحدث معي في ظل انشغاله. وبعد ساعة ونصف واقفًا على قدمي في طابور طويل، وصلتُ إليه أخيرًا متقطع الأنفاس، وثيابي كما لو أنها خرجتْ من فم كلب. استقبلني بابتسامة فاترة وكأنه لا يعرفني، لا بأس، فقد اعتدتُ تصرفاته الهوجاء.

– أرغب في «طبق كشري» كبير يا عم «شلبي سليم الفخراني».. وأزد من الشطة.

أخرجتُ المال ووضعته أمامه فنظر إليّ باشمئزاز، هتفتُ بغيظ:

- هل رفعتَ ثمنه؟

- كلا، لكن أوراقك ناقصة؟

استبدَّتْ بي الدهشة، سألته حائرًا:

- أي أوراق؟

أشار بنفاد صبر إلى الطابق العلوي للمطعم، ثم قال:

- اصعد عند مدام «عفاف» في الدور الثاني واختم المال، ثم خذ توقيع اثنين من الزبائن.

هل فقد الرجل عقله؟!.. أوصلتِ البيروقراطية إلى طبق الكشري؟!

ظننته يمزح.. فضحكتُ.. ازداد امتعاضه.. فعبستُ.

صعدتُ إلى الطابق العلوي، فوجدتُ سيدة متهالكة تجلس فوق كرسي عجوز.. أو العكس!

ختمتِ أموالي، وطلبتُ من اثنين من الزبائن أن يمنحوني توقيعهم وأنا أضرب كفًا بكف.

عندما عدتُ إلى عم «شلبي سليم الفخراني» لم يسمح لي بتجاوز دوري، فكان علي أن أقف في الطابور مرة أخرى. انقضتْ ثواني وساعات وأشهر وسنوات قبل أن أقف أمامه متقطع الثياب، ووجهي هذه المرة كما لو أنه هو الذي خرج من فم كلب.. سألني ببشاشة:

- هل ترغب في اشتراك سنوي دائم في المطعم تحصل من خلاله على طبق كشري يوميًا دون الوقوف في الطابور؟

- أرغب بالطبع.

- استدر.

استدرتُ. أزاح قميصي قليلًا عند الرقبة وبصق فوق ختمه، ثم ألصقه بقفاي.

هذه الحياة ستقتلني يومًا ما..

أو أنا من سيُنهيها!

ما إن عدتُ إلى مقعدي الأثير في قهوة «العطّاسين» حتى أسقط أحدهم جسده الضخم في المقعد المقابل لي.. هاتفًا:

- أين أموالي؟

يبدو أنه تعقبني فور مغادرتي لمطعمه، ما كان عليّ أن أذهب إليه من الأساس ولو كان في ذلك موتي جوعًا. عادة ما يلقي وجه «شلبي سليم الفخراني» الغليظ في قلبي الهيبة، إلا أنني صحتُ في وجهه مغتاظًا بعد وجبة الكشري الفاسد التي تمزق أمعائي في تلك اللحظة:

- لا تتوقع بالطبع أن أتكسَّب ما يوازي إيجار ستة أشهر في يوم واحد!

عندما يتطرق الأمر إلى ماله، يصير الرجل كبرغوث يلتصق بالجسد ولا يتركه حتى يمتص دمه.

نظر لنا أحد رواد المقهى شزرًا.. في قهوة «العطّاسين» يجب أن تعطس باستمرار.. وألا يمر بين عطسة وأخرى أكثر من ثلاث دقائق!

أخرجتُ من جيبي مسحوقًا ثمينًا سيَّالًا للعطس.. تنشَّقته.. فخرجتْ مني سلسلة طويلة من العطس كانت كافية لإثارة غيرة روَّاد المقهى.. حتى أن «شلبي سليم الفخراني» انتزعها مني واستنشق مرتين ثم أطلق سلسلة أطول وكأنه يبارزني بالعطس.

ثم بصق بجوار حذائه وقال:

- كنتُ أعرف أنك لن تنفع في شيء.. لولا أن أباك كان رجلًا طيبًا لألقيتُ بك خارج بيتي منذ سنوات.. اسمع ما أريده هو مالي فحسب.. ولا يهمني أي باب من أبواب الجحيم ستلجه لتأتيني به.

- صدقني أنا...

- أغلق فمك واسمعني.

بصق ثانية.. لكن هذه المرة في منتصف المسافة بين حذائي وحذائه.. حاولتُ أن أغالب شعوري بالاشمئزاز إلا أن تركيزي ظلَّ موزعًا مناصفة بين الرجل وبصقته، استطرد يقول:

- أنت رجل تحب التصوير وكل هذا الهراء.. سأمنحك فرصة لالتقاط صورة مهمة.. مهمة جدًا.. تبيعها لإحدى الصحف وتأتيني بمالي.. لكن إن أفسدتَ الأمر...

لم يكمل عبارته، إلا أنه لوَّح بسبابته في إشارة ذات معنى تهديدي واضح.. كنتُ حتى هذه اللحظة لا أولي لكلمات الرجل اهتمامًا يُذكر.. حتى مال صوبي .. وتلفَّت حوله وكأنه سيبوح لي بسر عسكري.. ثم همس بصوت كالفحيح إمعانًا في أهمية الأمر:

- «الكاتب الكبير»!

كلمة سحرية رفعتْ معدل تدفق الأدرينالين في دمي.. شعرتُ بطعمه اللاذع في أوردتي وشراييني.. حتى وكأن الدماء تضرب بحماس كالنافورة في منتصف رأسي.

اختل الميزان، أصبح نصيب الأسد من تركيزي مُنصَب على حوار الرجل، «الكاتب الكبير» إذن!.. لا أذكر أن صحفيًا نجح ومنذ سنوات طوال في أن يتلقط له صورة واحدة، يتوارى دائمًا عن الأنظار، يرفض أن يضع وجهه في مواجهة عدسة كاميرا، حتى أن أحد زبائن قهوة «العطَّاسين» أعدَّ مسابقة بجائزة نقدية كبيرة لمن ينجح في أن يلتقط له صورة واحدة، ولكن الجميع فشل في الوصول إليه.

صورة كتلك من شأنها أن تُغير حياتي.. للأبد!

- هل تمزح معي؟

- يا ابن الـ...، هل أبدو كمن يمازحك؟

كدتُ أصفعه إذ سبني.. لولا أن تذكرتُ في اللحظة الأخيرة الإيجار المتأخر، وثلاجتي الفارغة عن بكرة أبيها، أخزيتُ الشيطان كما كانت أمي رحمها الله تُوصيني أن أفعل من أجل «لُقمة العيش»، هذه النصيحة التي تترأس دستور الأمهات غير المكتوب. قلتُ:

- هل تعرف مكانه حقًا؟.. أحقًا تعرف؟

- أعرف، لكن فلنتفق أولًا.. للصورة ثمَن.

حكَّ سبابته وإبهامه ببعضهما.. فقلتُ بانفعال لم أكتمه:

- بالطبع.. لك إيجار ثمانية أشهر لا ستة فحسب.

- بل سنة.

- فليكن ما تقول.

استراح في مقعده أكثر وقال مغتبطًا:

- حلو الكلام.. اسمعني جيدًا.. تعرف بالطبع أنني أعمل في «بوفيه» الجريدة التي يرأسها «حصان طروادة».

بالطبع أعرفه.. فـ«حصان طروادة» هو مَثلي الأعلى في الحياة!

سمعتُ عبر راديو السيارة كل البرامج الحوارية التي استضافته كضيف رئيسي، ورأيتُ صورته في الصحف مئات المرات، وكذلك على شاشة التلفاز..كانت تحيط بالرجل الملقب به هالة من العظمة تدفع بداخلي الرهبة دومًا، وفي إحدى المرات رأيتُ سيارته تجاور سيارتي عند إشارة المرور.. بدا وجهه على الحقيقة أكثر واقعية، كعشرات الرجال الذين يركبون سيارتي يوميًا، لا شيء ظاهري يميزه، حتى صوته على

الحقيقة كان كالمطاط، يصعب وصف الصوت المطاطي، لكنها تلكم الأصوات التي يسهل نسيانها، ولا ترتبط في الذاكرة بشخص بعينه.

هذا الرجل أحجية فشل الجميع في فهمها، داهية حلَّت على عالم الصحافة بغير سابق خبرة، يستطيع أن يتحصَّل على أخبار دفنها أصحابها منذ أزمنة سحيقة في أعمق نقطة من باطن الأرض، لكن الأزمنة والمسافات لم تقف يومًا عقبة في وجه الرجل.. وفي فترة وجيزة أمسى رئيس تحرير لأكبر جريدة في الدولة، لا أحد يعرف مصادره التي يتحصَّل من خلالها على الأخبار، لا أحد يعرف كيف يُطعِّم كل خبر بأدلة لا تقبل شكًّا ولا طعنًا، ولا أحد يعرف كيف نبتت موهبته فجأة من العدم كنبتة شيطانية!

يُقال أنه ومنذ عامين فحسب كان خريج معهد متواضع برتبة عاطل، يتنقل من عمل إلى آخر، تفتقر حياته إلى الاستقرار رغم اقترابه من أعتاب الأربعين، لكنه صار الآن أكثر شخصية مثيرة للجدل في دولتنا، عرَّف نفسه بـ «حصان طروادة»، ويستخدم الاسم باستمرار في مقالاته الصحفية وفي البرامج الحوارية، وفي كل مكان، لم نعرف يومًا إن كان «حصان طروادة» هو اسمه الحقيقي أم اسمًا مستعارًا، لكن والحق يُقال هذا الاسم لم يُخلق إلا له.

كان «شلبي سليم الفخراني» لا يزال يستطرد:

- وهكذا.. بينما كنت أضع فنجان القهوة على مكتب «حصان طروادة».. التقطتِ أذناي عنوان «الكاتب الكبير».. حين أملاه «حصان طروادة» على الصحفي الصغير آمرًا إياه «غدًا تذهب إلى العنوان وتأتيني بكل الصور التي تستطيع التقاطها له».

ثم أضاف «شلبي سليم الفخراني» قائلًا:

- وهكذا.. تجدني قلتُ في نفسي الأقربون أولى بالمعروف.. وأنت أولى من الغريب.

لم أهتم لمداهنة الرجل الذي أعرف نواياه جيدًا.. هو فقط لم يستطع أن يبيع هذه المعلومات لصحفي من خارج الجريدة مخافة أن يعرف «حصان طروادة» بأنه من أفشاها فيلحق بعمله الضرر.

لذلك فضَّل بيعها لي، وفي الوقت نفسه يحصل على إيجاره المتأخر وفوقه إكرامية سعيه.. فهو رجل يحلو له أن يصطاد بحجر واحد أكثر من عصفور، وأنا لا يهمني لا العصفور ولا الحجر، كل ما يهمني هو الصورة التي ستحقق حلمي وتجعلني بين الناس مرئيًا.

نهض مودعًا بعد أن أجهز على كوبين من الشاي، دون أن يدفع ثمنهما بالطبع.. كان رأسي دائخًا في عالم الخيالات عندما بصق مرة ثالثةً.. تمامًا في مرمى الهدف.. مقدمة حذائي!

***

قدتُ سيارتي بينما الحماسة تقتات على البقية الباقية من أعصابي الفائرة، رُحتُ أتخيل عناوين الصحف في صباح الغد.

المصور العبقري «أسمر» ينجح في التقاط صورة لـ «الكاتب الكبير».

صورة القرن بعدسة المصور «أسمر».

سائق أُجرة برُتبة مصور محترف.

عروض عمل من كُبرى الصحف تنهال على المصور «أسمر».

كانت الخيالات لذيذة جدًا، ملأتني نشوة حتى كدتُ أندفع بتهور صارخًا في عرض الطريق، أنا «أسمر» الذي ستتحدث عنه صُحف الغد.. صوري اليتيمة لم تجد من قبل مأوى لها سوى جدران البناية المتهالكة التي أعيش فيها، وبعض ملفات الجرائم المتكدسة في قسم الشرطة الذي يعمل فيه «شاهق».

«شاهق» ظن دومًا أنه لاعب كرة قدم محترف، إلا أن النادي والمدربين والمجرة كلها تتآمر ضده. وظن أنه جذاب لبِقٌ يستطيع بسحره إغواء أي

فتاة يقابلها، لولا أنهن غبيات طُمس على عقولهن وقلوبهن. وظن أنه عبقريٌّ لينال نوبل، لولا أن الحياة بغي خبيثة تتمنَّع على مستحقيها، وتهب نفسها للأنذال.. فرأيتُ حينها أنه مؤهل جدًا لأن يكون ضابط شرطة ناجحًا، تمامًا كأبيه وجَده!

«شاهق» هو الوحيد الذي آمن أنني يومًا ما ستلتقط عدسة كاميراتي الصورة التي ستغير حياتي، كان يؤمن أن بداخلي طاقة تكفي لأن أكون مرئيًا، وآخذ دورًا مهمًا في المسرحية!.. لعل غروره وعجرفته دفعاه لأن يكون غير مبال مع الجميع، لكن معي كان «شاهق» أخًا لم تلده أمي، صحيح أنها كانت مجرد خادمة فقيرة في بيت أبويه، وزوجة لبواب البناية التي يقطنون فيها، وأنهما كانا يمنعانه من اللعب معي، أو التحدث إليَّ، إلا أن كل تلك الحواجز لم تمنع مظلة الصداقة من أن تجمعنا تحتها لثلاثين عامًا.

لذلك لم أستطع منع نفسي من مهاتفته لأقول مُبتهجًا:

-«شاهق».. هذه الليلة سأحقق حُلم حياتي.

كادت الحماسة تدفعني لأن آتي بفعل جنوني فأضغط زمُّور السيارة بشكل متواصل، لأدفع مَجرَى الطريق للتدفق بسرعة أكبر.

وأخيرًا توقفتُ عند فيلا صغيرة في تجمع سكني حديث الإنشاء بأطراف العاصمة، تمامًا كما أخبرني «شلبي سليم الفخراني» عن العنوان.

المكان هادئٌ أكثر مما ينبغي، وكأن إنسانًا لم يمر من هذا المكان قط، أضواء الفيلا مضاءة في القسم الغربي منها، زحفتْ أناملي نحو الكاميرا تلتقطها، ربَّتُ فوقها ثم همستُ:

- اليوم ستلتقطين أهم صورة في تاريخ تصنيعك.. وستبدو كِليتي اليُسرى التي استبدلتها بكِ ثمنًا بخسًا.

وجَّهتُ خطمها نحو أسوار الفيلا الحديثة، فالتقطَتْ ما شاء لها من صور.

- عندك هناك!

كاد قلبي أن يقفز خارج أسواره العظميَّة.. التفتُ صوب الحارس الذي أتى مهرولاً من الداخل ثم توقف عند البوابة الحديدية نصف المفتوحة.. عاد قلبي إلى وتيرته الطبيعية عندما أدركتُ أنه يوجه حديثه إلى فتاة ترتدي معطفًا مطريًا أصفر اللون خطَّتْ عدة خطوات إلى الداخل قبل أن يوقفها صياحه.

تحدث الحارس معها بصوت لم يبلغ مسامعي.. انزلقتُ أكثر فوق المقعد كي أتخفى عن أنظاره.. لو كشف أمري لانتهى كل شيء قبل أن يبدأ.. ناهيك عن «شلبي سليم الفخراني» الذي سيسومني سوء العذاب جراء ضياع الفرصة من بين يديّ.

لحظات وسمح الحارس للفتاة ذات المعطف الأصفر باستكمال سيرها نحو الفيلا، دخلتْ ثم أغلقتْ خلفها باب المغارة.. وبعد لحظات حدث ما كاد يجعلني أرقص طربًا في عرض الطريق.. غادر الحارس وسار مبتعدًا عن الفيلا في شبه هرولة، وكأنه يود أن يلحق بموعد لا يُتخلَّف عنه.

ترجلتُ من السيارة .. ثم تسلقتُ البوابة الحديدية.. لم تكن مرتفعة كثيرًا لذلك لم أواجه معها صعوبة تُذكَر.. رحتُ أبحثُ عن نافذة مفتوحة تكشف لي ما سترته الجدران الإسمنتية من كنوز لم يمسها بشر قبلي، لم أجد سوى واحدة علوية تستند إليها شجرة موز كبيرة، لم أهتد إلى أي وسيلة أخرى لبلوغ النافذة، أصابني الإحباط في مقتل، أعملتُ نظري في شجرة الموز الضخمة، لو سقطتُ عنها قد أكسر ذراعًا أو ساقًا أو ضلعًا.. أو الأسوأ قد تُدَك عنقي وأموت شهيد الشجرة!

لكن الخيار الآخر كان مُرًا حامضًا، أن أستدير بظهري عائدًا بخفي حنين إلى السيارة، مغادرًا المكان قبل أن يراني أحد، متخليًا عن فرصة العُمر في أن أصبح مرئيًا، هل أجسر على أن أفعل ذلك؟!

كنتُ كحمار «بوريان» أعجز عن اتخاذ قرار، دام ترددي لثلاث دقائق كاملة.. ثم أسقطتُ اختياري على تسلق الشجرة قبل فوات الأوان.

- آااااه.. آاااااي.

كدتُ أسقطُ ثلاثة مرات، وفي الرابعة جرحتُ كفي الأيمن وانطبعتْ دمائي فوق جذع الشجرة، اقتربتُ خطوة أخرى، فأخرى وأخرى، حتى أصبحتْ عيناي بمحاذاة النافذة المفتوحة. أسندتُ قدماي إلى جذع كبير، ونزعتُ رباط الكاميرا عن رقبتي بينما يداي ترتعشان رهبة ورغبة، كان جالسًا في منتصف الغرفة مستندًا إلى مقعد وثير، «الكاتب الكبير» الذي يتوارى عن أنظار الجميع.

حمدًا لله أن الكاميرا حديثة بغير فلاش مزعج يلفت الانتباه، لقد استحقَّتْ ثمن كِليتين لا اليُسرى فحسب. التقطتُ عشرات الصور، لا بل مئات الصور، لا أدرى كم استغرق ذلك من وقت.

لم أتوقف إلا عندما دخلتْ الخادمة فجأة لترفع صحنًا من أمام الرجل، ثم شردتْ بنظراتها صوب النافذة، كادتْ أن تراني لولا أن سحبتُ نفسي للأسفل بحركة مباغتة؛ فاختل توازني وسقطتُ من علٍ!

بقدم يُمنى عرجاء عُدتُ إلى السيارة، أقبض على الكاميرا ككنز «علي بابا»، إلا أن أربعين حرامي لا ينطلقون في أثري، يا لي من محظوظ.

لم أكد أدير المقود حتى رأيتُ «الكاتب الكبير» يدنو من النافذة، جهَّزتُ الكاميرا مرة أخرى، فحدث أسوأ ما يمكن أن يواجهه مصور على وشك التقاط أهم صورة في حياته، امتلأت بطاقة الذاكرة!

ارتعدتْ أصابعي وأنا أبحثُ عن زِر يمحو بعض الصور، ويبدو أنه قرر في هذه اللحظة بالذات أن يتوقف عن العمل. رفعتُ وجهًا متلهفًا صوب «الكاتب الكبير» أخشى أن يفارق النافذة، امتدت يدي بسرعة إلى هاتفي المحمول، رفعته أمام وجهي، فتحتُ تطبيق الكاميرا، ثم ضغطتُ زِر التقاط الصورة، فالتقطتُ صورة واحدة..

ثم..

توقفتْ أنفاسي عن العمل، فما رأيته عبر شاشة الهاتف كان غريبًا بحق.

«الكاتب الكبير» يدنو من النافذة، يرفع رأسه إلى السماء وكأنه يتحدث إلى الله.. يصرخ.. يبكي.. يهتف.. يولول.. يزمجر.. ثم يُقهقه!

أرى عصفورًا يفزعه هذا الجنون فيطير مُبتعدًا..

وفي اللحظة نفسها شعرتُ لوهلة بحريق يشتعل داخل رأسي..

ثم.. غرقتُ في دوامات مُظلمة.

لا أذكر ما حدث لي كي أغيب عن الوعي، لكن ما إن أفقتُ حتى وجدتُ جسدي ممددًا تحت شجرة الموز الكبيرة..

وبجواري ترقد جثة الكاتب الكبير!

مَن قتله؟

متى قتله؟

كيف قتله؟

لماذا قتلهَ؟

لا أعرف.. كل ما أعرفه أن ملابسي مدرجة بدماء طازجة تنزف من جُرح في مؤخرة رأسي.. لكن كل هذا اللون الأحمر ليس دمائي فحسب.. تشرَّب قميصي من دماء «الكاتب الكبير» أيضًا.

كيف أصبتُ بهذا الجرح الغائر؟

لا يمكن أن يكون نتيجة سقوطي من فوق الشجرة، لأنني سقطتُ على جانبي الأيمن لا على مؤخرة رأسي، أذيتُ قدمي اليُمنى.. أحضرتُ الهاتف من السيارة.. قمتُ بالتقاط صورة.. كل هذا ولم أشعر بأي ألم عند مؤخرة رأسي.. هذا ما أتذكره قبل أن أغيب عن الوعي.

كيف إذن أذيتُ رأسي بهذا الشكل؟

ومتى فعلتُ؟

وكيف انتقلتُ وأنا فاقد الوعي من السيارة إلى أسفل الشجرة؟

ليس هذا هو الغريب فحسب..

اختفت الكاميرا كذلك.. لم أعثر عليها لا في السيارة ولا حولها. لكن الهاتف لا يزال بحوزتي.. الهاتف الذي يحتوي على صورة «الكاتب الكبير» وهو ينظر من النافذة، الصورة الأخيرة له وهو على قيد الحياة.. الصورة الأهم من كل الصور.

أتذكر كيف اتصلتُ بـ «شاهق» أثناء عودتي المضطربة إلى السيارة ثم البيت. قصصتُ عليه تفاصيل مغامرتي المثيرة، فطلب مني مغادرة المكان على الفور، وانتظاره في قسم الشرطة لأعرض عليه الصورة قبل أن أضعها في أيادي الصحافة.

لكنني فارقتُ المكان الذي أضحى منذ قليل «مسرح جريمة» إلى بيتي مباشرة. أنا خائف.. خائف جدًا.. ولا أعرف لخوفي سببًا مبَررًا.

ها هو صوت جرس الباب ينبئني بقدوم «الحمار» -الذي لا أعرف اسمه- ليأخذ الصورة التي ستمنحني دورًا رئيسيًا فوق مسرح الحياة.

لكن مهلًا، لماذا لا أكون أنا قاتلِه؟

سمِع «الكاتب الكبير» ضجة سقوطي من فوق الشجرة.. ثم دنا من النافذة مستطلعًا.. فاختل توازنه.. وسقط منها.. نعم، هذا ما حدث، لا يوجد مُذنب سواي..

أنا السبب..

أنا قاتل..

أنا قاتل «الكاتب الكبير».

(٤)

الشاهد الثاني

«شاهق»

لو لم تكن الوزارة بأكملها على قدم وساق لغادر مكتبه وتوجَّه بنفسه إلى «أسمر»، ينتزع منه الصورة انتزاع الفريسة من فم حيوان ضار.. بالتحديد كلب نجس، حتى أن الكلاب أسمَى مقامًا عنده من ذاك ًالـ «أسمر»حقير ًالنفسً والمقام والنَسَب.

وهو الآن يملك الصورة الوحيدة التي ترصد ذلك «الكاتب الكبير» قبل موته مباشرة، كم تساوي يا تُرى؟!.. ليس بإمكان «شاهق» بيعها إلى إحدى الصحف فحسب، بل بإمكانه عرضها في مزاد علني على أحد المواقع العالمية؛ قد يجني من خلالها ثروة، أو ما هو أفضل من ثروة، قد ينال وسامًا رفيعًا إن تمكن من خلال الصورة من معرفة أي معلومات عن الجريمة أو مُرتكبها.

يدَّعي «أسمر» أن الصورة لا تحوي أي أدلة أو خيوط قد تقوده إلى القاتل، لكنه يعرف بحنكته البوليسية كيف تجري هذه الأمور. الحادثة تتحول إلى قضية رأي عام كون الضحية شخصية شهيرة، فتصاب السلطات بسعار البحث عن القاتل، فإن لم يجدوا قاتلًا، أوجدوا واحدًا من العدم، وقدموه إلى الرأي العام؛ فيعود إلى سباته العميق. وعليه أن يستبق كل هذه الأحداث ويستعين بالصورة ليعثر على قاتل مناسب.

غلبته لهفته فأمسك هاتفه، وما إن أتاه الرد من الطرف الآخر حتى صرخ هاتفًا:

- لمَ كل هذا التأخير يا حمار؟

استمع إلى عدة كلمات مضطربة من العسكري «فرج»، ثم قاطعه ليصرخ ثانية:

- عشر دقائق وأراك أمامي.

وبينما ينتظر، كان أحدهم يعبث بآلة الزمن كي تعود أربعًا وعشرين ساعة إلى الماضي.

(قبل ٢٤ ساعة)

«لديك وقت؟.. إذن أنت جاهز للدخول».

غالب القوانين الأخلاقية المكتوبة وغير المكتوبة تُحرم القمار إذا كان بالمال، لكن كل دساتير الأخلاق المكتوبة وغير المكتوبة تخلو من تجريم القمار إن كان يُلعب بالوقت!

والقمار بالوقت هو تسليتي الوحيدة، منذ أن كنتُ طالبًا في أكاديمية الشرطة امتلكتُ فائضًا كبيرًا منه. أبخل به على استذكار لا طائل من ورائه، فمكاني خلَفًا لأبي وجدي محفوظ في وزارة الداخلية.

للبوكر عشرات الأنواع والطرق، لكن «بوكر الوقت» لعبة جديدة مبتكرة، ثورة في عالم الألعاب، في غضون بضع سنوات أصبحت اللعبة الأشهر في العالم.. وكنتُ واحد من الملايين الذين وقعوا أسرى لإدمان هذه اللعبة.

«لديك وقت؟.. إذن أنت جاهز للدخول».

قرأتُ اللافتة البرَّاقة كما أفعل دائمًا قبل أن أدخل إلى «ملعب البوكر»، الذي جرى عليه مؤخرًا بعض التوسعات، تضاعفتْ مساحته لتسع الأعداد الغفيرة التي تغدو منه وتروح كل يوم. أما أنا فكان مكاني مميزًا في صالة اللاعبين القدامى المحترفين.. ليس بسبب منصبي فحسب، بل لبراعتي في اللعبة.

الملعب مقسم إلى صالتين، صالة اللاعبين الجدد، وصالة اللاعبين القدامى.

«لديك وقت؟.. إذن أنت جاهز للدخول».

وكنتُ أملك من الوقت الكثير، فأبواي فارقا الحياة معًا في حادث قبل خمس سنوات، لم أتزوج ولا أنوي الزواج. فعكفتُ على تغذية وحش الوقت كما يربي الآخرون حيوانات أليفة في منازلهم.. يعتنون بها ويهتمون بطعامها وشرابها ولا يتقززون من فضلاتها.. فوحش الوقت يتبرَّز طاقة مهدورة، وأعمالًا متراكمة غير منجزة.

استطال وحش الوقت وتضاعف حجمه، زاد شرهه يومًا بعد يوم.. وكان لدي من الوقت ما يكفي لأطعمه.

***

في مقدمة صالة اللاعبين القدامى تقع دومًا طاولة «+١٨».. وفي كل مرة تستهويني رغبة التوقف عندها هازئًا، أرمي بالسباب الفاحش يمنة ويسرة على اللاعبين المتجمهرين حولها في شغف المراهقين، رغم أن منهم من تجاوز الستين والسبعين..

البوكر قديمًا كان يُلعب بالمال على المال.. أما هنا يُلعب بالوقت على الكلمات!.. يرمون بالوقت في وسط الطاولة، تدور الكرة المضيئة بلون أبيض في حركة دائرية متزنة تناقض النفوس غير المتزنة للاعبين تلك الطاولة، فيما يأمل كل منهم أن يفوز بما أراد من الكلمات التي عجز خياله عن إبداعها، فتحمله إلى بلاد اشتهاها من قبل ولم يطأها، أو

وطأها لكنه أراد تأشيرة مفتوحة لزيارتها كلما رغب.. وحواري كان يسمع بها جسدتها له الكلمات، كعصى سحرة فرعون التي ما إن ألقوها بين الأقدام حتى سارت حيات تسعى.

كان للكلمات التي يفوز بها اللاعب فوق تلك الطاولة نكهة سحرية خادعة.. تمنحه لحظات من لذة مؤقتة زائلة، أو صك فرار ذاتي من الشعور بالنقص وعدم الأمان.

كان لي أخطاء كثيرًا.. لكنني قط لم أكن يومًا لاعبًا حول طاولة «+١٨».

تليها طاولة «لعبة السياسة».. تصفحتُ الوجوه المألوفة للاعبين المتجمهرين حولها، غالبًا هي نفس الوجوه التي رأيتها ليلة أمس، والليلة قبل الأمس، وكأنهم لا يملكون حياة أخرى غير اللعب بالوقت على الكلمات السياسية، ألم يمل هؤلاء من تكرار نفس الشعارات، والدفاع عن نفس القضايا، وانتهاك نفس الخطوط الحمراء؛ لتنتهي اللعبة دومًا بنفس النهاية؟!

فيمسك كل منهم بتلابيب الآخر حتى يضطر أفراد الأمن المنتشرين في الصالة إلى التدخل من أجل تهدئة الأوضاع.. وأحيانًا يُطرد أحد اللاعبين للأبد شر طردة، لكننا نحن اللاعبين القدامى نعرف أنه سيعود في اليوم التالي ببطاقة هوية مزورة، يسهل الحصول عليها من السوق السوداء، فقط ليكرر نفس الكلمات، ويخوض نفس الشجارات، التي تنتهي دومًا بطرده من جديد.

وأخيرًا وصلتُ إلى طاولتي الأثيرة، «الكلمة القاضية».. رغم كل ما فُزتُ به من كلمات بذيئة حتى الآن؛ إلا أنني لم أعثر بعدُ على كلمتي

المنشودة، الكلمة الأقبح والأبشع في التاريخ، الأكثر قسوة ودمارًا من أي كلمة أخرى بأي لغة أخرى.. كلمة وقعها أشد من طلقة، وتأثيرها أفظع من مفاعل نووي.

لكنني أثق أنني يومًا ما سأعثر عليها.

لدي وقت طويل قبل العودة إلى بيتي.. كانت ليلة هادئة من تلكم الليالي التي لا يحدث في نطاق المنطقة التابعة لسلطتي سوى عدد قليل من جرائم السرقة والقتل والاغتصاب.. الوتيرة الهادئة المعتادة لليالي يناير من الحقوق المهدورة، والدماء المسفوكة، والأعراض المنتهكة.. لا شيء جديد تحت سقف الإنسانية.

- أهلًا وسهلًا يا سيدي، أترغب في شراب؟

- قهوة سادة في كوب زجاجي.

أجبته بفتور، أمقت هؤلاء النُدُل الذين يتصنعون اللطف والأدب، أُفضِّل عابسي الوجه، فاقدي الصبر، عصبيي الحركة.. في عالم قبيح كالذي نعيش فيه يُصبح اللطف شكلًا من أشكال النفاق الاجتماعي غير المحتمل.

بدا وحش الوقت شرهًا جدًا هذه الليلة.. جلستُ في أحد المقاعد المخصصة للاعبين لا أحرك ساكنًا.. سوى عينين تتابعان ما يحدث حول طاولتي والطاولات القريبة مني.. أتشبَّع بما يقع في أذني من كلمات مختلفة المنشأ.. إنها اللعبة الأسهل على الإطلاق.. ليس مطلوبًا من اللاعب سوى أن يجلس في «مقعد اللاعب» لأطول فترة ممكنة.. دون أن يتوقف عن الحديث، على ألا تتعدى فترة صمته بين حديث وآخر ثلاثة دقائق!

كل شيء مسموح.. تحدُّث، استماع، ضحك، بكاء، صراخ، غناء، طعام، شراب، حتى إن شاء أحدهم أن يقضي حاجته في موضعه فوق

«مقعد اللاعب» فله أن يفعلها، فقط شيء واحد غير مسموح به، وهو مغادرة المقعد قبل الوقت الذي يريد اللعب به.

ذات مرة نجحتُ في الجلوس فوق «مقعد اللاعب» لتسع ساعات متواصلة، كنتُ وقتها محط إعجاب للحاضرين في الصالة.. باستثناء «الفنان» الذي لم يستطع أحد أن يحطم أرقامه القياسية.

نظرتُ إلى الساعة فإذ بستين دقيقة فحسب قد مرَّت!

لماذا نلعب هذه اللعبة؟

لأن الملل استشرى بيننا بأسرع مما فعل فيروس A، وفيروس B، وفيروس C مجتمعين.. في بلادنا تنتقل عدوى الملل من شخص لآخر عبر الماء والهواء والدماء.. يمكن الإصابة به نائمًا ومستيقظًا، راكضًا وثابتًا، جاهلًا ومتعلمًا، راشدًا، وقاصرًا.. في أي جنس، وأي حالة، وأي عُمر.

والمصاب بعدوى الملل لا يملك سوى الوقت، الوقت فحسب، والوقت لا يمكنه شراء أي شيء.. فلفظ عقل أحدهم لعبة «بوكر الوقت» إلى الوجود، وتهافت عليها الناس كافة.

ولأن الفائز لا يمكن أن يفوز بالوقت الذي يملك منه فائضًا بالفعل.. جعل القائمون على اللعبة المكسب من الكلمات.

ومن منا يتوقف عن الكلام؟!.. إنه الفعل الأكثر «فِعلًا» في قاموس الأفعال البشرية.

***

- أنتم ملاعين.. لقد خدعتموني.. اتركني.. ذراعي.. أنت تؤلمني.

اشرأبتِ الأعناق لترمق الفتى المهتاج، كان أحد اللاعبين حول طاولة «+١٨».. يبدو أنه خسر اليوم الكثير من الوقت في مقابل كلمات لم تشبع له رغبة أو تسد له حاجة.

أطلقتُ سبة بذيئة بصوت صارخ متعمدًا أن تصل إلى أسماع الفتى.. فيما يقتاده الأمن إلى الخارج، تشيعه ركلات اللاعبين الآخرين في تشفٍ.

مائة وعشرون دقيقة تمر..!

أعملتُ عينيّ في الوجوه الملتفة حول طاولتي.. غالبًا نفس اللاعبين الذين صادفتهم بالأمس في نفس الوقت.. إلا وجهًا جديدًا لم أره من قبل.. لامرأة تخفَّت وراء تكتلات من الأحمر والأخضر والأسود والأزرق اللامع البراق.. لم تكن طاولة «الكلمة القاضية» محط أنظار النساء عادة.. لكن المرأة كانت تتحدث بجرأة.. تضحك بجرأة.. تنظر بجرأة.. ولا تكتفي من الكلمات البذيئة التي تفوز بها في كل دورة.

وقبل أن أتوجه إليها بالسؤال عمن تكون عاجلني «الفنان» الجالس في «مقعد اللاعب» المجاور لي هامسًا:

- إنها قوَّادة.. تضم تحت جناحيها جيشًا من الفتيات اللاتي لا يهتم بأمرهن أحد.

- أها.. أي أنها تحتاج إلى تحديث قاموسها اللغوي.

أطلق «الفنان» إحدى ضحكاته العجيبة، صاخبة بغير روح، مجلجلة بغير فكاهة، متعمدة بغير رغبة.

«الفنان» رجل تجاوز الخامسة والخمسين منذ يومين.. أمضى ذكرى ميلاده فوق ذات المقعد، حول ذات الطاولة.. تعرفتُ عليه في المكان نفسه منذ ثلاث سنوات ونصف.. لم يتغير فيه شيء سوى المزيد من الشعيرات البيضاء الزاحفة بثبات فوق فوديه ومقدمة رأسه.. والمزيد من التجاعيد التي أخذت تشق طريقها بالحرفية الفطرية للبلاب فوق وجهه المتغضن.. كان أحد أصدقائي القلائل الذين نتشارك الاهتمامات ذاتها.

مجرم عتيد هو، يتفاخر بأن الشرطة لم تنجح يومًا في القبض عليه متلبسًا بجرائمه.. وإن كان يحلو له أن يسمي جرائمه بالتحف الفنية.. يدعي أن فخره بها لا يقل عن الفخر الذي استولى على قلب «ليوناردو

دافنشي» حين انتهى من رسم «الجيوكاندا» أو «العشاء الأخير».. وتفوق زهو «فان جوخ» حين رسم نفسه بعد أن قطع أذنه في نوبة غضب.

قال لي بعد عام من تعارفنا:

- لا يمكنك أن تُحاكم الفن، الفن خُلق محررًا من كل القيود، فمن أنت لتحيطه بأصفاد من قوانين صدئة ابتدعها عقل بشري منحرف.. لا يستهويني الرسم ولا النحت ولا صناعة الزجاج وزخرفة الجدران.. شغفي كله في دمج الأعضاء البشرية كما تشتهي روحي المتعطشة للجمال.. قد تظن أنني رجل مخبول أحاول نفخ الروح في أسطورة «فرانكنشتاين» للمؤلفة البريطانية «ماري شيلي»، بتخليق الجسد الأقوى والأكمل والأجدر.. لكن ذلك لم يكن يومًا هدف فنان.. الفنان لا يبحث سوى عن التوافق والجمال، حتى وإن خالف السائد والمعتاد.. ائتني بشعر شقراء، وجسد سمراء، وسيقان طفل، ورأس رجل بعيون زرقاء.. هل ترى هذا التناقض الفج.. ليس فجًا كما قد يُخيل لعقلك النمطي.. في التناقض جمال من نوع خاص!

كان الرجل مخبول من نوع خاص، مخبول حقيقي!.. لماذا لم أُلقِ القبض عليه رغم أن الواجب يُحتم عليّ ذلك؟.. لأننا في عالم البوكر نترك هويتنا عند أعتابها.. أغدو أنا وهو رفيقَيّ لعب فحسب.. يعرف أنني يومًا ما سألقي القبض عليه ما إن أصادفه خارج الصالة.. يعرف ذلك وأعرفه بغير اتفاق مسبق.

هذه هي قواعد اللعبة التي ابتدعناها وصدَّقنا عليها.. رغم كل شيء راقتني اللعبة كثيرًا.. إلا أنني حتى الآن لم أفلح في القبض عليه.

هو ليس غبيًا، فالمعلومات التي يعطيني إياها لا تعني سوى بتفاصيل فنه فحسب، كيف استطاع بمهارة جرَّاح أن ينتزع عينًا يُمنى لفتاة إفريقية، فقط ليزين بها لوحة جدارية في غرفة نومه.. أو كيف انتزع مخ طفل رضيع ووضعه في طبق للتقديم يتوسط مائدة طعامه كتحفة فنية

تثير شهيته للطعام.. معلومات لا تُمكنني من معرفة رقم هاتفه أو عنوان بيته، دون أن ألجأ إلى إمكانياتي البوليسية.

ثلاث سنوات ونصف ولم ألتقه خارج تلك الجدران.. حتى الآن.

مائة وثمانون دقيقة تمر..!

كان طبيب الأسنان الجالس إلى طاولتنا يتحدث قائلًا:

- .... ثم جاءني في اليوم التالي، كما قلت لكم أردتُ أن أجرب «الكلام» كمخدر أثناء عملي على فم المريض قليل الكلام والمحب للاستماع إلى ثرثرة الآخرين.. ولأكن صريحًا معكم لم أتوقع هذه النتيجة المذهلة.. ما إن بدأتُ الحديث عن أي شيء وفي كل شيء حتى ذبلتِ عيناه وارتخت أطرافه.. نزعتُ له ضرسًا وحشوتُ آخر بدون قطرة مخدر واحدة.. كل ذلك بتأثير «مخدر الكلمات» وحدة.

فارقتْ عيني وجه الطبيب وتباطأتْ فوق وجه المرأة.. انحنى «الفنان» صوبي قائلًا بتفكّهه المعتاد:

- لماذا تنظر إلى المرأة كمن رأى منديلًا تمخَّط فيه أحدهم وألقاه مفتوحًا في عرض الطريق؟!.. ألا ترى في عملها نوعًا من الفن؟!.. إنها تضيف إلى الحياة ألوانًا بعدما كاد كل شيء أن يتحول إلى الرمادي.

التفتُّ صوبه أرمقه وكأنني أنظر إلى صرصور يزحف فوق ربلة ساقي، فيه شيء يثير فيّ الرغبة في التقيؤ.. فأردفَ دون أن تزعجه نظراتي:

- لماذا تبغضني؟!.. أنت رجل شرطة.. ألا ترى في فني شيئًا من «الماركسية»؟.. بدلًا من أن أصير لصًا شريفًا يسرق من الأغنياء ليمنح الفقراء.. فأنا أسرق أنفًا جميلًا من امرأة تملك رصيدًا وافرًا من الجمال، أو قدم مرمرية، أو عيون شهلاء، ثم أهبها لمنحوتتي

الفنية التي أعكف على جمع أدق تفاصيلها لأجعلها مكتملة التكوين.

كان لصوته تلك النبرة التي تذكرني بصوت الصرصور -رغم أنني لم أسمع من قبل واحدًا- ماذا كان اسم ذلك الصوت؟.. نعم «عرير»، قلتُ ساخرًا:

- كل المجرمين يظنون أنفسهم عباقرة.

- وما هو تعريف المجرم؟.. هل تحاكمه بالقانون أم بالعُرف أم بالدين أم بالمنطق؟.. في حين أن كل واحدة من تلكم المقاييس تختلف من شعب لآخر ومن عصر لآخر.. تعرف يا «شاهق» باشا أن الكنيسة الكاثوليكية، ومحاكم التفتيش الرومانية في عصر النهضة أدانت العالم «جاليليو»، وأعدته مجرمًا مُتهمة إياه بالهرطقة؛ لأنه قال أن الأرَض تدور حول الشمس.. فهل كان مجرمًا حقًا.. أم أنه حوكم لاعتبارات خاطئة؟!

يا عزيزي الفرق بين المجرم والشريف.. هو أن أحدهما قُبض عليه متلبسًا بفعل يرفضه المجتمع، بينما الآخر نجح في الفرار من أعين الرقباء.

كان اللعين يملك حججًا قوية تخرسني، لا أحب ذلك على الإطلاق.. استطردَ صوت العرعر:

- إذن في مكان آخر أو زمان آخر أو حتى في كون آخر بقوانين وعقيدة مغايرة لما نألفه ونقره.. قد تكون هذه القوَّادة مُجاهدة تهب الحياة ألوانها.. وينال فني ما يستحقه من الاحترام والتقدير.

كان يستميتُ في محاولة ترقية الصرصور «أبو شنب» ليصير صرصورًا طائرًا.. على افتراض أن الميزة الرهيبة للصرصور الطائر هي جناحاه، فإن من مثالبه الكبيرة في رأيي أنه أكثر بشاعة من الصرصور «أبو شنب».. أي أن فنه -أو ما يدعوه بفنه- في كون آخر خارج مجرة درب التبانة قد ينال شيئًا من التبجيل، إلا أنه تبجيل مقترن بمزيج من الخوف والقرف.. فالصرصور يبقى صرصورا في النهاية.

أكملتُ هازئًا:

- وقد أصير أنا عازف كمان!

- لا شيء مستبعد.. خمسة وخمسون عامًا أشد خلالهم إزار العمر وأصارع في معترك الحياة، وأخيرًا اكتشفتُ أننا رغم كل الهُراء الذي يتغنى به الفلاسفة والمفكرون منذ قرون، لا يعيبنا كجنس بشري سوى شيء واحد فحسب؟

- وما هو يا «فنان»؟

- أننا نعيش في العالم الخطأ!

مائتان وأربعون دقيقة تمر..!

يغالبني النعاس، بغير حرج تثاءبتُ بملء فمي،ارتأيتُ أن أكتفي بما أحرزته من دقائق، أشرتُ لمشرف الطاولة برأسي كي يدفع الكرة للدوران وأنا أقول:

- سألعب على المائتين وأربعين دقيقة.

نضح جبيني بالعرق، رغم البخار المتصاعد من فمي وكأنني ابتلعتُ القطب الشمالي على العشاء.. تلهث أنفاسي إثارة مع كل دورة للكرة البيضاء الصغيرة.. شمس تتسيَّد منتصف الطاولة، تدور ويدور معها حيوات اللاعبين الملتفين حولها..

استقرَّتْ أخيرًا عند التجويف المقابل للرقم«سبعة».. فأخرج مشرف الطاولة «كارتًا» أزرقًا مدونًا فوقه الكلمات التي ربحتها.. لم تكن سيئة جدًا.. لكنها أيضًا لم تحز إعجابي أبدًا..لم أفز الليلة بالكلمة المنشودة.. لا يزال يفصلني عن نهاية النفق آلاف الثواني والدقائق والساعات.

- عمليات زراعة صمام الضمير لم يبتدعها سوى عملاء خونة لبلادهم.

- بل شرفاء يسهرون لرفعة شعوبهم وأوطانهم.

- أنت خنزير خائن وعميل.

- وأنت ابن (...).

دون أن ألتفتَ علمتُ أن تلك المشادة آتية بالطبع من طاولة «لعبة السياسة».. الأنجاس يحسبون أنفسهم أوصياء على البلد، وأن الواحد منهم عبقري زمانه، يفهم ما لا يعيه الآخرين، ويرى ما يعجزهم.. كانت تلك «العربدة» الكلامية معتادة طيلة الوقت في صالة البوكر، عوادم بشرية مُجبر على التعايش معها.

- الخائن هو الذي يعوق ما ينفع الناس، لماذا لم تنتفض حكومة بلادنا لمكافحة الفساد، أو لموت رعاياها نتيجة الإهمال الطبي، أو لأزمة الوقود.. إلا أنها هاجت لمنع تلك الجراحات من الانتشار؟!

- صمام الضمير!.. ها.. لم أسمع أسخف من ذلك لسلب عقول الجهلاء والبسطاء.. وأنا على ثقة من أن الواحد منهم يكتشف بعدها أن قريبه قد فقد كلية أو طحال.. ولكنه الكِبر الذي يمنعه من الاعتراف بأنه أساء أكبر إساءة في حق أحب الناَس إليه.

- لم يحدث ذلك على الإطلاق.. لقد أخضعتُ زوجتي لتلك الجراحة ودعني أقول لك أنها أفضل آلاف المرات من المرأة التي كنتُ أعاشرها قبل الجراحة.. صارت امرأة أخرى تمامًا.

- أنت كاذب لعين.. أو لعلك أحد أعضاء تلك النفاية التي تروج لهذا الهراء.

- بل أنت الكاذب اللعين.. تروج لأفكار لا تؤمن بها.. فقط لأن أسيادك يريدون منك ذلك.

وفي لمح البصر انقلب سجال الكلمات إلى سجال باللَّكمات!.. وكان المشهد مضحكًا أكثر من كونه مثيرًا للحماس، إذ كان الرجلان جاهلين بأبسط قواعد الاقتتال، فكان صراعهما أسوأ من صراع سلحفاة برية مع جارتها العرجاء.. كرتوني مثير للضحك.

ابتدرني «الفنان» في استمتاع خبيث:

- سمعتُ أن الحكومة فشلت في الوصول لـ «العلماء»، واستئصالها من منابتهم.. لكن قل لي.. هل فعلًا تلك الجراحات حقيقية؟.. هل يوجد ما يُسمى بـ «صمام الضمير»؟.. هل تقدم الطب إلى هذه الدرجة؟.. أم أنه محض خيال علمي ابتدعه عقل مروج إشاعات منحرف؟!

في سوق الكلمات يحرص التاجر المحترف أن يشتري الكلمات لا أن يبيعها؛ قلتُ:

- وماذا تظن أنت؟

- أظن أنها حقيقية وأنكم لن تنجحوا أبدًا في صد تلك الهجمة.. الناس توَّاقة للتغيير.. لا تغيير أنفسهم بالعكس فلا أحد يرى أنه يحتاج إلى تعديل، لكنهم مولعون بتغيير الآخرين، بتقويمهم كما تذهب إلى طبيب الأسنان وتطلب منه تحريك سن إلى الخلف، أو ناب إلى الأمام.. لذلك سيكون «صمام الضمير» هو التجارة الرائجة على الإطلاق.. وسيبدأ عصر جديد يُسمى عصر الصمامات»..

صمام «للضمير»، صمام «للكلام»، صمام «للضحك»، وصمام «للتفكير».

- إذن دعني أزيل الغشاوة التي تخفي الحقيقة عن عينيك.. لا يوجد ما يُسمى بزراعة صمام الضمير.. ولا أي جراحات على الإطلاق.. إنه «فيروس» خبيث أصاب الناس فجأة.. وتسبب في أعراض نفسية خطيرة.. المستشفيات لم تعد قادرة على استيعاب كل هذا الكم من المرضى.. لكننا لم نتوصل حتى الآن لمعرفة مصدره الأساسي، هل

أتى من إنسان أو حيوان أو حتى كائن فضائي.

ثم أردفتُ وكانت المشاجرة قد وصلتْ إلى ذروتها فاضطرتُ إلى رفع صوتي:

- لكن ما نعرفه جيدًا هو أن هناك من نشر الفيروس بشكل متعمد، ندعوهم «العلماء».. انظر إلى السخرية في ذلك.. «العلماء» من صميم وظائفهم وقاية الناس من مخاطر الفيروسات وتخليق اللقاحات لهم.. أما هذه الفئة الشاذة من «العلماء» تنشر المرض بدلًا من علاجه.

- ولماذا تُعدونه مرضًا؟

- لأنه كذلك بالفعل.. ما هي أضرار المرض؟.. تلف في خلايا الجسد.. وانهيار في وظائفه الطبيعية.. انظر إلى مخاطر صمام الضمير الذي ظهر بشكل فجائي وستعرف أنه مرض.. ألم تقرأ عن حادثة انتحار رئيس الوزراء بعد نشره بيانًا كارثيًا أفشى فيه الكثير من الفضائح والأسرار عن شخصيات ذات مكانة حساسة في الدولة.. ألم تسمع عن استقالة العديد من الشخصيات البارزة من مناصبهم وفرارهم خارج البلاد.. ألم تسمع عن الاضطرابات الواقعة في القصر الرئاسي نفسه؟.. هذا الفيروس اللعين يحول الناس إلى أغبياء يسيرون على قدمين.. إنه يتلف المخ تمامًا.

ثم أنهيتُ كلماتي بحزم:

- لكننا سنفعل المستحيل للقضاء على «العلماء» وفيروساتهم اللعينة.

اكتفيتُ مما جنيته من حصاد الليلة، ألقيتُ تحية فاترة على «الفنان»؛ فردَّها دون أن يحاول مغادرة مقعده الذي بدا وكأنه التصق بجسده.. أو كاد... ثم ارتددتُ على أعقابي مغادرًا صالة البوكر، مُوَدعًا خلفي سُحبًا عملاقة من العوادم الإنسانية.

- الشاي يا حمار.

- حالًا يا «شاهق» باشا.

أكره صباحات يناير، فالشمس فيها موجودة وغير موجودة في ذات الوقت، وكأنها معضلة تتحداني لأكشف عن غموضها، أبغض أنصاف الحلول.. والقضايا غير المنتهية.. وكل الدرجات الواقعة بين الأبيض والأسود.. أكره صباحات يناير.

لم يرقني تنسيق «الحمار» لمكتبي فأسقطتُ ما فوقه أرضًا، ثم أمرته:

- رتبه مرة أخرى يا حمار.

- حالًا يا «شاهق» باشا.

كان لدي ملف استجواب عدة متهمين في قضية «العلماء».. كان عليّ أن أقرر إذا ما كانوا أحد أعضائها النشطين.. أو على الأقل أحد الذين أجروا على أقربائهم تلك الجراحة.. لكن المشكلة أن لا فارق بين شخص طبيعي وشخص خضع لزرع «صمام الضمير»، لا تحاليل ولا أشعة يمكنها كشف الاختلاف بينهما، حتى تظهر عليهم الآثار الجانبية الخطيرة، وعندها يفقدون عقولهم تمامًا.

كنتُ في منتصف جلسة من نوع خاص لانتزاع الحقيقة المخبأة بين جنباتهم عندما ظهر «الحمار» على أعتاب الغرفة صائحًا:

- اختفى البحر!

كانت العبارة سيجارًا مشتعلًا ينتقل من فم لآخر.. حتى وصلت أخيرًا إلى فمه؛ فقذفها في فزع:

- «شاهق» باشا.. مصيبة.. كارثة.. لص ابن حرام سرق البحر!

- هل تستخِفّ دمك يا «حمار»؟!

رغم ما استشعرته للوهلة الأولى من كلماته البلهاء، إلا أن الجَد أخذ محل الهزل عندما تيقَّنتُ من صحة الخبر.. اختفى البحر دون أن يترك وراءه أي أثر!

كيف يختفي البحر فجأة عن الوجود؟.. هل هو مال عام ليُنهب، أو إرث حضاري ليُسرق!.. إنه البحر.. الشيء الذي لا نعرف كيف أتى ولا نعرف كيف يذهب، إنه هناك فحسب.. تنهض دول، وتنهار حضارات، لكن يبقى البحر على حاله.. لا يقل ولا يزيد.. كيف نجح أحدهم في أن يُحدث فيه تغييرًا فيزيائيًا؟.. كيف أقنَعه أن يذهب؟!

كل قنوات التلفاز الصغير القابع في غرفة مكتبي أكدت الخبر بالبث الحي!

كلا.. هذا عبث.. لا أحد يملك المقدرة على إقناع البحر بالذهاب، إنها جريمة مدبرة إذن، اغتصبت فيها إرادة البحر فوقع بين يدي السارق خرقة بالية، يحركها كيف يشاء..

لم تتوقف الاتصالات من وإلى القيادات العليا.. استنفرتْ أجهزة الدولة تُشكِّل فرَقًا للتحقيق في الحادثة العجيبة.. ويا لسعادتي فقد كُلِّفتُ بترؤّس إحداهَا.

هذه الجريمة لن يكشف عن غموضها إلا عقلي المحنك اللماح.. تركتُ الغرفة مسرعًا قاصدًا مسرح الجريمة!

***

أخذتُ الطريق الأسرع إلى المدينة الساحلية الكبيرة إلا أنه استغرق ضعف الوقت المعتاد بسبب عدة حوادث على الطريق.. قاتَل الله هؤلاء الحثالة؛ ألم يجدوا وقتًا مناسبًا للموت إلا الآن؟!

ما إن وصلتُ إلى الشاطئ المفتوح للقيادات فحسب، الواقع على أطراف البحر المفقود حتى استبد بي الغضب.. كان أسوأ مسرح جريمة

تبددتْ فيه الأدلة واختلط الحابل بالنابل.. كيف أقوم بعملي يا «أبناء الدهاليز»!.. صحتُ:

– أقيموا حاجزًا عند الشاطئ.. بسرعة.

أتاني أحدهم يقول في ارتباك:

– أي شاطئ يا «شاهق» باشا؟!.. البحر لم يعد موجودًا.. و...

– أليس كلامي واضحًا بما يكفي؟!.. أقصد ما كان شاطئًا من قبل.. أقيموا حاجزًا عنده وليرجع كل هؤلاء المتفرجين إلى الخلف مهما كانت مراكزهم ووساطتهم.. كيف أتى كل هؤلاء، الله يلعنهم؟!

البحر الذي كان مُحرمًا عليهم لم يعد له أي وجود، أغاظني ذلك كثيرًا.. فبالموانع والمحرمات تقوم الأنظمة وتقوَى السلطات.

سألتُ نفسي.. ماذا تفعل يا «شاهق»، أي مسرح هذا الذي تُريد تطويقه؟.. وهل تظن أن مسرح الجريمة هذه المرة ككل المرات السابقة؟.. هذه الجريمة التي تسيطر عليها الغرائبية والعشوائية تحتاج إلى عقل فذ للكشف عن مرتكبها..

لم يختفِ البحر المتوسط.. التعبير الأدق «انكمش» على نفسه تدريجيًّا.. تَبَخَّرتْ أطرافه العلوية الواقعة على حدود البلاد العربية، وبقي جذعه وأقدامه كما هي.

كنت لأفكر أننا بلاد ملعونة، جاهلة، فاسدة، مُفسدة، تستحق كل ما يحل بها من بلاء، حتى أنه قليل عليها نيزك يطعنها من السماء.. وأبدأ في عزف سيمفونية جلد الذات التي حفظنا نوتتها الموسيقية واعتدنا إنشادها في المناسبات؛ لولا أن صاح أحدهم يُبلغنا بالخبر اليقين:

– البحر الأبيض المتوسط تبخَّر تمامًا من سطح الأرض!

ساد الهرج والمرج.. جحظتْ العيون في دهشة، وتمازجتْ الكلمات في هذيان..

ما طبيعة تلك القوة التي تدفع البحر إلى أن يتبخر بالكامل.. وكأنه لم يوجد قط!.. الحرارة؟

كلا بالتأكيد، لم نشعر بأي تغيير يسبق تلك الحادثة العجيبة.. ثم أن درجة الحرارة القادرة على تبخير بحر مساحته اثنان ونصف مليون كيلو متر مربع، بمتوسط عمق ألف وخمسمائة متر؛ قادرة بالتبعية على حرق البشر عن بكرة أبيهم.

دنا مني «الضابط المُتحمِّس»، والذي يصغرني رُتبة وسنًا، وينظر إليّ نظرته إلى بئر معلومات وخبرات لا ينضب. يُدهشني أولئك الذين لا يزالون يحتفظون بحماسهم تجاه تعلم أي شيء، في الوقت الذي أصبح الحماس للتعلم عملة أشد ندرة من العثور على بيضة لديناصور.. فكان هو نفسه بقيمة بيضة ديناصور،قال لاهثًا:

- «شاهق» باشا هل وضعتَ خطة للبدء في التحريات يا فندم؟

- تعال لنجلس عند تلك الصخور.. وسأشرح لك خطتي.

في الواقع لم يكن لدي خطة على الإطلاق، من أين أبدأ البحث، ولمن أتوجه بالسؤال؟!

صاحت «بيضة الديناصور» بابتهاج:

- كنتُ على ثقة يا فندم من أنكَ رتبتَ ذهنك قبل الجميع.

- هيا، وكُف عن الثرثرة.

- من أين سنبدأ يا فندم؟

- «كُن متشائمًا».. هذا هو بداية الخيط.. لا يمكننا الوصول إلى شيء من مسرح الجريمة ذاك ولو تفحصناه شبرًا شبرًا حتى الصباح.. علينا أن نتحرك بشكل مختلف.

قلتها وأخذتُ أتساءل في نفسي.. كيف أحل غموض تلك القضية؟.. كيف؟!

بينما أتوجه إلى سيارتي المتوقفة خارج الجدار صحتُ فجأة:

- أمسك هذا الشاب وضعه في «البوكس» فورًا.

كان شابًا نحيفًا يمتلئ وجهه بحبوب حمراء مقززة، لم يبلغ العشرين بعد.. يقف على مقربة من مكان خروجنا يتابعنا في اهتمام.. ارتباكه، وقضمه لأظافره، وعيناه الزائغتان المترقرقتان بالعبرات علامات كافية لأشتبه بأن يكون أحد أولئك الذي زُرع لهم صمام الضمير حديثًا.

- المتهم برئ حتى تثبت إدانته.

صاح بها الشاب عندما حاول «الحمار» ضربه فوق مؤخرة رأسه وهو يصعد إلى البوكس.. أمثاله من الطفيليات يرددون كالببغاوات شعارات يوتوبية جوفاء.. لأشد ما أغاظتني عبارته، كيف يحقق رجل الشرطة دليل الاتهام بدون أن يفترض الاتهام أولًا؟!.. بل ومتى يحق له إثبات الاتهام؟.. هل عند العثور على الدليل، أم أثناء تحقيقات النيابة، أم عند النطق بالحكم؟!

إنها معضلة البيضة والدجاجة، أيهما أتى أولًا إلى الحياة، الدليل قبل الاتهام أم الاتهام قبل الدليل؟!

توجهتُ صوبه من فوري أقتلعه من السيارة بقوة، ثم أصيح بوجهه المرتعب:

- «المتهم برئ حتى تثبت إدانته»!.. لم أسمع أسخف من ذلك قولًا.. حجة فاسدة يسحقها الواقع.. احفظ ذلك عني.. «المتهم مُدان حتى تثبت براءته».. أثبت لي أنك برئ وسأطلق سراحك في الحال.

سقط في يد الفتى.. تهدل كتفاه حتى بدت قامته أقصر.. ودنا من الأرض أكثر.

وفي مكتبي بالعاصمة كان الفضول هو الذي دفعني لأن أجيب على اتصال الكلب النجس.. فلم تكن اتصالاته في العادة إلا لأمر مهم:

- أهلا «أسمر».. حبيبي.

- «شاهق».. هل أنت متفرغ.. هل يمكنني محادثتك الآن؟.. اسمعني.. لدي خبر لا يُقدر بمال.

- هل عثرت على فضلات حشرة نادرة؟

- أفضل.. أفضل.. عثرتُ على «الكاتب الكبير».

- وهل كان ضائعًا؟!

- ألا تفهم الأمر.. هو لا يظهر أبدًا أمام الصحافة.. والتقاط صوره له هو حلم حياتي.

- كيف عثرتُ عليه.. أين عثرتُ عليه؟

- صاحب البيت الذي أستأجره، «شلبي سليم الفخراني» أنت تعرفه.. هو الذي أخبرني أنه يسكن في.......

- وهل تظن أنه سيسمح لك بتصويره؟!

- سأحاول.. لابد أن أحاول.. لا أريد أن أفوت هذه الفرصة.

- أحسنت يا بطل.. هذا هو «أسمر» الذي أعرفه.. لكن اسمع لما لا تمر عليّ في المكتب بعد انتهاء مغامرتك الصغيرة.. تعرف.. حادثة اختفاء البحر.

- نعم.. رأيتُ.

- لا تتأخر.. سأغلق الآن.

اختفى البحر المتوسط من الكرة الأرضية ولا يزال الكلب النجس يسعى وراء حُلمه السخيف.. بعض الناس لو سقطت عليهم صاعقة من السماء لاحتاجوا إلى سنوات ليعوا أنهم فقدوا حيواتهم.. لا أفهم ما الذي

يسعى إلى إثباته.. لماذا يصر على أن يأخذ رقمًا موجبًا.. بعض الناس ولدوا أصفارًا.. لا قيمة لها ولا معنى.. هذا قدرهم لحفظ نظام الكون.. فلماذا يتمرَّد بعض الأغبياء على أقدارهم؟!

البعض ولدوا أرقامًا موجبة.. والبعض أصفارًا.. أما أنا فمن تلك الزمرة التي ولدت كسورًا تجبر الناقص ليصير رقمًا صحيحًا.. لا يمكن العيش بدون كسور.. لا يمكن تخيل الحياة بدون كسور.. تلك الشظايا حادة التقاطيع التي تفتح الطريق للتخلص من الدماء الفاسدة.

وكان «أسمر» دمًا فاسدًا.. إلا أنني لا يمكنني إراقته.. وإن كنت شديد الرغبة في ذلك.. لا يمكنني.. ربما لأنني أحب الشعور الذي يمنحني إياه، حين يراني بطلًا خارقًا يلجأ إليه وقت الحاجة، حين يؤمن أن كل مشكلة لها عندي ألف حل، حين يُبدي عجزه وضعفه وخنوعه أمامي.. كان متفوقًا عليّ بدرجاته طيلة حياتنا الدراسية، لم أنس له ذلك قط.. يجب أن يتعلم أن لمدرسة الحياة قوانين مغايرة لا ينجح فيها إلا ذوات الدماء النقية فحسب.. مثلي.

لكن بإمكاني أن أفسد راحته من حين لآخر.. وأنا بذلك أسدى له معروفًا كبيرًا، أضع نصب عينيه حقيقة أنه من غير الممكن أن يكون أي شيء سوى صفر بلا معنى.

كان العنوان الذي أخبرني به يبعد ساعة واحدة.. قطعتها في ساعة إلا ربع.. أوقفتُ السيارة متوارية خلف الأشجار.. ثم ترجلتُ منها في حذر.. رصدتُ حركاته كالقرد فوق شجرة كبيرة في حديقة الفيلا.. انسللتُ إلى المقعد الخلفي لسيارته.. إن كشفني زعمتُ برغبتي في مفاجأته.. وإن لم يفعل أضع عقبة أخرى أمام حلمه السخيف.

سمعتُ باب السيارة يُفتح.. شعرتُ بحركته فوق مقعد السائق.. أمسكتُ بمسدسي بإحكام.. كنتُ أعرف بالخبرة الموضع المناسب لأفقده الوعي.. وفي اللحظة المناسبة انقضضتُ على رأسه السميك بكعب سلاحي!

أخذتُ الكاميرا من فوق قدميه.. ثم هرولتُ في اتجاه سيارتي مغادرًا.. ولو انتظرتُ وقتًا أطول لرأيتُ بنفسي رأس «الكاتب الكبير» قد سارت عجينة يختلط فيها اللحم بشظايا العظم،فلم أكد أتحرك مسافة قصيرة حتى وردني خبر مقتله!

عندما تفحصتُ الكاميرا وجدتها ممتلئة بصور للرجل..

لكن الكلب النجس التقط بهاتفه لـ «الكاتب الكبير» صورة أكثر وضوحًا عندما اقترب من النافذة قبل سقوطه مباشرة.. أخبرني بذلك عندما هاتفني وأخبرني بقصة فقدانه الوعي واستيقاظه بجوار الجثة.. لا أظن ذلك منطقيًا على الانطلاق هو كاذب بالتأكيد.

عندما أفقدته وعيه كان ذلك داخل السيارة، لا أسفل الشجرة كما يدعي.

لماذا يكذب إذن؟!



(٥)

الشاهد الثالث

«حصان طروادة»

شاهد لم يرَ شيئًا.. لكنه يعرف أكثر من أي شخص آخر.. أو للدقة، سيعرف بعد قليل!

أمسك بجهاز التحكم في التلفاز، يطوي القنوات، ولا يستقر على واحدة.. فجميعها تحوي الأسئلة نفسها.. كيف تبخَّر البحر؟.. هل أجرم «الكاتب الكبير» في حق نفسه؟.. هل كانت جريمة مدبرة، أم يعوزها سبق الإصرار والترصد؟!

مات «الكاتب الكبير» لكن موته لا يمكن أن يكون حدثًا عاديًا، كان «حصان طروادة» من القلة التي لا تزال تقوم بفعل القراءة.. لذلك كان من السهل عليه أن يربط بين الأخبار المُسربة كل حين وآخر عن الرواية الأولى التي يعكف «الكاتب الكبير» على كتابتها منذ سنوات.. وحادثة اختفاء البحر!

فالأخبار التي سرَّبها وكيل أعماله للصحافة تؤكد أنها تروى قصة خيالية عن اختفاء البحر من البلاد!

فهل من محض الصدفة أن يموت «الكاتب الكبير» بعد ساعات قليلة من اختفاء البحر؟!.. لا يظن ذلك أبدًا.. هكذا حدَّثه حدس الصحفي الذي قلما يخطئ.

عليه الصبر ساعتين فحسب؛ فعند منتصف الليل ستُبشره بالخبر اليقين مصادره التي بقيَت سرية حتى يومنا هذا.. فالدرس الأول الذي تعلَّمه في عالم الصحافة أن الصحفي الناجح لا يفشي سر مصادره أبدًا.

عاد إلى طَي القنوات وثمة شعور بالتفكُّه يستأثر به.. يومًا ما سيكون بإمكانه أن يتحكم في الزمن مثلما يفعل مع قنوات تلفازه!

يرى أن قوة العالم تسربت من يد من يملك السلطة أو المال.. وانتقلتْ إلى الزمن.. تلك هي موازين القوة الجديدة في العالم الحديث.. من يملك الزمن يملك كل شيء.. بما في ذلك حيوات الآخرين!

يكفي دلالة على عظمة الزمن وأهميته أن الله قد أقسَم به في كتاب يُتلى إلى يوم الدين.

لذلك يشعر دومًا أنه يقيم سباقًا مع الزمن، أيهما سيقضي على الآخر أسرع؟.. هزيمته في فنائه ككل المخلوقات التي لم يُكتب لها الخلود.. وهزيمة الزمن في جذبه إلى الأمام و الخلف.. صوب الماضي والمستقبل متجاوزًا أسوار الحاضر.

اتكأ على أحلامه وهو يفكر، لعل من الأساس لا ينقسم الزمن إلى ماضي وحاضر ومستقبل، ربما هو في رحلة ذات اتجاه واحد. شريط طويل من الأحداث يمر عليه فلا ينمحي ما فارقه.. الماضي هناك إذن في مكان ما، وليس مجرد ظل في الذاكرة.

مر بخاطره كيف عبَّر «أينشتاين» عن ذلك ببساطة عندما راسل أحد أصدقائه قائلًا:

«الفرق بين الماضي والحاضر والمستقبل هو مجرد وهم، حتى ولو كان ذلك أمرًا فظاً».

تحرك ببطء.. ببطء شديد!.. كما لو كان بداخله بطارية فقدت قوتها.. التقطَ جهاز التحكم في التلفاز.. أطفأ التلفاز متأففًا، إذ أن باقي الأخبار تدين بالدين ذاته «ضحية الأمس هو قاتل اليوم».

ألا يرتبط كل شيء بقانون السببية؟.. ليتحصَّل على نتيجة ما، يجب أن يُوجد سببًا ما، ومتى توافر السبب؛ نشأتْ عنه نتيجة.. لا يُمكنه أن يُشاهدَ الأخبار ما لم يفتح التلفاز.. فتحه للتلفاز «سبب»، ومشاهدته للأخبار «نتيجة».. لكن لو أمكن للإنسان العثور على ما هو أسرع من الضوء لنشأت فوضى سببية، ولأصبحت النتيجة سببًا، والسبب نتيجة.

وهذا ما هو على استعداد لأن يفني عمره بحثًا عنه.. وسيلة ليعرف الماضي البعيد «السبب».. فيتحكم في المستقبل «النتيجة».

تمر الدقائق يجرفها الزمن.. تدق الساعة منتصف الليل بعد أن ركبتْ عقاربها فوق ظهور بعضها.. ها هي مصادره تلج من النوافذ والأبواب.. ومن القنوات التي صنعها في مواضعٍ متفرقة من جدران بيته.. ما إن رصدها بعينيه حتى صاح بهم باسطًا ذراعيه:

- هلمّوا.. تعالوا إليّ.

يقفزون بإصرار إلى حيث يجلس فوق المقعد وكأنهم يلبون نداءه.. بعضهم يأخذ الطريق الطويل من أسفل حذائه وحتى منتهى بنطاله.. وآخرون يفضلون الانحراف نحو ذراعيه ومنها إلى جذعه، ثم رأسه الجرداء من الشعر.. يفدون زمرًا زمرًا.. تسكن حركاتهم عند ملامستهم جسده الدافئ.. فالبراغيث تكره برد يناير!!

يتخذ كل منهم موضعًا فوق وجهه وجسده.. حتى يخفونه تمامًا بأجسادهم زرقاء اللون ملساء بغير شعر.. حتى ليظن الرائي أن الهيكل الجالس فوق المقعد ما هو إلا تجمع مريب من براغيث اختارت أن تُجسد شكلًا بشريًا.. على غير عادتها في مهاجمة أجساد الحيوانات المنزلية.. لا يمكن لمخلوق أن يتصور أن هناك جسدًا بشريًا حقيقيًا أسفلهم.. وعقلًا متيقظًا واعيًا، لا يمنحهم موافقته على ما يفعلونه فحسب، بل مباركته كذلك!

تتحدث البراغيث في وقت واحد.. أصبح ماهرًا في رصد كلماتهم، وتمييز قائلها في بعض الأحيان.. في البداية كانت تختلط عليه الأصوات والكلمات فلا يفقه منها شيئًا.. لكنه تعلم مع الوقت كيف يبني بينهما جسورًا من التفاهم.

براغيثه نوع فريد، لا تسلب من جسده وجبة لذيذة من الدماء، بل تتفانى في إطعامه ما يشتهي من قضمات الزمن.

يسترسلون في الحديث.. يبوحون له بالأسرار والمكنونات، يقصون عليه الحكايات.. وقائع حقيقية دارت قبل أربعة وعشرين ساعة.. كانت البراغيث مصادره الأمينة السرية.. بل أكثر من ذلك.. كانت آلته الزمنية التي فشل كل علماء العالم أن يُشيِّدوا مثلها.. براغيثه أسرع من الضوء وأدق من الساعة.

انتابته السخرية من «جول فيرن» إذ ظن في روايته الشهيرة أن آلة الزمن تبنيها المعادن والدوائر الكهربائية؛ فآلته هو من روح وخلايا حية..عمادها السيتوبلازم وطاقتها الميتوكوندريا!

لا تكتفِي براغيثه بالبوح بأحداث اليوم السابق، بل تقص عليه أدق التفاصيلَ وكأنه يراها بنظرة تلسكوبية.. سرعة تنفس زميله في الجريدة عند حديثه، حركة عينيه ونبرة صوته، والشريان الذي تختاره الدماء لتتجلَّط فيه قبل أن تتبدَّى على جسده أعراضًا فسيولوجية.

أكثر الحكايات استحواذًا على غيظه هي ما روته البراغيث عن عامل البوفيه «شلبي سليم الفخراني» الذي تنصَّتَ عليه وأفشى سره لمستأجر في بيته المتهالك.. اشتعلتْ عيناه غضبًا، حتى توترت حركة البراغيث فوق جسده وكأنها تلامس مِرجلًا على وشك الغليان.

أما ما أوصله لدرجة الغليان بالفعل هو فشل براغيثه الأليفة في إرواء ظمئه عما حدث «للكاتب الكبير» في غرفة مكتبه المغلقة، للمرة الأولى يقف الزمن في وجه براغيثه كجدار عازل، يمنعها من كشف ما حدث في الماضي القريب.

صاح بهم:

- ماذا حدث؟!.. كيف فشلتم؟!.. وهل يمكن لهذا أن يحدث؟!.. لم يعجزكم أي شيء من قبل قط.. فلماذا لم تتمكنوا من معرفة ما حدث داخل هذه الغرفة اللعينة؟!

لصوت البراغيث تردد خاص، يصدر عن طريق اهتزاز أرجلها الستة فوق تضاريس جسده، قالوا بترددات متقاربة:

- لا نفهم.. لم نفهم.. كنا عاجزين.. عاجزين تمامًا.

أصر «حصان طروادة» ثائرًا.. ثقل لسانه.. خرجت كلماته ببطء.. ببطء شديد:

- لو.. أنكم.. حاولتم.. أكثر.. لو.. أنكم.. استمعتم.. أطول.

- لا نفهم.. لم نفهم.. كنا عاجزين.. عاجزين تمامًا.

تنقل اهتزازات أرجلهم بسرعة جنونية الكلمات إلى جسده، أما صوته فيتمكنون من سماعه عبر هوائيات في رأسهم تكشف عن الاهتزاز، وترصد بدقة بالغة ترددات الصوت، وسرعته، وشدته.. لا تفهم الكلمات فحسب بل تفهم مشاعر قائلها، بإمكانها أن تفرق بين آلاف المشاعر المختلفة.. يسمعهم بجسده، ويسمعونه برأسهم!

لم تتوقف الاهتزازات فوق جسده لساعتين تاليتين.. سقطت بعدها البراغيث منهكة القوى.. فتكشَّف جسده رويدًا رويدًا.. منهك القوى هو الآخر.

قدَّر أن بعض الذرات تركت مداراتها لتدور في اتجاهات خاطئة.. لا يُعقل أن تفشل براغيثه في رصد حركة «الكاتب الكبير» قبل أربعة وعشرين ساعة.. لم يسبق لها أن فشلت في اختراق الماضي لتأتيه بأحداث مُفَصَّلة عن اليوم السابق..

فما الجديد هذه المرة؟!

يعرف أن «الكاتب الكبير» يعيش برفقة حارسه وخادمته.. ولا يزوره إلا وكيل أعماله.. وعرف من مصادره الصحفية ـــ البشرية ـــ أن الحارس والخادمة والوكيل خضعوا للاستجواب ظهر اليوم.. وتم التحفظ على الحارس.. وإخلاء سبيل الخادمة والوكيل.

أهداه تفكيره إلى زيارة الخادمة في بيتها، ومحاولة الحصول على أي معلومات منها بشكل مباشر.. رغم أن براغيثه تستطيع غدًا أن تأتيه بكل تفصيلات اليوم.. وبكل كلمة قالتها المرأة داخل غرفة التحقيق الموصدة.. لكنه أراد أن يراها بنفسه.. فلعله يعرف منها ما لم تخبر به أحدًا.

لم يكن عثوره على عنوان المرأة صعبًا.. فهو «حصان طروادة» أشهر صحفي في البلاد، لكن المرأة كانت جاهلة جدًا، لدرجة أن تخفى عليها هويته. أنها ظنَّتْ أنه يعمل مخبرًا لدى الشرطة، وأنه يريد أن يستدرجها في حديث سيجر عليها البلاء.. ورفضتْ رفضًا قاطعًا الحديث معه.

وعندما ظنَّ «حصان طروادة» أنه سيعود بخفي حنين، أظهرتْ ابنتها تفهمًا ما، أو بصراحة طمعتْ في أن بإمكانهما أن يعقدا تعاونًا مشتركًا، هي تُجيب عن أسئلته بشأن ليلة الجريمة، مقابل مائة جنيه عن كل سؤال، بدتْ له صفقة عادلة جدًا.

جلسا متجاورين في سيارته الفارهة، بعيدًا عن منزلها، بمنأى عن عيون جيرانها.. حاول تخيُّر الأسئلة الكبيرة التي تبتلع في جوفها عدة أسئلة صغيرة.. توفيرًا للوقت والمال.. صحيح أنه صار غنيًا، لكنه لم يستطيع أن يقتل عاداته في عدم إهدار المال في غير موضعه، أخرج المائة الأولى فتلقفتها الفتاة بلهفة، سألها:

- بماذا اتهمت الشرطة أمك؟

- احفظ «ملافظك» يا رجل.. أمي أشرف نساء الدنيا.. وهل تظنها صاحبة سوابق لتتهمها الشرطة بشيء؟

تدارك الأمر:

- لا أقصد بالطبع.. حسنًا سأغير السؤال.. ماذا سألت الشرطة أمك؟

بسطتْ كفها في إشارة بليغة.. فدسَّ فيها مائة أخرى:

- سألوها إن كانت قد أرسلتني إلى بيت «الكاتب الكبير» كما اتفقت مع الحارس.

قفز حاجبيه في دهشة، بأسرع مما تقفز براغيثه، سألها وهو يدس في يدها مائة أخرى:

- لماذا أرادتْ أمك إرسالك إلى بيت «الكاتب الكبير».. هل للعمل في خدمته؟

- أمي الله يبارك في عمرها ويحفظها ويحميها، قل آمين.. قبل أسبوع من الليلة المنحوسة صدمتها سيارة بالقرب من الفيلا أثناء مغادرتها.. فكُسرتْ ساقها.. ولتنكسر ساق من أذاها،قل آمين.. ولأنها تعرف أنَ عقل «الكاتب الكبير» مسافرٌ في أجازة....

- انتظري.. ماذا تعنين بأن عقله سافر في أجازة؟

وقع في شرك مقاطعتها بسؤال، لا بأس، فينتبه أكثر في المرة القادمة، ألقى بمائة أخرى فوق ساقيها:

- يعني الرجل ليس طبيعيًا.. يأكل الطعام بشراهة خرتيت.. لا يحب الخروج من بيته.. لا يقابل أحدًا.. لا يثق في أحد.. وكأن الله خلقه فقط ليجلس فوق مقعد في مكتبه يأكل الشطائر واللحم والدجاج والحلوى.. ويكتب أشياء الله وحده أعلم بها.

- أكملي؟

- لقد أجبتُ على سؤالك.. اسأل سؤالًا جديدًا.

صعد الدم إلى رأسه، ألقى لها بورقة نقدية أخرى، بدا له أن العودة إلى السؤال الأول خيارًا مناسبًا، دون مقاطعتها هذه المرة:

- لماذا أرادتْ أمك إرسالك إلى بيت «الكاتب الكبير».. هل للعمل في خدمته؟

- كنتُ أقول أن سيارة صدمتها، إلهي يصدمه قطار مسرع، قل آمين.. ولأن «الكاتب الكبير» لا يثق في أحد غير أمي الله يسترها ويحفظها، قل آمين.. أخبرته أنها سترسلني لخدمته حتى تشفى ساقها.. ولكنها لم تفعل لأنها جاءها اتصال فحواه ألا ترسلني إلى بيت «الكاتب الكبير» لأنه عثر على خادمة أخرى.

- اتصال ممن؟

- امرأة لا تعرفها.

- أيعني ذلك أنك وأمك لم تذهبا إلى بيته تلك الليلة.. وأنكِ لا تعرفين ما الذي حدثَ في الداَخل؟

مدَّت يدها، فدفع فيها بمائتين متأففًا:

- كلا، لا أعرف.. قلت لك لم أذهب فكيف سأعرف.

انتهى حواره معها بـ «لا شيء».

الجريمة الغامضة.. اختفاء البحر.. الرواية التي تتحدث عن اختفاء البحر.. فشل براغيثه.. إخفاقه في رصد أي معلومات تفيده..كل ذلك كان يدفعه إلى السقوط في أحضان الغيظ.

***

منذ زمن بدا له الآن كما لو كان بعيدًا جدًا، ألقى «حصان طروادة» سؤالًا على مسامع الكائن الوحيد الذي يثق به في هذا العالم«مولانا الشيخ جو»:

- كيف أدمر عالمًا دون معول هدم؟
- خلخل الثوابت والبديهيات.. زلزل العقائد والانتماءات.. هكذا تدمر عالمًا دون أن تضطر إلى تحمل ثمن معول واحد.. وفوق كل ذلك.. أَخْفِ البحر!

ذات مساء آخر سأله:

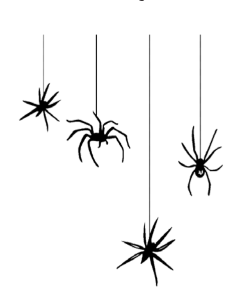
- كيف أقتل إنسانًا دون قطرة دماء؟
- أشعل في روحه نيران الشك.. وسد عليه كل منفذ للهرب.. وفوق كل ذلك.. أَخْفِ البحر.

الجريمة الغامضة.. اختفاء البحر.. الرواية التي تتحدث عن اختفاء البحر.. فشل براغيثه.. كل ذلك دفعه لأن يفكر بصوت مرتفع، لكن أتى تفكيره بطيء ..بطيء جدًا:

- هل.. حانت.. نهاية.. العالم؟!

فأجابته ذاكرته من كلمات «مولانا الشيخ جو»:

- العالم يكبر بنفس الطريقة التي يتغذى بها البرغوث الصغير على براز أمه.. وعندما ينتهي ستشم رائحة كريهة تنبعث من كل مكان.. هذه هي علامة النهاية فاحفظها!



(٦)

محكمة الضمير

«أسمر»

- أنا قاتل.

لا زالتْ تلك الفكرة الملحة تفرض الحصار على رأسي.. وتخمشه كالسرطان.

الجرح ينضح بالألم، والضمادة هناك تخفي أثر ضربة أجهل فاعلها، لكن ويا للغرابة.. لم ينشغل عقلي بمحاولة العثور على المجهول الذي أفقدني الدماء والوعي، بقدر انشغالي بموت «الكاتب الكبير».. وتحركي من السيارة إلى حيث ترقد جثته أثناء فقدي للوعي.

أتراها صرخة ضمير.. أم خوف من تبعات قانونية؟

يعتمل بداخلي الصراع ذاته القائم بين الدولة و «العلماء»..!

أحدهما يتخذ من «القانون» رادعًا أخلاقيًا كلمته نافذة.. والآخر يؤمن أن «الضمير» كلمته أعلى وميزانه أدق.

أنا لم أقترب من «الكاتب الكبير»، ولم أقتله متعمدًا.. هذا ما يقوله القانون

لكنني دفعته لأن يستطلع هوية المتطفل على ممتلكاته، ففقد حياته.. هذا ما يقوله الضمير..

أنا مذنب وغير مذنب!

أنا قاتل ولا قاتل!

أمضيتُ ليلتي ساهرًا أقطع الغرفة مجيئًا وذهابًا والشعور بالذنب ينهشني بضراوة.. رحلة قطع فيها الذنب مسافات بعيدة داخل تلافيف عقلي، حتى أحكم عليه قبضته.. بعض التلافيف التي نجت من بطش إحساسي بالذنب أخذت تناشد عقلي:

- كيف بربك قتلته وقد كنتُ فاقدًا لكل وعي وإدراك في تلك اللحظة داخل السيارة؟!

فيجيبه الجزء الواقع تحت تأثير الشعور بالذنب:

- كلا، في قبل موته كنتُ يقظًا أشد ما تكون اليقظة.. لا تخدع نفسك وتخدعني.
- يقظًا نعم.. لكن بعيد بمسافة كافية تنفي التورط في الحادثة.
- لا تقل حادثة، سم الأشياء بمسمياتها الحقيقية، كانت جريمة.. جريمة قتل.
- كيف بربك أقتله دون أن ألمسه؟!
- لفتَّ انتباهه يا لعين، فدنا من النافذة مستطلعًا، ومن يلومه على ذلك؟.. اختل توازنه في أقل من ثانية، وسقط صريع جشعنا.
- وما أدراك أن هذا ما حدث؟
- وما أدراك أن هذا لم يحدث؟

ساد الصمت لبرهة بينهما، ثم:

- المتهم بريء حتى تثبت إدانته.
- هراء.. صديقنا «شاهق» لا يؤمن بذلك.
- ومالي وصديقنا؟!. المهم ما نؤمن به.

- أواثق أنت ببراءتك حقًا؟!.. أم أنك توهم نفسك بذلك لننجو بفعلتنا؟

- لم نفعل شيئًا لأحاول النجاة.

- بل فعلنا.

- كيف تكون واثقًا مما تقول؟!

- بل كيف تكون أنت واثقًا مما تقول؟!

خيَّم الصمت لبرهة أخرى، ثم:

- كلا.. أنا بريء.. لم أقتل أحدًا.. لكل جريمة أداة.. فأين هي بربك؟!

- خطأ يا بضعة خلايا حمقاء.. ثمة جرائم لا تحتاج إلى أداة مادية لارتكابها.

- كيف تقع الجريمة إذن؟!

- تقع بالنية.

- النية!.. ها أنا قد انتصرتُ عليك.. لم أُبيِّتْ بصدري نية بالقتل.. تعرف ذلك كما أعرفه أنا.

- لم تكن لديك نية للقتل نعم.. لكن كان لديك نية للسرقة.. أمرتَ اليدين بمعاونة العينين بسرقة صورته بغير رغبة منه ولا إذن، ثم حبسها في آلة التصوير.. أنت لم تسرق صورته فحسب.. بل سرقتَ انتباهه وتركيزه.. فوقعتِ الجريمة.

عند هذه النقطة بدا الاستسلام على عقلي بالكامل.. أقرُّ إذن بالجُرم المشهود.

أنا قاتل.

فارقتُ البيت شاعرًا بالاختناق، ومضيتُ إلى مكتب صديقي «شاهق». أجد دائمًا علاقة ما بين قسم الشرطة وبيت الطاعة، فالراغب غير مرغوب، والمرغوب غير راغب!

جلستُ في مواجهة «شاهق»، تبادلنا النظر إلى الصورة الوحيدة الباقية، يظهر فيها «الكاتب الكبير» عند النافذة، والتي أحضرها له «حماره» بالأمس.. يا لمكر الزمن.. وكأن ألف ليلة مرتْ منذ أن التقطتُ هذه الصورة، وليس ليلة واحدة فحسب!

- هناك ظلٌّ في النافذة!

- أي ظل؟!

يصر «شاهق» على أن ثمة جسد بشري توارى عن عدسة آلة التصوير، بينما خانه ظله ليسقط فوق الجدار المجاور للنافذة المفتوحة على مصراعيها.. وتلتقطه عدسة التصوير بسهولة.. «الظلال أبدًا لا تكذب».. هكذا قال لي أحدهم يومًا.. من هو؟!.. لا أذكر.

- ليس ظلًا بشريًا.. إنه ظل تمثال.. أو ستارة.. ربما.

- أي ستارة؟!.. حين فحصتُ موقع الحادث بالأمس لم يكن هناك ستارة.. دقق النظر.. الظل له رأس وعنق وجسد.

أوشكتُ على الإيمان بحقيقة ما يراه.. إلا أنني كبحتُ فرامل ذاك الإيمان الزائف.. أعرف تلك الخدع القذرة التي يقوم بها العقل للتنصل من الذنب.. لن أسمح له.. أنا مذنب.. أنا قاتل.

من أين يأتي هذا العرق الذي بلل جبيني وراحة يدي؟!.. كلا.. هذا ليس عرقًا.. بل ذنبًا.. يدفع مسام جسدي لتطفح بآثاره القذرة.. يبحث عن فرصة للهرب.. لن أسمح له.. قبضتُ أصابعي بإحكام.

- دعنا من هذه القضية الآن.. فأمرها محسوم بالنسبة لي.. قل لي يا «أسمر» ما رأيك في حادث اختفاء البحر؟

«شاهق» هو الشخص الوحيد الذي يوجه إليّ الأسئلة.. أسئلة مختلفة عن «أين أموالي؟».. و«فاضي يا أسطى؟».. يحرص على معرفة رأيي في القضايا التي يعمل عليها.. أفسحتُ من عقلي مكانًا لم يقهره الذنب تمامًا.. يسمح لي بفسحة من التفكير.. أعملته قائلًا بحماس:

- حادث عجيب.. عجيب جدًا.. لم أغمض عيني بالأمس بسبب.. تعرف.. بسبب الحادثة.. فقضيتُ ساعات الليل في مداعبة برغوث عثرتُ عليه منذ ليلتين.. هل أخبرتك بذلك؟.. إنه أزرق اللون.. عجيب.. لا يشبه أي برغوث رأيته من قبل.

- مالي والبرغوث!.. البحر.. البحر يا «أسمر».

- مالي والبرغوث!.. البحر.. البحر يا «أسمر».

- لماذا تُكرر كلماتي!.. ألن تتوقف عن هذه العادة الغبية؟!

- حاولتُ كثيرًا.. لكن رغمًا عني....

- البحر يا «أسمر».

- نعم، نعم.. البحر.. هل استمعتَ إلى الأخبار وقرأتَ الجرائد؟.. يا لسخافتي.. بالطبع فعلتَ.. وأنا أيضًا فعلتُ.. فكما قلتُ لكَ قضيتُ ليلتي ساهرًا.. لم أستطع النوم.. بسبب.. تعرف بسبب...

- ها.. البحر.

- ها البحر.. انظر.. لدي فكرة.. إنها مجنونة بعض الشيء.. لكن استمع إليها أولًا.. وفكر فيها بعض الوقت قبل أن تسخر منها.. تمام اتفقنا؟.. حسنًا.. كنتُ أقول أن لدي فكرة هي عجيبة وغريبة لكن....

- «أسمر» ليس لديّ النهار كله.

- نعم.. نعم.. اعرف.. أعتذر.. «شاهق» انظر.. هل تعرف أن «الكاتب الكبير» لم يكتب في حياته سوى رواية واحدة.. رواية لم يتمكن أبدًا من إنهائها.. هل تعرف ما اسمها؟.. لا تعرف.. حسنًا.. إنها «الرواية التي قتلَتْ قارئها»!

- ....

انتظرتُ للحظات أن ينفعل بانبهار لكن ذلك لم يحدث، فتر حماسي قليلًا وأنا أهتف:

- منذ سنوات قرأتُ مقالًا عنها.. أتذكر اسمها لأنه غريب.. داعب مخيلتي لليالي طوال.. تعلم أنني أشرد كثيرًا أثناء القيادة خاصة في الليالي الهادئة.. إن قصتها تدور تمامًا حول الحادثة العجيبة التي يتحدث عنها العالم بأسره.

- أتعني...؟

- نعم.. تمامًا.. تتحدث عن اختفاء البحار من الكرة الأرضية!

استحوذتُ أخيرًا على جُل انتباهه، فكر قليلًا ثم سأل:

- تقصد البحر الأبيض المتوسط؟

عندما عرفتُ أنه يجهل تلك المعلومات رحتُ أبوح له بحماس، إذ شعرتُ بتفوقي عليه للحظات:

- كلا.. بل البحار كلها.. ثم المحيطات.. فالأنهار.. اختفى اللون الأزرق كله!

هبط ترمومتر حماسي إلى درجات متدنية عندما صاح:

- هذا جنون.. ما علاقة الرواية التي يكتبها الرجل بما يحدث على أرضِ الواقع.. «الكاتب الكبير» رجل عادي.. نعمٍ حوله هالة من العَظَمة لكن هذا كل شيء.. الرجل ليس مشعوذًا يخالط الجان ليُحقق بعصا سحرية أحداث روايته!

- لم أود قول ذلك.. فقط أردتُ الإشارة إلى معلومة لا تعرفها يا «شاهق».. وإن كنتُ لا أعرف سر الرابط بين أحداث روايته وما حدث في الواقع.

لذتُ بالصمت وقد عاودتْ مطارق الألم عملها بنشاط عند مؤخرة رأسي.. شعر «شاهق» بآلامي.. سمعته يقول بانفعال أخوي:

- لا تقلق.. سأعثر على ابن الـ.... الذي فعل بك ذلك.. إنه حارس الفيلا.. لابد أنه هو.. سأنتقم لك من ذاك الكلب النجس.

رفعتُ رأسي رغم الآلام.. ونظرتُ إلى صديقي الوحيد بامتنان لا تسعه الكلمات.

أرغب في أن أديرَ ظهري لكل شيء وأعود إلى فراشي أستلقي ساكنًا بلا حراك، لكنني في الوقت ذاته أود الفرار من البيت كيلا أصادف «شلبي سليم الفخراني».. إذ كيف أخبره أنني سلَّمتُ الصورة الملعونة الوحيدة التي التقطتها بهاتفي بعد سرقة آلة التصوير، إلى الشرطة لأنها الشاهد الوحيد الحقيقي الذي يملكونه بين أيديهم؟!

كيف يمكن لعقله الذي يزن مقدار حبة من خردل أن يفهم أنني لا أستطيع أن أتكسَّب من المتاجرة بالدماء!

ارتأيتُ أن أنفق بضعَ ساعات في قهوة «العطَّاسين».. ثم انتبهتُ إلى أنها مكان غير آمن،فمن الوارد أن ألتقي فيها أيضًا بـ «شلبي سليم الفخراني».

مرَّت مائة عام مِن هل أذهب إلى البيت أم إلى قهوة «العطَّاسين»؟

أخرج من شارعٍ أعرفه لأدخل آخر لا أعرفه، أحرق الغاز، وأؤدي نصيبي من التلوث لأساهم في توسعة ثقب الأوزون.. المهمة الجليلة التي تقع على عاتقنا جميعًا.

- كدتَ تصدم سيارتي يا ابن الـ....

أخرجني أحد السائقين بلطف من شرودي.. فلوَّحتُ له بكفي مبتسمًا.. وعندما أطلق سُبة أسوأ من الأولى علمتُ أنه قبل اعتذاري.

حاولتُ التركيز أكثر، ففر مني إلى الدُمية التي تستريح في مؤخرة «التُناية» التي تتقدمني -وهو تحوير عجيب أتى على كلمة «ثمناية»، أي سيارة حاملة لثمانية راكب- دمية كبيرة لـ «سوبر مان» بعباءته الزرقاء الرائعة.

في صغري كانت جدران غرفتي الصغيرة تمتلئ بملصقات «سوبر مان»، «كلارك كنت» الذي عاش حياة مزدوجة، إحداها حياة كصحفي يخالط الناس، مجرد غطاء لحياة مثيرة كرجل خارق برداء أزرق وقدرات جبَّارة، يتحدث عنها الجميع بفخر واعتزاز.

كنت أنام فلا أحلم.. أستيقظ فأدخل نفسي في أحلام يقظة.. أحلم فيها بآلاف الحكايات التي أكون فيها البطل الوحيد، البطل الخارق الذي تنظر إليه العيون بانبهار، وتنحني له الرؤوس بإجلال، ثم أستيقظ على واقع لا يمت لأحلامي بصلة رحم، أقف أمام المرآة فتخبرني أنني لا أشبه الأبطال الخارقين بقامتي النحيلة، وعضلاتي الهزيلة.

أتحدث إلى الناس فيخبرني تجاهلهم وإعراضهم أن كلماتي المضطربة، وثقتي المتذبذبة، وضعف منطقي لا يشبه صفات الخارقين.. أفشي لأمي يومًا أحد أحلامي فتنهرني عن العيش في الأحلام، وتأمرني أن أركز جهودي في واقع لا يبحث فيه الناس سوى عن لقمة العيش.

لم أكن يومًا بارعًا في اكتساب الصداقات، وكأن الناس لا تراني، أمرّ بجوارهم في الطرقات، وأجلس بجوارهم في مقاعد الدراسة، ومدرجات الجامعة، ومقهى «العطاسين» لكنهم لا يروني، لا يسمعوني، كهواء يمر بجوار وجوههم فلا هو بارد يقرص، ولا حار يلسع.

- انتبه للطريق يا ابن الـ....

سائق لطيف آخر.. السُباب يمثل له الشاحن الذي يمده بفولتات الصبر.. ليتحمل ماء المجاري والهواء الملوث والطعام المسرطن.. الظلم والقهر والفساد والزحام.

السائق هو ترمومتر الشارع، يكفي نظرة واحدة إلى وجهه المحتقن لمعرفة درجة حرارة الشريحة المطحونة اقتصاديًا.

أدرتُ مفتاح الراديو، لأملأ فراغ السيارة ببعض الأصوات.

«... وفي حادثة الخطف والاعتداء على الطفلة «س. ع.» تم تحقيق العدالة بتبرئة المتهم، وتم القبض على أبويها واتهامهما بالتقصير في رعاية الطفلة، فلو لم يترك الراعي غنمته شاردة لما أكلَها الذئب...»

سارعتُ إلى إطفاء الراديو.. خللًا ما حدث في برمجتنا الأخلاقية فأصبحتْ تُعاني من قصور في العمل.. هل أنا وحدي من أرى ذلك؟!

دفعني صبري الذي أوشك على النفاد إلى أن أتوجه من فوري إلى البيت.. إذ أن أقذع الشتائم في هذه اللحظة لن تكفي لشحن بطارية صبري بما يكفي للدوران في شوارع العاصمة لساعة أخرى.

***

لم يعد الزمن يصلح لحساب الوقت المستغرق لقطع مسافة من مكان إلى آخر، تفوق عليه المال الذي ننفقه في وسائل المواصلات وعلى بنزين السيارة.. لذلك كان يُبعدني عن البيت حوالي سبعون جنيهًا عندما انحشرتْ سيارتي في عنق الطريق فجأة!

يبدو أن حادثًا ما تسبب في تعطل سريان المرور.. الرياح ذاتها بدتْ وكأنها توقفتْ عن الحركة، استرقتُ النظر إلى هامات الأشجار؛ فطمأنتني رعشاتها.. أرخيتُ رأسي إلى الوراء، راودتُ الألم عن نفسه بجرعتين من المُسكن؛ فكفَّتْ أنيابه عن عض رأسي.. لستُ آبهًا لكليتيّ اللتين لا بد وأنهما تندبان حظهما الذي أوقعهما في جسدي.

توقفتْ مطارق الألم.. لكن مطارق الذنب لم تتوقف لحظة واحدة.. عادتْ صورة الحادثة تقفز أمام عيني بوثبة مفاجأة.. وكلمة «لو» تطعنني ألف طعنة نافذة.

«لو» لم أعمل وفقًا لسلطان رغبتي لما تأخرتُ في دفع الإيجار.. «لو» لم تتراكم ديوني لما اقترح «شلبي سليم الفخراني» أن ألتقط صورة «للكاتب الكبير» لأقوم ببيعها ورد ماله.. «لو» لم أتسلق الشجرة لما لفتُ انتباهه.. «لو» لم أثر مخاوفه لما تدلى من نافذته مستطلعًا أمري.. «لو» لم أفعل كل ذلك لما سقط الرجل من شرفته فاقدًا لحياته!

انقسمتْ خلايا عقلي مرة أخرى.. قال الذي يتهاون:

- لو لم يُرد الله لما نشأ الكون.. لو لم تُخلق الأراضين لما خُلِق ابن «آدم».. لو لم يقرب الشجرة لما طُرد من الجنة.. لو لم يقتل «قابيل» أخاه لما توارثنا شهوة للدماء.

فقال الذي لا يتهاون:

- إلامَ ترمي بذلك؟

- لو فتحتَ الباب لـ «لو» واحدة لجرت وراءها سلسلة طويلة من الـ «لو».. لكن ومع ذلك لما تغير شيء.. لأن هذه السلسلة تبتدئ بمشيئة الله في خلق الكون.. فلو لم يشأ لما خلق.

- يا لك من خبيث، أتحسب أنك ستنجو بهذه الحُجة المهترئة؟!.. فـ «لو» سلَّمتُ بكلامك لما استحق بشري عقابًا قط.. لأن ما حدث هو ما كان ينبغي له أن يحدث.

- أليس هذا هو الحق؟!.. ألا تؤمن بالقضاء والقدر؟

- كلام حق يُراد به باطل!.. وهل خلقنا الله عبثًا؟.. ندور في حلقة مفرغة لا سبيل لكسرها.. نذنب فنبرر ذلك بأن هذا ما كان ينبغي له أن يحدث؟.. لا يا بضعة خلايا حمقاء.. بل لله قُدرة.. وللإنسان سُلطة!

عبثتُ بهاتفي متململًا، لكن أصابعي تجمدتْ فجأة.. لا بل تجمد قلبي ذاته لثانية واحدة قبل أن يعود إلى العمل بسرعة جنونية.

لم أفتح ملف الصور منذ الأمس إلا لأحصل على صورة «الكاتب الكبير».. الصورة الأخيرة التي صورتها بنفسي.

لكنني فوجئتُ الآن بملف آخر يحوي صورة واحدة التقطتْ من تطبيق كاميرا مختلف عن الذي اعتدتُ استخدامه.. لذلك أنشأ لها التطبيق ملفًا مستقلًا واحتفظ بها فيه.

الصورة «للكاتب الكبير» لكن ليست من خارج الفيلا كالتي التقطتها بنفسي.. بل من داخلها!!

يقف مُلتقط الصورة في النافذة المفتوحة والتي تطل على شجرة الموز الكبير.. والكَاتب الكبير مستلقٍ فوق الأرض غارقٌ في دمائه..

لكنني لستُ موجود بجواره في الصور!!

هذا غير منطقي..بل هذا هو الجنون بعينه..

عندما استعدتُ الوعي كنت راقدًا بجوار «الكاتب الكبير» فلماذا لستُ موجودًا في الصورة؟.. ومن ذا الذي التقط الصورة بهاتفي؟!

كبَّرتُ الصورة ودققتُ في تفاصيلها أكثر.. في انعكاس زجاج النافذة ظهر جليًا قميص وبنطال مُلتقط الصورة.. الملابس نفسها التي كانت فوق جسدي بالأمس، والذي تخلَصتُ منها بعد عودتي إلى البيت!

هل هذه مجرد صدفه؟

هل يمكن أن أكون أنا من التقطت الصورة؟

لكن كيف وقد كنتُ فاقدًا للوعي في السيارة؟

هل فقدتُ الوعي حقًا؟

هل ما أتذكر أنه حقيقي هو بالفعل حقيقي؟

كيف فقدتُ الوعي.. كيف جرحتُ رأسي.. كيف انتقلتُ من السيارة إلى أسفل النافذة.. بل والأهم كيف التقطتُ هذه الصورة دون أن أتذكر شيئًا؟!

كنت أظن أنني قاتله بالخطأ.. فهل أنا بالفعل قاتله الحقيقي؟

نضح العرق غزيرًا فوق جبيني وداخل كفيّ.. انتقل الصداع من مؤخرة رأسي إلى مقدمته.. وكأن الألم اللعين يناوب العمل على رأسي من جهاته الأربعة.

يتحرك المرور ببطء يُلهب الأعصاب.. لكنه كافٍ لأكتشف أن ما يعوق الطريق «لجنة» تشكَّلتْ في منتصفه على غير العادة، تُفتش السيارات بدقة!

كان ليخطر على رأسي ألف احتمال لهدف تلك اللجنة.. مثل البحث عن البحر الضائع في حقائب السيارات!.. لو حدث ذلك لما اندهشتَ أبدًا.. إنها العقلية ذاتها التي تبحث عن أمجادنا الضائعة بين ركلة كرة وهزة وسط!

اشرأبتِ الأعناق صوب رجل يطلق خوار الذبائح، يقتاده بعض أفراد «اللجنة» بعيدًا عن سيارته.. سمعناه يقول بين خواره الذي ينقطع ويتصل:

- لا أعرف «العلماء».. لم أخضع لأي جراحة.. الزائدة الدودية.. اللحمية.. لم أخضع لسواهما.. اتركوني.. أنا لستُ منهم.. لا أملك صمامًا للضمير.

أعرف أعراض «أنفلونزا الضمير» جيدًا.. إنها تمامًا ما يحدث لي الآن.. عرق.. خوف.. رعشة.. نظرات زائغة.

تحرك الفوج أكثر.. أقترب من أفراد اللجنة.. العرق يزداد غزارة.. التوتر يرسم لوحة سريالية فوق انعكاس وجهي الذي يُخرِج صهدًا.. تبًا لذلك.. لو توقف العرق.. لو توقف الارتعاش.. لو لم تكن عيناي منكسرة إلى هذه الدرجة.. لو لم تتجمع فيهما نظرات الذنب... فقط لو...

ألف «لو» استمطرها عقلي حتى سمعتُ الضابط الواقف بجانبي يزمجر:

- رخصك وبطاقة هويتك!



(٧)

إبهام في المشرحة

«شاهق»

غرفة الاستجواب من الأماكن القليلة المفضلة لدي.. الأرض الخشبية التي تصدر صريرًا مع كل حركة، والجدران الرمادية، والمصباح الضعيف الذي يتدلى من السقف.. هزيل هو لكنه يفعل الأعاجيب، اتحد الضوء الساقط منه مع الظلام الذي يغمر أركان الغرفة؛ فخلَّف انطباعًا مقبضًا فوق وجه حارس الفيلا.

يجلس الحارس في المقعد الوحيد أمام طاولة معدنية في منتصف الحجرة.. بل بالأحرى يندفن في المقعد.. وكأنه قبرٌ يحيط بكتلة عظام نخرها الفقر والجوع.. وجلد ختمه الزمن بقُرب انتهاء الصلاحية.

منذ أن تم القبض عليه وفمه صندوق أسود مُحكم الغلق، لم يثر أي جلبة، وكأنه شوال بطاطا تم نقله من مكان لآخر.. قال العرب قديمًا «ما أخفى الإنسان شيئًا إلا وظهر في فلتات كلامه وزلَّات لسانه».. وكنتُ بحاجة لأن أدخل فمه كي أعرفه:

- بدون كلام كثير.. لأنني لا أحب الثرثرة ولا الثرثارين.. احكِ لي كل شيء من اللحظة التي فكَّرت فيها في قتل «الكاتب الكبير».. وحتى دفعته من شرفة غرفة مكتبه.

رفع صوبي وجهًا بشعًا، تهدُّل جلده يبعث بالنفور.. هل يمكن للجلد أن يرتخي إلى هذه الدرجة؟!.. وكأن الزمن امتص منه رحيق الحياة..

ولم يبقِ إلا على النذر اليسير.. ورغم ذلك كانت عيناه تشتعلان ببريق غريب.. تفوَّق على ضوء المصباح في توهجه.

أعدتُ سؤالي بروية فلعله غبيٌّ لا يفهم بسهولة:

- متى فكَّرت في قتله، ولما، وكيف نفَّذت الجريمة؟

لم يتوقف الوهج في عينيه لحظة، حتى وهو يُجيب بترفُّع أدهشني:

- وأنا أيضًا لا أحب تكرار كلماتي.. قلتُ من قبل.. لم أقتله.

صوتٌ له ملمس الرخام البارد.. ينزلق في مسامعي فأوشكُ على نسيان ما قاله.. لم يكنِ قد تحدث من قبل، تلك هي كلماته الأوَلى.. هل يُعدُّ نظرات عينيه حديثًا غير مسموع؟!

- هكذا إذن.. جميل!

أعرف جيدًا هذا النوع من الحشرات، يظن أنه يملك قوة تنين مُجنَّح فقط لأنه يستطيع الطيران عدة أمتار فوق الأرض.. الحشرات خُلقتْ للقتل ضربًا وسحقًا بالأقدام، لا يمثل امتلاكها لجناحين عائقًا أمام دورة الطبيعة وقوانين البقاء.

لكن هذه الحشرة المتكورة فوق المقعد تجهل مصيرها المعلوم.. لم تقرأ سطرًا في علم الأحياء، ولم تمر على الحكمة الداروينية لتأخذ من أسلافها عِبرة.. فأخذتُ على عاتقي مُهمة تعليَمها.

أشرتُ بعيني إلى «الحمار»؛ فتقدَّم يؤدي التحية.. أمرته بلطف وأنا أشير صوب الطالب الجديد في مدرسة الحياة:

- أحضر له الزائرة التي تنتظره بالخارج.. حتمًا أنه اشتاق إليها كثيرًا.

- أمرك.. يا «شاهق» باشا.

قالها «الحمار» وهو يمسح وجه الحارس بنظراتٍ غائرة.

ظهرتِ الزائرة فاختل اتزان الحارس في الحال، عرفتُ ذلك إذ انفتح الصندوق الأسود على مصراعيه وقد بات أكثر استعدادًا للبوح بمكنوناته، شخصتْ نظراته وهو يندفع صوب الزائرة، لا بل الأصح انقض عليها بذراعيه كحدأة تغلف أبناءها بجناحيها لتحميهم من الخطر.

التحما في عناق طال لدقيقة كاملة، سمحتُ له، ففي النهاية نحتاج جميعنا إلى إفراغ الشحنة العاطفية لنتفرغ لمُعاقرة المنطق، أليس كذلك؟

ذبلتْ أذرعهما وتراختْ، استعطفتني نظراته، ولسانه كذلك:

- اترك ابنتي وشأنها.

طُفتُ بنظراتي فوق قسمات الصغيرة التي لم تتجاوز الثانية عشر، تلتصق بأبيها، بينما ملابسها لا تقل قذارة عن جلبابه. قلتُ:

- بيدك كل شيء، اعترف بجريمتك وسأدعها تنصرف.

شحب وجهه حتى كاد أن يشبه إشارة المرور الصفراء، بلون الخوف:

- لم أقتله.. أقسم لك لم أقتله.. اترك ابنتي تعود إلى البيت.

تغيرت نبرات صوته كذلك، باتتْ صفراء، تُطالبني بالتمهُّل والتروِّي.. رغم أن عقله التالف لا يدري بعدُ ما أنتوي فعله، ولم أبح أنا ولو على سبيل التهديد، وهذا أسوأ، فحتمًا يؤلف عقله الآن ألف سيناريو بشع.. ليس أسوأها القتل.

اندفعتْ الكلمات من فمه بغير توقف:

- كان في الفيلا ليلتها شخص آخر، ابنة الخادمة.. يومها.. أقصد قبلها ببضعة أيام.. بثلاثة أيام.. نعم ثلاثة.. أصاب الخادمة حادث وكُسرتْ ساقها، وهي سيدة طيبة تعمل عند «الكاتب الكبير» منذ سنوات، وتعلم أنه لا يثق في أحد على الإطلاق.. أنا وهي ووكيل أعماله فحسب.. لذلك رأتْ أن تُرسل ابنتها لتحل محلها حتى تزيل جبيرة

ساقها.. فتاة شابة.. نعم.. شابة جدًا .. في منتصف العشرينات ربما، أو أكثر قليلًا.. لا أذكر شكلها فالجميع يتشابه في هذا العُمر.. ترتدي معطفًا أصفر اللون.. كانت في الفيلا هذه الليلة بينما تركتُ أنا حراسة البوابة لأن ابنتي أصابتها الحُمى فقد هاتفتني زوجتي لتخبرني بذلك.. فلماذا أكون أنا الوحيد المتهم بجريمة القتل؟

في إشارة منه ليؤكد صحة ادعاءاته مسَّ جبين الصغيرة ليستشعر حرارته، تُشبهه في القسمات والشحوب والقذارة.. لكن عينيها بلا بريق.

لم يكن إثبات كذب قصة ابنة الخادمة صعبًا، فأولًا: كاميرا المراقبة عند البوابة أصابها العطب في اليوم نفسه الذي وقعتْ فيه الجريمة، أي أن شريط التسجيل عند فحصه كان قد سجَّل كل الأحداث التي تسبق يوم الجريمة.. لا أؤمن أبدًا بالمصادفات.

ثانيًا: قمتُ باستجواب الخادمة قبل الحارس، قالت أنها تعهدتْ للحارس بإرسال ابنتها لكنها لم تفعل، لأن أحدهم اتصل بها وطلب منها عدم الحضور زاعمًا أن «الكاتب الكبير» أحضر غيرها، فتعجبتْ هي لذلك لأنها تعرف أنه لا يثق في الآخرين بسهولة، لكنها لم تُصر على إرسال ابنتها رغم ذلك.

إذن الأمر في غاية الوضوح.. الحارس اللعين عطَّل الكاميرا وادعى أن ابنة الخادمة دخلت الفيلا أمام ناظريه ليوفر للشرطة مُشتبهًا به آخر، أكثر قُربًا من الضحية وقت حدوث الجريمة، فالشخص الذي يكون داخل الفيلا مُشتبه به أكثر مِن الذي يقف خارجها.

قصة فاشلة مثل آلاف القصص الساذجة التي تتشكل في رؤوس المجرمين من أمثاله.. دومًا القصص المستهلكة نفسها وكأنهم ينحدرون من سلالة واحدة تتميز بالغباء الفطري.

الحارس طمع في المال الذي كان «الكاتب الكبير» يحتفظ به في مكان ما بداخل بيته، فقتله بدافع السرقة.. هكذا تم الأمر.

لم يزل اللون الأصفر يتزايد حتى كاد يصبغ شعره الأشيب، فاضتْ عيناه البراقتان بعبرة أخفاها سريعًا في أسورة جلبابه، لكنني رأيتها قبل أن يوئدها. بدأتِ الحشرة تُدرك وزنها الحقيقي. اتخذتُ من المقعد الوحيد مجلسًا لي، قلتُ كمعلمة روضة ترشد أحد الشياطين الصغار إلى الصواب:

- أريد أن أصدقك.. لكن المشكلة أنني أثق تمامًا أنك تكذب.. قل الحقيقة كي تعود الصغيرة إلى بيتها.

ثم أشرتُ نحوها، أردفتُ:

- انظر كم هي خائفة.. إنها ترتجف فزعًا.. وتعرف أنك السبب في إحضارها إلى هذا المكان الكريه.. أليس في قلبك شفقة على تلك الصغيرة؟

- يمين بالله لم يحدث أكثر مما قلتُ لسيادتك.. أنا لم أقتله.. صدقني لم أقتله.

لم أزد بحرف واحد.. انتفضتُ.. قبضتُ على كف الصغيرة أنزعها من رحابة صدره إلى ضيق الممر.. تحرك مهتاجًا خلفي لكن «الحمار» وزميليه منعاه من الخروج.. أظهر مقاومة وهو يصيح باسمها.. فانهالوا عليه ركلًا بأحذيتهم.. وكلما صرخ أكثر؛ أطعموه مذاق أحذيتهم.

ويا لسعادتهم .. إنها اللحظات الذهبية التي يشعرون فيها أنهم أعلى مقامًا من الحشرات.

***

كان «بيضة الديناصور» ينتظرني في المكتب والتوتر يحتشد في وجهه، قلتُ:

- «حاتم» أوصل ابنة الحارس إلى منزلها.

- «حازم» يا فندم.. سأجعل أحد العساكر يوصلها.. لكن يا فندم هناك خبر سيء.

أرخيتُ ظهر المقعد إلى الوراء قليلًا، قلتُ ساخرًا وأنا غير مستعد لسماع أي أخبار سيئة:

- هل اختفت السماء؟

- كلا يا فندم.. لكن في المعمل الجنائي.. وقعت جريمة.

حاز اهتمامي بالفعل، وجدتّ أصابعي طريقها لتشتبك فوق المكتب، سألتُ:

- أي جريمة؟

- الفنِّي الذي كان يشرف على فحص الأدلة التي جمعناها من مسرح جريمة «الكاتب الكبير».. قفز من شرفة المعمل ولقي حتفه في الحال.. ليست تلك هي المشكلة على الإطلاق.. المشكلة الأساسية هي أنه الفنِّي رقم اثنين.

- ماذا تقول؟!

- حقًا هذا ما حدث يا فندم.. الاثنان كانا يفحصان الأدلة.. والاثنان لقيا حتفيهما بالطريقة ذاتها.. القفز من مكان شاهق.. أحدهما من شرفة المعمل.. والآخر من سطحه.. و....

- تحدَّث.. وماذا؟

- كلاهما لحظة السقوط كانا يتمسكان بهاتفيهما المحمول.. تمامًا مثل «الكاتب الكبير»!

لقد باتتْ تلك القضية أكثر غرابة مما كنتُ أتوقع!

كنتُ في أمس الحاجة للاسترخاء.. إلى نسيان كل شيء عن «العلماء» وصمام الضمير، و«الكاتب الكبير»، والبحر الذي اختفى.

بعد قدومي بنصف ساعة إلى صالة البوكر انحنى «الفنان» صوبي قائلًا:

- هل تريد أن تسمع عن آخر أعمالي؟

قلتُ متفكهًا:

- بل أريد أن أعاينها بنفسي، ما رأيك أن تدعوني إلى منزلك؟

أطلق ضحكة لا مرح فيها، ثم استطرد:

- أترغب إلى هذا الحد في القضاء عليَّ؟

- كل ما في الأمر أنني سأزورك ثم أستدعيك لزيارتي في مديرية الأمن.. ألا يحرص الأصدقاء على زيارة بعضهم البعض؟

الصالة هادئة على غير العادة.. كنت لأظن أن حادثة انكماش البحر أصابتهم بالذعر فالتزموا بيوتهم.. لولا أنني أعرف كيف يفكر هؤلاء جيدًا.. البحر لم يكن يمثل لآبائهم وأجدادهم سوى مكان لصيد السمك والسباحة، والتبول، وإلقاء الفضلات، ولمَّا حميناه بعزله عنهم داخل جدران إسمنتية فقدوا صلتهم به.. نسوه.. فالمرء لا يهتم سوى بما تتمكن يده المُخربة من الوصول إليه..لا يهتم سوى بما يستطيع إفساده..

ولأنه كان بعيدًا عن أيديهم لم يهتموا بفقدانه..

بل وكأنهم فرحوا لفقدانه..

أخرجني من شرودي صوت «الفنان» الذي كان يتابع عدَّاد الوقت باهتمام:

- أوشكتْ الثلاث دقائق على الانتهاء.. وبعدها ستجد نفسك خارج الصالة.

نسيتُ في خضم أفكاري بأن المدة بين حديث وآخر يجب ألا تتجاوز الثلاث دقائق، قلتُ من باب أن شيئًا ما يجب أن يُقال:

- كنتُ أفكر في البحر.. انكمش لكن الحياة لا تزال تتمدد.. لم يتغير أي شيء على الإطلاق.. الإذاعة، التليفزيون، الصحف، لا تزال تخوض في التحليلات عن سبب انكماش البحر.. لكن الناس لا يبدو أنهم يُبالون بتلك الكارثة على الإطلاق.

- أي كارثة.. هل تمزح؟!.. إنه كنز قارون بالنسبة لهم.. رغم الحراسة المشددة التي وضعتها الدول الواقعة على حدود البحر المنكمش إلا أن الناس كل ساعة.. لا بل كل دقيقة.. يتمكنون من مغافلة الحُرَّاس واقتناص ثروات القاع التي تعرَّت من ردائها المائي.

أطلقتُ زفرة حانقة، قلتُ:

- أعرف.. أعرف..الوزارة على قدم وساق.. أُلقي القبض على الكثير منهم بالفعل، وتم التحفُّظ على المسروقات.. لا أعرف أين سنجد سجونًا تسع كل هؤلاء اللصوص.

- لصوص!

- لصوص بالطبع.. إن ثروات البلد حِكر على البلد.. لماذا نُطوق الشاطئ بالحراسة؟.. لنمنعهم من نهب هذه الثروات.. أي أن اقتناصها بغير رغبة منا.. سرقة.

- يا عزيزي، هذا هو مفهومك الخاص عن الأمر.. لذلك تدعوه بالسرقة.. أما البعض قد يكون لهم رؤية أخرى.

- أها.. ستقول لي الآن كلامًا تافهًا عن الشعب المقهور والسُلطات المستبدة التي تستحوذ على كل الخيرات لنفسها.

- لستُ ساذجًا إلى هذه الدرجة.. السُلطة القوية تستمد قوتها من ديكتاتوريتها.. ليكون هناك طرف قوي؛ يجب أن يوجد طرف ضعيف..لكن ما نتحدث عنه أمر مختلف.. فتلك الثروات لا تتمثل أهميتها في قيمتها المادية.. بل بما تحويه من «معلومات».. معلومات محفوظة داخل حفريات من عصور مضت، وسُفن غارقة، وهياكل أناس ابتلعهم البحر.. هذه «المعلومات» وقف لخدمة البشرية.. فلماذا لا يحق للناس الانتفاع بها؟.. هذا هو السؤال.

- وكيف ينتفع الناس بتلك «المعلومات» كما تدعوها؟.. هؤلاء لا يعرفون سوى لغة المال.

- ستفيدهم في الثأر.

- ثأر!.. أي ثأر؟.. آه.. ثأرهم معنا.

- بل ثأرهم مع أنفسهم.. هؤلاء فقدوا الثقة في كل شيء.. فقدوا الأمن في كل مكان.. وعندما يفقد الإنسان الثقة والأمان؛ فإنه يعتنق الثأر مذهبًا.. يثأر من كل شيء.. نفسه.. والآخرين.. جرائم بغير قطرة دماء لتفريغ مشاعر الإحباط والدونية والغضب.

- غريزة حيوانية إذن!.. جيد.. والحيوان يحتاج إلى سوط ليرتدع.

- العقول الثأرية قتلت ضمائرها.. والسوط لا يؤثر في إنسان مسلوب الضمير.. فقد الحدود الفاصلة بين الخطأ والصواب.. لا يؤثر في إنسان لا منتمي.. لا إلى الخير ولا إلى الشر.. يعيش بلا إرادة.. بلا إحساس.. كيف تستطيع أن تؤلم إنسانًا بلا إحساس؟

أتعلم لماذا لم يولوا حادثة انسحاب البحر اهتمامًا كافيًا؟.. لأنهم هم أنفسهم انسحبوا من الحياة!

صمتَ قليلًا ليلتقط أنفاسه ثم استطرد:

- هل ترى الناس كيف يسيرون في الشوارع بفوضى؟.. فوضى عقلية.. فوضى حسية.. فوضى مادية.. يمارسون الفوضى وكأنه لم يعد أي شيء يعنيهم.. وكأنهم يعيشون في بيئة عدمية لا نفع معها سوى صاعقة تتنزل عليهم من السماء فتبيدهم جميعًا.. وأنت تريدهم أن يغتمُّوا لانحسار البحر.. هل تمزح؟!

قلَّبتُ كلماته في عقلي لبضعة ثوان، ثم قلتُ:

- ألهذا السبب تشجع عمليات زراعة الضمير؟

- ولهذا تعارض أنت ومنظومتك تلك العمليات.. استئصال الضمير شرط أساسي لتحقيق استقرار النظم الفاسدة.. من يحتفظ بالضمير تحت جناحها معتوه.

قلتُ متفكهًا:

- خسارة.. نسينا أن نصنع مقبرة جماعية لدفن الضمير.

- لستم بحاجة إلى ذلك الآن.. الجنازة لن تقومَ إلا بعد موت آخر إنسان يمتلك ضميرًا حيًا.. ولأجل هذا اليوم ننتظر جميعًا.

قلتُ ضاحكًا:

- وآخر إنسان يمتلك ضميرًا حيًا هو أنت بالطبع.

انتقل المرح إلى نبرات صوته وقهقه قائلًا:

- ولما لا؟

- «عندما تتحدث العاهرة عن الشرف».

- لعلي تُبتُ.

- «إذا تابت البغي انقلبت قوَّادة».

اختار «بيضة الديناصور» تلك اللحظة ليضع لهذا الحوار نقطة تتمة.. إذ تصاعدتْ نغمة الهاتف فقطعتُها لأقول:

- تكلم.

أتاني صوته مضطربًا:

- «شاهق» باشا.. كارثة.. مصيبة.. لا أعرف كيف حدث ذلك.. إنه.. إن ما حدث.. لقد اختفت.. اختفت تمامًا.. بحثنا عنها في كل مكان.. لم نعثر عليها

- أنجز.. ما تلك التي اختفت؟

- الجثة.. اختفت جثة «الكاتب الكبير» من المشرحة.. ولم نعثر منها على شيء سوى.. سوى إصبع إبهامه!



(٨)

مولانا الشيخ «جو»

لم يعد «حصان طروادة» يخرج من بيته، لا إلى جريدته التي أهمل إدارتها للمرة الأولى منذ أن عمل بالصحافة، ولا إلى أي مكان آخر.

يمضي وقته في انتظار الأخبار التي تأتيه من مصادره الخاصة محمولة على أجنحة اللهفة، لكنها فشلت بجدارة في أن ترصد أي أخبار تتعلق بموت «الكاتب الكبير».. ثم ترقَّتْ في مراتب الفشل حتى عجزتْ عن الحصول على أي معلومة عن «الكاتب الكبير» في حياته.. وكأنه لم يُولد في هذه الحياة قط!

أوشكتِ اللوثة على الأخذ بعقله.. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟!

أتته براغيثه منذ قليل تقول:

- لم نعثر له على أثر.. وكأنه تبخَّر في الهواء.. لا لم يتبخر، لو تبخر لرصدنا شفرات بصمته الوراثية الـ AND الخاصة به بين ذرات الهواء.. لكن الحال أن لا أحد يعرفه.. لا أحد يتذكره.. أصبح والعدم سواء!

تساءل «حصان طروادة» في نفسه.. كيف يُمكن للإنسان أن يصير عدمًا؟!.. أن يتحول إلى اللاشيء؟!.. حتى أن اللاشيء يُعد شيئًا.. الفراغ يُعد شيئًا يمكن حساب مساحته وقياس درجة حرارته.. أما هو فصار فجأة أكثر عدمية من الفراغ.

عليه أن يتوقف.. عليه أن يكف عن دفع براغيثه في محاولات فاشلة لتأتيه بأخبار «الكاتب الكبير».. لا فائدة من إعادة إرسالهم مرات ومرات.. وهو وحده من يعلم أن كل مرة تُكلفه شعرة سواء من رأسه.. وتُحيلها إلى الأبيض الثلجي!

- لا شيء بغير ثمن يا بُني.

هذا ما كان يقوله دائمًا بائع الجرائد في كشكه الآيل للسقوط عند بداية الحارة التي كانت مرتعًا لطفولته وشبابه.. لم يسمح له بأخذ الجرائد والكتب إلى البيت.. لكن العجوز ذو القلب الأخضر يدعه يقرأ ما يشتهي فوق الرصيف المتكسر.. حتى يتكسر بدوره ظهره المتصلب من الألم.. فينهض بروية في وضع مائل من كثرة الجلوس.

لكن الثمن قديمًا كان مالاً يأتي ويذهب دون أن يفقد الإنسان شيئًا من ذاته.. أما الآن فالثمن الذي عليه أن يدفعه لبراغيثه أغلى من المال.. إنها أيام وشهور وسنوات من عمره.. يسمح لها بامتصاصها من جسده!

أربعون عامًا هذا ما تقوله الأوراق الرسمية والشعر الذي يسقيه بالصبغات.. أما هو وحده فيعرف بالحقيقة المرة.. أنه على أعتاب الستين.. بعد أن دفع لبراغيثه عشرين عامًا من المستقبل.. مقابل ما يأخذه من الماضي!

لكن من قال أن الشباب متعلقٌ بحسابات زمنية؟.. إنها حالة عقلية.. ومادام مؤمنًا أنه لا يزال شابًا في الأربعين.. بل في الثلاثين.. وحتى في العشرين.. إذن فهو كذلك!

وهذا هو سر العصور.. إنها لا تأتي ولا تذهب.. عقولنا هي من تُوجدها.

وما دام عليه أن يدفع سنوات من جسده.. فعليه أن يأخذ مقابلاً أفضل.. لا تكفيه أربعة وعشرون ساعة من الماضي.. يريد أكثر.. يريد أيامًا وشهورًا وسنوات مقابل ما يدفعه من عمره.

يريد أن يعرف عن عصور سحيقة.. عصور لم يسمع بها أحد ولم تُدون في كُتب التاريخ.. يريد أن يمتلك المعرفة.. يمتلك الحقيقة.. يمتلك الزمن!

ومن أجل ذلك يحبس نفسه ليلًا في الطابق العُلوي من بيته الفخم المكون من ثلاثة طوابق.. يعيش فيه وحيدًا.. يجري تجاربه وأبحاثه.. لن يهدأ له بال، ولن يفتر له حماس.. حتى يعثر على سر العصور.. التركيبة التي ستتفوق على براغيثه وتعيده إلى الماضي لأكَثر من أربع وعشرين ساعة!

لم تكن زيارته لمولانا الشيخ «جو» في هذا الوقت المتأخر من الليل بغريبة.. اعتاد «حصان طروادة» أن يمر عليه كلما ضاق بيته الفسيح بشطط أفكاره.. يستقبله مولانا الشيخ «جو» دومًا بالترحاب، فهو الصحفي الذي ذاع صيته في البلاد.. يبتهج لذلك، رغم علمه أنه أفّاق خبيث يستقبل كل مريديه بالترحيب ذاته!

غريبٌ هو كاسمه.. لا يشبه الشيوخ ولا القساوسة ولا الحاخامات.. ومع ذلك يُمثلهم جميعًا!.. له إجلال العلماء وهيبة الأباطرة.. تمتلئ جعبته بعِلم مثل البحر الذي تبخَّر. ترى مُبتدأه وتحسبه بلا مُنتهى.

يده المقدسة لم تمس شيئًا قط! منذ اللحظات الأولى لمولده ـــــ من حضروا ولادته يقولون أنها كانت سهلة بغير صرخة واحدة ـــــ لُفَّتْ يداه خلف ظهره لئلا تُدنسها الأغراض أو الأجساد، وهَبَ الناس أنفسهم لخدمته حتى اشتد عوده واخضر وأصبح هو خادمهم.

ملابسه عجيبة كاسمه، أسمالًا من الأخضر والأحمر والأزرق، يجاورهم لون شمس الظَهيرة، بغير تناسق واضح، لكن العين ما لبثَتْ أن ألِفَتْ الغريب.. وصار ارتداؤه للون واحد هو العجَب العُجاب.

يقولون أيضًا أن أحدًا لم يرَ مولانا الشيخ «جو» نائمًا قط! حتى وهو لا يزال يبلغ من العمر بضعة أشهر.. كان الأطفال في الشوارع والحارات يركنون إلى صدور أمهاتهم ويسبحون في حليبها وهدهداتها، بينما مولانا الشيخ «جو» كان متيقظًا كأشد ما تكون اليقظة، يرفض الحليب والهدهدات.. وُلِد كبيرًا كما يقولون!

هكذا سمع «حصان طروادة»، ولا يعرف بدقة صحة ما سمع.. لكنه يعرف أن مولانا الشيخ «جو» لم يمد له يدًا للمصافحةَ قط.. ولم يره يحمل كوبًا أو صحنًا.. حتى أنه لم يصادف لمرة واحدة –مع كثافة زياراته– أن رآه يأكل أو يشرب!

راودته فكرة وهو يجتاز عتبته ويدنو من مجلسه.. إن كان لا يأكل ولا يشرب فلا فضلات له، لا مُدخلات ولا مُخرجات في جسده.. فكيف يبقى على قيد الحياة إذن؟!..وكأنه يقتات على خدمة الناس، فتكفيه مؤنة الطعام والشراب.

***

هشَّ مولانا الشيخ «جو» لمرأى مريده الوفي وتلميذه النجيب.. وابتدره قائلًا:

- ابحث في جعبتي عما تريد.. أو قل عنوان موضوعك.

وكانت تلك هي عبارته الأثيرة.. فأجابه «حصان طروادة» في ضيق ظاهر:

- موضوعي تعرفه جيدًا يا مولانا.. أخبرتك به آلاف المرات.. كل الطرق التي سرتُ فيها كانت نهايتها فشلًا مريرًا.. سئمتُ المحاولات، سئمتُ البحث.. هل تفهمني؟

- إذن لا زلتَ تبحث عن طريقة للارتحال عبر الزمن إلى الماضي السحيق.

- نعم، لا زلتُ.. لكن بغير نتيجة.

ثم تلفَّت يُمنة ويُسرة رغم علمه أن لا أحد يجرؤ على أن يتنصتَ على حديثه مع مولانا الشيخ «جو» في صومعته الخاصة، ثم قال:

- يا مولانا فعلتُ بالبراغيث الزرقاء كما نصحتني في المرة السابقة.. أتيتُ بعشرة منها ووضعتهم في قدر كبير على نار متوسطة الحرارة، ثم أضفتُ إليهم بضع قطراتٍ من ماء اليقطين، وحبة خردل، وورقتين من شجرة «أجكال» المُهددة بالانقراض.. والتي لا تنمو إلا في «المغرب».. لا تعرف يا مولانا كم استغرقتُ من وقت وجهد ومال حتى أستطيع الحصول على ورقتين منها.

ثم توقف لبرهة وكأنه ينفض عن ذهنه ذكريات رحلته الشاقة، ثم أردف:

- المهم أنني حصلتُ عليها.. ثم أضفتُ إلى الخليط رماد جثة محترقة -ولا داعي لأوضح لك كيف حصلت عليها- ومسحوق صورة قديمة، وحفنة من الرمال عمرها مائة وخمسون عامًا.. وما إن نضج الخليط حتى طحنته.. وأطعمته للبراغيث الزرقاء.. لكن لم يحدث أي تغيير على الإطلاق.. لا زالتِ البراغيث تأتيني بما حدث قبل أربع وعشرين ساعة فحسب.. لا أكثر من ذلك دقيقة واحدة ولا أقل.. أخبرني بربك -الذي تؤمن به- لماذا لم تنجح وصفتك؟

- نسيتَ أهم شيء في الوصفة.

- وما هو يا مولانا؟

- قطرة من ماء البحر الأبيض المتوسط.

- نعم، أعرف.. لكنني لم أستطع أن أحصل عليها.. ألا تعرف يا مولانا ما حدث للبحر؟.. لم يعد له وجود.

أخبرَه وهو العالمِ بأحوال الموج؛ فأجيبه:

- بل لا تزال أرض قاعه رطبة متشبعة بمائه.

- نعم، أعرف، لكن يا مولانا الحراسة مشددة.. حراسة دولية على قاع البحر وكأنه كنز أثري.. ها؟

- لن تنجح الوصفة بدون قطرة الماء.

- بإمكاني أن آتي بمئات اللترات من البحر الأحمر.. ها؟

- بل البحر المتوسط.

- أو البحر الميت.. ها؟

- بل البحر المتوسط.

- أو البحر الأسود.. ها؟

- بل البحر المتوسط.

أسقط في يده. كانت الإضاءة لا تزال محافظة على قوتها، لا يعرف معها إن كان الوقت ليلًا أم نهارًا.

فجأة اقتحم الصومعة طفلان لا يتعدى كبيرهما تسعة شتاءات.. أما الآخر يصغره بشتاءين أو يزيد.. يُمسك كل منهما بتلابيب الآخر، يطالبان مولانا الشيخ «جو» أن يكون لخلافهما حكمًا، قال كبيرهما:

- مولانا الشيخ «جو».. هذا الصغير جاهل.. ويجهل أنه جاهل.. أريدك أن تريه كم هو أحمق.. اتفقنا؟

ردَّ مولانا:

- توقف.. التقط أنفاسك.. رتب أفكارك.. قل جملة مفيدة لأستطيع أن أفهمك.

قاطعهما الأصغر عمرًا ملقيًا بسؤاله:

- لمن هي «مريم العذراء»؟.. من الأحق بها؟.. يقول «إبراهيم» أنها لهم.. وأقول أنها لنا.

يسأله «حصان طروادة» بفضول:

- ومن أنت؟

يُجيبه الفتى بإباء:

- «بولا» ابن الأب «يوحنا».

بدتّ أمارات السماحة على مولانا وهو يقول بوقار:

- وأنا الذي حسبتُ أنكما جئتماني في كبير.. اقترب يا «إبراهيم».

فدنا منه رويدًا، وجلس عند قدميه يرهف سمعه بحماس شديد، قال مولانا:

- السيدة «مريم» ابنة عمران، أم نبي كريم.. ولك منها مثل ما للأرض من نجوم السماء.. النور والبِشارة.

فتهلل وجه «إبراهيم»، وامتقع وجه «بولا»! ثم التفتَ «إبراهيم» يرشق نظرات الشماتة في وجه رفيقه، لكن ما لبث أن بادرهم مولانا:

- اقترب يا «بولا».

فأقبل عليه بشغف، وإن كان في نظراته بعض التكسرات، قال مولانا:

- القديسة «مريم» أم «يسوع» .. هي الرابطة بين الفردوس المفقود والفردوس المردود.. ولك منها البركة والشفاعة.

فتهلل وجه «بولا»، وامتقع وجه «إبراهيم»! ثم التفتَ الاثنان يرمقان بعضهما بنظرات الحيرة، نفذ سهم الجرأة في قلب كبيرهما فهتف:

- كيف يا مولانا؟!.. أتقول أن كلانا أحق بها.. هذا مستحيل.. اختر واحدًا.. إما أنا أو «بولا».

- إن كنت لا تريد أن تؤمن بغير ما تعرف فلماذا جئت إليّ بالسؤال إذن؟!.. ألم يخبروك في المدرسة كيف تغرب الشمس من نصف العالم وتشرق على نصفه الآخر؟!.. فهل الشمس موجودة أم غير موجودة؟

إنها موجودة وغير موجودة في نفس الوقت.. وكذلك كل ما تؤمن به يا صغيري.. هو موجود في قناعاتك أنت كأشد ما تكون شمس الظهيرة وضوحًا.. وغير موجود في قناعات غيرك.

صمتَ للحظات تاركًا لعقل الصغيرين الفرصة لاستيعاب كلماته، ثم استطرد:

- تعدد العقائد والانتماءات مثل الضوء عندما يسقط على منشور زجاجي فينقسم إلى ألوان طيف.. ترى الفئة الواقعة في نطاق اللون الأزرق كل شيء باللون الأزرق، وترى الفئة الواقعة في نطاق اللون الأخضر كل شيء باللون الأخضر.. ولا ترى فئة بقية الألوان الأخرى طالما تقع في طبقة ضوئية مختلفة عنها.

لم يثق «حصان طروادة» كثيرًا في أن الصغيرين فهما كلمات مولانا كل الفهم، وكانت تلك من عادات مولانا، أن يتحدث بأكثر من طريقة علَّ إحداها تُصيب فهم السائل.. لكن أحدهما لم يبد اعتراضًا، بل سأله صغيرهما:

- في أي لون تقع أنت يا مولانا؟

بدت على مولانا البهجة لسؤاله، وكأنه كان ينتظر منذ وقت طويل أن يهتم أحد مريديه بالسؤال عن شخصه؛ قال بكثير من الحزم والجدة:

- أنا المنشور!

استطالتْ حبال الصمت بعد كلمته، لم يجرؤ أحد على قطعها، لكن «حصان طروادة» رغمًا عنه أخذ يفكر في أن المنشور الزجاجي يسهل كسره، فلماذا شبه مولانا الشيخ «جو» نفسه بالمنشور؟!.. ثم التفتَ يرمق الصبيين المغادرين؛ فقرأ على وجهيهما أنهما فارقا الصومعة مقتنعين جدًا، وغير مقتنعين أبدًا!

انتظر مولانا أن يستكمل «حصان طروادة» حديثه عن القطرات التي تنقص وصفته السحرية، التي ستأتي له بأخبار السابقين.. لكنه عدَل عن ذلك وسأله:

- «الكاتب الكبير».. ماذا تعرف عنه يا مولانا؟

استبدّتْ به دهشة حقيقية وهو يقول:

- «الكاتب الكبير»!.. لا أعرفه.
- ماذا؟.. كيف؟!.. كيف لا تعرفه يا مولانا؟.. إنه «الكاتب الكبير» الذي يعرفه الجميع، والذي لقى حتفه الليلة الماضية.
- لا أعرفه.
- يا مولانا فكر قليلًا.. حتمًا تعرفه.. لا يُعقل ألا تعرفه.. ها؟
- لا أعرفه.
- يا مولانا.. ها؟
- لا أعرفه.

طال بهما الصمت، تكاد تُذهب الدهشة بعقل «حصان طروادة».. ردد وكأنه يهذي:

- كيف؟!

قال مولانا:

- تتقصَّى أخباره .. يبدو أنك حزنت لموته.

بدت كلماته تقريرية لا على سبيل السؤال، فمولانا يُسأل ولا يَسأل!

- لم أحزن ولم أهتم.. لكن اللعين كتب رواية عن اختفاء البحر المتوسط.. ها؟

- يبدو أنك تظن أن لذلك علاقة بشيء ما.

- بل لعل له علاقة بكل شيء!.. لكن ما لا أفهمه هو كيف تجهل من هو «الكاتب الكبير»؟

- عرّفني عليه إذن.

لم يفعل، كان عقله منشغل بالتفكير في براغيثه، يبدو أنها كانت على حق عندما أخبرته أن آثار «الكاتب الكبير» مُحيت كما لو لم يوجد قط، ليس جثته فحسب، بل كل شيء يتعلق بحقيقة وجوده في هذه الحياة، حتى أن مولانا نفسه يزعم أنه لا يعرفه!

وهذا يقوده إلى حقيقة من اثنتين: إما أن براغيثه على حق، أو أن مولانا يلعب معه لعبة سخيفةَ.. وكلا الأمرين مُخيف.

لا يزال يجهل التوقيت، فصومعة مولانا تخلو من الساعات، إنتبه إلى أنه كان يسمع صوت الجنادب والصراصير عند قدومه، إذ أن من عاداتها أن تنشط بالغناء ليلًا، أما الآن فلا يُسمع إلا صوت ديكين يتباريان من منهما الأقبح صوتًا.. قبل مغادرته قال لمولانا:

- قلتَ لي يومًا أن العلامة الأولى من نهاية العالم هي اختفاء البحر المتوسط، فما هي العلامة الثانية؟!

لم يُجِبه بالكلمات، بل أظهر له صورًا عبَّأتْ قلبه بالفزع!

صورًا وكأنها ترصد يوم القيامة.. القيامة الكبرى!

قتلى.. دماء.. صرعَى.. دمار.. وقد خلا العالم كله من الأحياء!

عندما فارق الصومعة وسار في الطريق يختلط بالناس، تبدَّى له كل ما حوله وقد تحوَّل إلى كُتل ضبابية..

لكنه سمع صراخ امرأة من اليمين تستنجد بمن يزود عن عِرضها، وطفل يبكي في اليسار يحاول النجاة من قبضة رجل غليظ يختطفه، ومن الأعلى صراع بين زوجين بآلات معدنية تقطع اللحم وتسحق العظم.. وحدها بطن الأرض هي الخالية من الأصوات..

أخذ يتحرك فوقها ببطء.. ببطء شديد!



(٩)

في أثر الظل.

«أسمر»

رخصك وبطاقة هويتك!

كنتُ أؤمن في صغري أن الشيء إذا تجاهلتُ النظر إليه يختفي، فعلتُها عندما دخلت مديرة المدرسة إلى الفصل تجرجر خلفها أرطالًا من الدهون لتسأل عن الطفل الوحيد الذي لم يدفع مصاريف المدرسة، تحركتْ عيناي بجنون في كل اتجاه، إلا الحيز الذي تحتله أرطال دهونها من الفراغ.. وفجأة خرجتْ من الفصل.. كأنها لم ترَني قط!

وها أنا الآن أحاول أن أقوم مجددًا بحيلتي في الاختفاء. تجاهلتُ الضابط الواقف بجواري وطلبه بأن أخرج رخصة القيادة وبطاقة هويتي.. لم يكرر طلبه، لم يزد عما قال بكلمة واحدة، فظننتُ أنه اختفى حقًا.

لكنني فجأة وجدتُ نفسي مدفوعًا بقوة الجذب إلى الخروج من السيارة، ثم بقوة الدفع إلى الالتصاق في سطحها، بينما أربع أو ست أياد يفتشون كل ذرة من جسدي تفتيشًا ذاتيًا.. حتى ظننتُ أحدهم سيقولُ لي:

- أبعِد طُحالك قليلًا كي أرى ما خلفه!

لم يجدوا شيئًا بحوزتي يدينني، كل الإدانة كانت هناك فوق صفحة وجهي.. نظرة واحدة إليها تكفي ليعرف أحدهم أنني في مرحلة متأخرة من «أنفلونزا الضمير».. رغم أنني لم أخضع للجراحة قط.

- ماذا تعرف عن «العلماء»؟.. هل لك علاقة بأحدهم؟.. هل سبق وأن رأيتَ واحدًا منهم؟

ما إن انهالت فوق رأسي أسئلة الضابط حتى أيقنتُ أنني هالك.. سيجرونني إلى السجن ويتركونني بداخله حتى أتعفن.. ولن يسأل عني أحد.. لن يفتقد وجودي أحد.. كلا، سيفتقدني «شاهق»، سينقذني، سيجعل كل شيء يعود جميلًا.

أفلتُّ كلماتي بصعوبة، بينما الركلات تنال من جسدي خلف أحد الأبنية:

- «شا...».. «شاه...».. «شاهق».. أنا «شاهق».. صديقه.. «شاااهق» باشاا صديقي.

أعتقد أن نصف عدد الأقدام تجَّد وقتها.. كانت هناك مباحثات دائرة بشأن ما يجب أن يفعلوه معي، وأخيرًا قرر أحدهم الاستماع لصوت العقل واتصل بـ «شاهق» ليتأكد من صحة مزاعمي.. كانت أطول فترة انتظار في حياتي.. ثم عاد ليأمر زملاءه:

- إنه يقول الصدق، «شاهق» باشا يقول اتركوه ليعود إلى بيته.

«شاهق» يا لكَ من صديق.

قبل أن أنهض عن الأرض أفرغتُ فمي من بصقة دم، امتزجتْ بالتراب، ثم صنعتُ بسبابَتي وإبهامَي شكل مربع لكادر تصوير.. والتقطتُ لوجوههم الغافلة عشرات الصور.

الحمد لله لم أحتج إلى معاونة أحد أثناء صعودي درجات السلم المؤدية إلى البيت، علمًا بأنني حتى وإن احتجتُ فقلما أجد شخصًا يقبل أن يكون عكازًا لغيره. لم أتأفف من البيت الخالي، هذه المرة غبطتُ خلوَّه

من أسئلة «ماذا حدث؟».. و«كيف حدث؟».. و«لماذا حدث؟».. الشرح أصعب من المُعايشة، ولا تنجح الكلمات أبدًا في الشرح..بعكس الصور.

رفيق السكن لا يزال حيًا، يمرح داخل البرطمان الزجاجي، أو لعله يُصارع للخروج منه، لا أفهم كثيرًا في نفسية البراغيث، لم يأكل البرغوث الميت، وكذلك أظن أنه لم يقضم من عود الجرجير الذابل، أو لعله أكل قضمات صغيرة.. من يعرف؟!

ألا يشرب البرغوث؟.. تبًا لذلك، بالتأكيد يحتاج إلى الماء كحاجته للطعام والهواء، حتى وإن كان برغوثا أزرق أملس الجسد، نزعتُ غطاء زجاجة المياه البلاستيكية التي كانت في الأساس زجاجة مياه غازية.. وضعتُ بها الماء ثم وضعتها داخل البرطمان بحرص، وأغلقت بسرعة المنفذ الوحيد للهرب.

لم يعرف أي من جيراني فصيلة هذا البرغوث، لم يتركوا لي أي ملاحظة على صورته فوق الجدران.. بئس ذلك، كيف سأدفع إيجاري المتأخر؟!

وكأن صاحب البيت «شلبي سليم الفخراني» سمع ما يدور في رأسي، طرق الباب ثلاثًا، أعرفه طرقته المميزة والتي تكاد تنتزع الباب من موضعه، ماذا سأقول له عن صورة «الكاتب الكبير» والتي ينتظر أن يجني من ورائها إيجاره المتأخر؟!

ما إن فتحتُ الباب حتى هبَّتِ العاصفة:

- أين أموالي؟!

لا أستطيع أن أخبره بالحقيقة، يجب أن أكذب، لابد أن أكذب:

- نعم، بالطبع أنت ستسألني عن الصورة.. الصورة في الحفظ والصون بالطبع.. وقريبًا جدًا....

سقطتْ قبضته فوق الباب المسكين فارتد مصطدمًا بالجدار، ثم صاح -الرجل لا الجدار-:

- أي صورة؟!

ثم قهقه ضاحكًا:

- آه تقصد الصورة التي أعطيتها لصديقك الشرطي.. كلا لم يعد يهمني أمرها.

لا بد أنني نظرتُ له في بلاهة، كيف عرف أنني أعطيت الصورة لـ «شاهق»؟.. والأغرب لماذا لم يغضب؟

لم يتركني أتساءل طويلًا. دفع الباب وهجم على الصالة، قرَّب وجهه من وجهي وقال بصوت أسرى القشعريرة في جسدي:

- أعرف ما فعلتَ، إياك أن تنكر.

- فعلتُ ماذا؟.. أنكر ماذا؟

- يا خبيث.. أعرف أنك قتلت «الكاتب الكبير» واحتفظتَ بساعته كتذكار.

ارتعدتْ فرائصي، صحتُ:

- هل جننت يا رجل؟.. لم أقتل أحدًا.. ولم أحتفظ بأي تذكار.

دون دعوة هجم على غرفة النوم، قلَّبها رأسًا على عقب تحت نظراتي الذاهلة، لا أقوى على التحرك خطوة واحدة لأمنعه من العبث بأغراضي.. لكن ما جمَّد الدماء في عروقي هو الساعة التي عثر عليها تحت وسادتي.. ساعة فضية كبيرة أراها للمرة الأولى في حياتي.

دنا مني وقال بصوت كالفحيح:

- راقبتك ليلتها، رأيتُ كل شيء بأم عيني.. لحقتُ بك كي أتأكد من نجاحك في التقاط صورته.. فرأيتُك تقف بجوار سيارتك وتلتقط له صور عبر هاتفك.. لابد أن المساحة الداخلية لكاميرتك كانت قد امتلأت وقتها.. لم يسقط «الكاتب الكبير» في تلك اللحظة.. لكنك دنوتَ من الشجرة.. تسلقتَها.. ورأيتُكَ تقفز إلى مكتبه عبر النافذة.. ثار واحتد واقترب كي يُمسك باللص الذي اقتحم عليه بيته.. لكنك دفعته صوب النافذة.. كنتُ أراكما بوضوح تحت ضوء القمر.. دفعته أكثر فأكثر.. حتى اعتلى النافذة.. فدفعته دفعة أخيرة أسقطته نحو الأرض بعد أن أجبرته على نزع ساعة معصمه.. ثم قفزتَ إلى الشجرة، ومنها إلى الأرض وألقيتَ بجسدك جواره متظاهرًا بفقدان الوعي.

كان قلبي يتقافز في جنون، ودمائي تثور رفضًا لكل ما قيل، صحتُ منفعلًا:

- لم أقتله.. لم أتظاهر بفقدان الوعي.. أحدهم ضربني.. انظر.. انظر.

بانفعال صارخ أزحتُ الضمادة عن مؤخرة رأسي لأريه آثار الجرح.

لكنه استطرد بثقة:

- رأيتُ كل شيء فلا تكذب.. أنت قتلته، ثم التقطتَ له صورة بهاتفك من نافذة مكتبه.

اقتلع الهاتف من يدي. كنت أعرف أنه سيعثر على الصورة بداخله.. الصورة التي لا أذكر متي التقطتٌ ولا كيف.

هل يمكن أن يكون على حق.. هل أنا قاتل «الكاتب الكبير»؟.. كيف ولماذا.. أمِن أجل هذه الساعة اللعينة فحسب؟!

سحقتُ الساعة بين أصابعي في غيظ، كنتُ أرتجف، أرتجف بشدة.. دنا مني.. نفرتُ منه، فقال بإشفاق لم أصدقه:

- لا تقلق سرك معي في بئر ليس له نهاية.

كيف لا أقلق، بل كيف لا أفزع وحامي سِرِّي هو الشخص الوحيد الذي لا أثق بطمعه وجشعه. كان بداخلي عاصفة قادرة على أن تقضي على الأخضر واليابس.. وقبل أن يدور على أعقابه عائدًا إلى شقته تطلع إلى وجهي قائلًا:

- هناك أمر ما أريدك أن تساعدني فيه.. يعني بما أنك مصور وتفهم في الصور.

هل كان في صوته تهديدًا إن لم ألبي له رغباته من الآن فصاعدًا؟!.. هل ينتوي أن يتخذ مني خادمًا بغير أجر مقابل حفظه للسر؟.. لا أعرف.. لكنني لم أكن معتوهًا لأتأخر عن تلبية مطلب الرجل، حتى وإن قال اقفز من السطح إلى العمارة المجاورة فسأفعل صاغرًا.. لكنه قال شيئًا أكثر بساطة:

- صوت النهر يزعجني كثيرًا، ولا أعرف كيف أُسكته.

هل قال «النهر» أم «الهِر».. لستُ واثقًا.. أم لعله قال «المُهر»!.. شقته حجرتان وصالة، لا تتسع نَهرًا ولا مُهرًا.. لكنها بالتأكيد تكفي لـ «هر»، خاصة أنه يعيش بمفرده منذ أن وعيتُ عليه، لكن الغريب هو أنني لم أسمع مواءً مزعجًا لدرجة أن يشتكي الرجل، ثم كيف ينتظر مني أن أسكتَ قطته؟!.. لا أعرف، لكنني بالطبع قلتُ:

- سأفعل.

لشقته رائحة مطاط نصف محترق، رغم أن بها نافذة وشرفة مثل ما لشقتي بالضبط إذ أنهما في الطابق نفسه، لكن يبدو أنه لا يحب فتحهما أبدًا.. قلتُ متعجلًا للانصراف لا للمهمة نفسها:

- أين القِط؟

- أي قطٍ؟

- أي قِطٍ؟.. قِطك.

- ومن أتى على ذكر أن لي قِطًا؟!

- أنت.. الآن.. أي منذ قليل.. قلتَ أن آتي لأُسكت الهِر.

- لم أقل الهِر، بل النهر.

- النهر!

لو كنتُ لا أعرفه جيدًا لقلتُ أن الخمر أخلَّتْ باتزانه، أو أنه تعاطى مُخدرًا ما أتى على البقية الباقية من تحضُّره، لكنه أبخل كثيرًا من أن ينفق أمواله على هذه الأشياء.. أي نهر إذن؟.. جاء الجواب، ويا ليته لم يأتِ!

أشار إلى صورة تتوسط جدار غرفة نومه، تقع مباشرة فوق السرير النحاسي الكبير، ثم قال:

- هذا هو النهر الذي أحدثك عنه.. كان صامتًا.. دومًا كان صامتًا.. لكنه لم يعد كذلك.. الليلة الماضية لم أستطع النوم بسبب هديره المحموم.

وكان هذا أكبر من قدرتي على مداراته، قلتُ:

- لكن يا عم «شلبي سليم الفخراني» كيف لهذا النهر أن يزعج نومك، إنه مجرد ألوان في لوحة جِدارية.

انتفختْ أوداجه، زمجر:

- أتُكذِّبني؟

- حاش لله، بالطبع لا أفعل.. ولكن.. يعني.. كيف أُسكته؟

- إن كنتُ أعرف كيف أُسكته هل كنتُ سأسألك يا غبي؟

- كلا، أنت على حق.

المشكلات غير المنطقية يجب أن تعالجها حلول غير منطقية. بغتة هداني عقلي إلى أن أدير اللوحة لتواجه الجدار، ثم طفتُ بوجهه أترقَّب ردة فعله، انتفختِ أوداجه لكن فرحًا هذه المرة، ربتَ كتفي هاتفًا:

- أنت حقًا مصور محترف، أحسنتَ يا «أسمر».

لم أصدق أن اليوم مر في سلام، عدتُ إلى شقتي واندسستُ أسفل الغطاء، كي أُنهي الليلة قبل أن تُنهيني.

لا يمثل النوم في مُعتقدي حالة سلبية من اللاوعي، بل مكانًا فوق العالم المعروف، ذا قوانين خاصة، أسافر إليه وقت الحاجة ليمنح مشكلاتي حلولًا استثنائية.. سفر حُر لا يحتاج إلى مال أو تأشيرة أو إذن بالمغادرة.

إنه المكان الخاص جدًا الذي سافر إليه العلماء والفنانون والعباقرة في أوقات الإحباط، ليعودوا بالحلول والأفكار والنظريات.

فقط العقبة الوحيدة في طريقي كانت أن نومي خال من الأحلام!

أما الآن فسار أمامي عقبة أشد.. وهي أنني لا أنام!

ليلتين متواصلتين لم يغمض فيها جفني لدقيقة واحدة، وكأنها لعنة أصابتني منذ تلك اللحظة الملعونة التي قررتُ فيها تصوير «الكاتب الكبير».

كيف لي أن أجد إجابات لكل هذا الكم من إشارات الاستفهام التي تلاحقني منذ تلك الليلة؟!

يزعم أنه رآني وأنا أدفعه من النافذة والدليل أن الساعة والصورة بحوزتي.. «شاهق» يقول أن أحدًا لم يدخل الفيلا أو يخرج منها باستثنائي والحارس.. الكاميرات مُعطَّلة.. الدافع مجهول.. السلاح يد غاشمة.

رفعتُ يدي بمحاذاة وجهي.. هل أرى فيهما آثار دماء أم أن عقلي أصابته لوثة الذنب.

زرعتُ الغرفة مجيئًا وذهابًا.. لا يمكنني أن أقتل حشرة فكيف لي بقتل رجل؟

ومن أجل هذا الشيء اللعين.. قلَّبتُ الساعة بين أصابعي، حتى ولو كان ثمنها مئات الآلاف من الجنيهات لا تستحق أن تكون مقابلًا لحياة إنسان.

أنا لستُ ذلك القاتل.

أنا لا يمكنني أن أكون قاتلًا.

أعجز عن النوم.. عن التفكير.

لعل السر يكمن في المعدة، كما كان يُعتقد قديمًا من أن الأبخرة الدافئة التي تنتج عن عملية الهضم تُسبب النُعاس، إذا كان الأمر كذلك فأنا مدين لنفسي بوجبة دسمة بعد يومين من أكل الفتات.

لم أحتج إلى ارتداء ملابسي إذ لم أنزعها عني في الأساس، وبحذر لصوص المنازل أغلقتُ باب الشقة ونزلتُ درجات السلم الرخامي.. كيلا أوقظ «شلبي سليم الفخراني» من نومه.

كانت صورة البرغوث لا تزال في موضعها فوق الجدران.. وبجوارها مئات الصور الأخرى تتداخل فيما بينهما.

فجأة..

سمعتُ جلبة فالتفتُّ أستطلع من يكون ذاك الذي أضناه النوم مثلي.. فرأيتُ أعجب مشهد وقعت عليه عيناي.. أحد الساكنين في العمارة المقابلة يتسلق سلمًا خشبيًا ليدق فوق جدار بيته عدة صور.. بينما شخص آخر يتسلق سلمًا آخر ويضع بضعة صور على جدار العمارة نفسه..

يبدو أنهما يعيشان في شقتين متقابلين، وكل منهما أراد أن يُزين جدار شقته من الخارج بصوره.. يبدو أن فكرة معرض الصور الخاصة بي قد نالت إعجابهما.

لكن ما جعل العديد من الناس يتجمهرون تباعًا أسفل العمارة هو أن الرجلين كانا يتباريان في وضع الصور..

يضع الأول صورة تكشف عن ساق زوجته.. ولم أحتج سؤال شيخ الحارة لأن أعرف أنها زوجته.. لأنه تكفل بالمهمة وكتبَ فوق الصورة أنها لزوجته..

فيرد عليه الآخر بصورة لنفسه وهو يرتدي مَريلة مطبخ مبهرجة الألوان..

وما إن ضحك الناس إعجابًا بها حتى رد عليه الأول بصورة تكشف الساقين معًا.. فهلل الناس لها

زاد الثاني بصورة له وهو يضع سكّاتة رُضَّع في فمه.. فهلل الناس أكثر

رد الأول بصورة تكشف الساقين والذراعين.. فصفق الناس في جزل

زاد الثاني بصورة له عاري الجذع.. مرتديًا حفاضة حول وسطه.. فتعاظمتْ ضحكات الناس..

رد الأول بصورة وقفتْ الجموع الغفيرة حائلًا بيني وبينها فلم أرَها.. فجن الناس!

رد الأول..

وزاد الثاني..

وزاد الأول..

ورد الثاني..

ولم أفارقهم إلا وقد اكتسى جدار البيت كله بالصور..

مضيتُ أتساءل، أيهما أكثر صعوبة، زراعة الضمائر، أم استئصال الجهل؟

***

سألني أحد جيراني:

- لماذا تبدو أصغر حجمًا؟

يبدو أنني نظرتُ له ببلاهة، لأنه لوَّح بيده بنفاد صبر ثم انصرف. درتُ على أعقابي عائدًا إلى شقتي.. وقفتُ أمام المرآة أتأمل جسدي وطول قامتي.. لا أعرف إن كانت أفكار الآخرين تنتقل إليّ بالإيحاء أم ماذا.. لكنني رأيتُ نفسي بالفعل أصغر حجمًا.. ليس بشكل كبير ، فقط بضع سنتيمترات طولًا وعرضًا.

كلا.. الرجل يخرف، وعدم النوم هو السبب في تصديقي لهذيانه. أين مادة النوم التي يكونها جسدي أثناء النهار ثم يفرزها في الليل، لماذا توقف عن تكوينها وإفرازها؟.. أين الشلل الذي يصيب الخلايا ليلًا فتسقط فريسة لقبضة النوم، لماذا تستمر في نشاطها المحموم؟!

تحركتْ يدي صوب هاتفي بمعزل عن إرادتي الحُرة، مُسيّرة برغبتها الخاصة، أخرجتْ نسخة من الصورة التي أعطيتها لـ «شاهق»، والتي تُظهرني أسفل النافذة و«الكاتب الكبير» يوجِّه صرخاته صوب السماء.

هذه المرة ركّزتُ أنظاري على الظل الذي يراه «شاهق» عائدًا إلى جسد بشري يقف خلفه، بينما أظن أنه ظلّ جماد غفل عن ملاحظته أثناء فحص مسرح الجريمة.

لكن لماذا لا يكون ظلًا لرجل؟.. للقاتل على وجه الخصوص؟.. لماذا أقاوم هذه الفرضية دافعًا بنفسي في منتصف دائرة الاشتباه؟

حاولتُ أن أركز أكثر مفصلًا من الظل رأسًا وجسدًا وذراعًا، شيئًا يشبه الإنسان. وكلما حاولتُ أكثر بدأتْ الرؤية تتضح أكثر. فشيئًا بدا

الجسد واضحًا، حتى لأكاد أرى تفاصيل أنفه وبروز وجنتيه وبعض الشعيرات النافرة من مقدمة رأسه!

نعم إنه رجُل.. القاتل.

و«شلبي سليم الفخراني» ليس أكثر من جشع حقير يحاول إقناعي بأنني القاتل عن طريق دس الأدلة في بيتي وهاتفي.

ماذا أصدق؟.. صورتي عن نفسي، أم صورة الآخرين عني؟

كان هذا السؤال هو اختباري الحقيقي.

يجب أن أبحث عن صاحب الظل لأثبت أنه موجود.. فتنفك عني لعنة «قابيل».



(١٠)

وِسام الذُبابة

«شاهق»

العالَم لا يُقدَّر بما يحويه من موجودات، إن قيمته تشمل أيضًا ما لا يحويه، الأشياء النادرة، الغائبة، المختفية.. لأنها تمنحه خيارات مختلفة، وطموحات مُغايرة. فالعالَم الذي تندر فيه الكهرباء يظل شاغله والمحرك لاقتصاده وسياساته هي الكهرباء، والعالم الذي تندر فيه المياه يخضع لسُلطة المياه، هي التي تُقرر من الغني ومن الفقير، من يعيش ومن يموت.

أما العالَم الذي تختفي فيه جثة «الكاتب الكبير» تُصبح سُلطة الثواب والعقاب رهن العثور عليها، أعرف جيدًا أن سُلطاتي وعلاقاتي وعلو شأن الشافعين لي لا يُمكنهم مجتمعين إنقاذي من عقاب ضياع الجثة!

لم يخبر «بيضة الديناصور» أحدًا غيري، لا زال السر حبيس المشرحة حتى هذه اللحظة، ليس إلى وقت طويل على أي حال؛ فلن يلبث الخبر أن يتسرب عبر شقوق الحوائط إلى الخارج، لن يقوى ملاطها على ردعه. أدرتُ في عقلي مرة أخرى كلماته التي استقبلني بها:

- الجثة اختفت يا فندم، عامل المشرحة هو أول مَن اكتشف الأمر أثناء ورديته المسائية، كان متأكدًا من أنه تفحصها جيدًا بعد انتهاء طبيب المشرحة من عمله، غطَّاها بالملاءة وتركها فوق طاولة التشريح منتظرًا عودة الطبيب مرة أخرى لاستكمال عمله، لكنه لمح الغطاء بطرف عينيه يتحرك حركة خفيفة، فاشتد به الهلع، دنا من الطاولة يقاوم مخاوفه، فلا يُمكن للجثث أن تختفي من فوق طاولات التشريح بينما العامل يحرس الباب الوحيد المؤدي إلى خارج المشرحة، لكنه

اكتشف اختفاءها تمامًا، إلا من إصبع الإبهام!.. صاح بفزع حتى انتبه أحد العاملين، والذي قام بالاتصال بنا على الفور، وبدوري قمتُ بالاتصال بسيادتك يا «شاهق» باشا.

طفتُ دورتين حول طاولة التشريح الخالية إلا من إصبع الإبهام!.. من يسرق جثة ويترك إبهامها؟.. أين الجثة؟.. أين عامل المشرحة؟.. لا أحد يعرف، انشقتِ الأرض وابتلعتهما.

لكنها لم تغلق فمها بعدُ؛ تنتظر حتى تبتلعني في أحشائها، هذه النهاية أفضل من العقاب الذي سيطالني عند انتشار خبر اختفاء الجثة.

بدا وكأن دهرًا طويلًا قد مر قبل أن أعاود الحديث مع «بيضة الديناصور» مرة أخرى:

- «حاتم»....

- «حازم» يا فندم.

- هل توجد صلة ما تجمع بين عامل المشرحة و«الكاتب الكبير»؟.. من المُرجَّح أن يكون هو سارق الجثة.

- ومن يكون «الكاتب الكبير» يا فندم؟

هل يمزح هذا المعتوه؟!.. قلتُ:

- صح النوم يا «حاتم»....

- «حازم» يا فندم.

- صح النوم يا زفت.. «الكاتب الكبير».. الجثة التي اختفتِ.

أعمل أصابعه العشر في شعره كمن حطتِ قافلة من القمل فوق رأسه، ثم قال بنظرات زائغة:

- نعم يوجد جثة.. مختفية.. نعم جثة مختفية.. لكنني.. لا أعرف ما أصابني يا «شاهق» باشا.. يبدو أنني نسيتُ من يكون صاحبها.

ثم نظر حوله ببلاهة أشد وقال:

- ماذا نفعل هنا؟

لم يبدُ عليه الهزل أو المزاح، كان جادًا للغاية، عيناه تدوران في محجريهما بعصبية، وكفاه يتصارعان من أجل توليد أكبر قدر من الحرارة.

عنَّفته، وسببته، ثم طردته من المشرحة.. وما إن خرجتُ إلى العامل الذي اتصل بالشرطة لاستجوابه، حتى صفعتني كلماته:

- لا أعرف أحدًا باسم «الكاتب الكبير» يا فندم.

صفعته بعزم طاقتي فوق وجهه المذعور، ارتحل صدى الصفعة إلى نهاية الرواق، بل عبر النوافذ والأبواب وسكن في أرجاء المكان كله، ورغم ذلك لم يتذكر من يكون «الكاتب الكبير».

غادرتُ المشرحة ثائرًا، وبعد بضع مكالمات هاتفية مع رؤسائي حاولتُ خلالها تذكيرهم بهوية «الكاتب الكبير»؛ استنفدتُ طاقتي بالكلية.. لا أحد يتذكر الرجل الذي لم يتبق منه سوى إصبع الإبهام!

أي جنون هذا؟!

الصُحف، المجلات، البرامج الحوارية، اختفى كل شيء يتعلق بـ «الكاتب الكبير»، حتى تلك المقالات اقتطعتها من الجرائد واحتفظتُ بها في ملف التحقيق، بدت بيضاء خاوية على عروشها..

طالبتُ بعض القنوات بإحضار نُسخ عن الحلقات التي شاهدتها بنفسي وكانت تدور حول تلك الجريمة، لكنها كانت خاوية هي الأخرى.

هل هي مؤامرة كونية لإصابتي بالجنون؟!

سقطتْ يدي فوق الصورة التي التقطها «أسمر» قبل ليلتين، قرَّبتها من عيني.. بدتْ ملامح الرجل فجأة وكأن ظلالًا ما ألقيت عليها، صارتْ مشوشة، غير واضحة المَعالم، لا يمكن استخدامها لإثبات وجود الرجل.

إثبات وجوده!.. يا لها من مهزلة، في البداية كنتُ أحاول إثبات أن الظل موجود وأنه يعود إلى الحارس الذي قتل الرجل، أما الآن فأنا أحاول إثبات أن الرجل نفسه موجود!

كيف ينسى الجميع «الكاتب الكبير» بينما أذكره أنا؟

حارس بيته!.. يجب أن أعيد استجوابه مرة أخرى.. فالمجرم لا ينسى أبدًا ضحيته.

***

بدا وجه الحارس كمن توقف قلبه مرتين على الأقل منذ آخر استجواب، حشرة صفراء شديدة الهزال.. لكن ما سرَّب الضيق إلى نفسي هو أن بريق عينيه لا يزال مُشعًا، أَبَى إلا أن يحتفظ بقبس من الإنسانية، لم ينثره فوق الأرض القذرة لغرفة الحجز.

- هل ابنتي بخير؟.. أبنائي كلهم.. أمهم.. هل عائلتي بخير؟

- ماذا تعرف عن «الكاتب الكبير»؟

تعلقتْ أنظاري بشفتين مرتجفتين، أما أنظاره فتعلقتْ بوجهي لا تحيد عنه ملليمترًا واحدًا.. وكان ضوؤهما قويًا.. قويًا جدًا، فتطلعتُ إلى الجدران بدلًا منهما.

- ومن يكون؟

نفس أمارات البلاهة التي تعلو وجه كل من أسأله عن الرجل!.. لكن هذه المرة لم أتمالك نفسي أكثر.

لم أختر موضعًا معينًا للركل أو للصفع، كل المناطق مشروعة، فالأجساد المدنسة حدودها مُستباحة. تارة كان يشهق كالغريق، وتارة يصيح كمن سقط من ارتفاع شاهِق.

عندما أراد «نابليون» سيادة العَالم اختار القوة كوسيلة لتحقيق أهدافه، أما الآن فالسيادة للعقل.. من الخطأ أن تركتُ نفسي فريسة لغضبي. أمسكتُ بكومة العظام وأنا أصيح في «الحمار»:

- ارفعه معي.

أجلسناه على الكرسي، أو الأصح وضعناه، إذ أن وضعيته كانت بعيدة عن وصفها بالجلوس.

- أرأيتَ ما جعلتني أفعله بكَ، لماذا أجبرتني على ذلك؟.. هيا، افتح فمك واشرب هذا الماء.

لا يجب أن يُعامل أصحاب العيون البرَّاقة كغيرهم من الحشرات، فحتى في المملكة الحيوانية هناك أنواع وفصائل وفئات.. وهذه الحشرة الصفراء العنيدة المتكورة أمامي الآن لا يسوقها السوط، هذه الفصيلة في مراجعي المعرفية لها روح حُرة، لكنها جاهلة، والروح الحرة إذا تزاوجتْ مع الجهل تمخَّض عنها فقاعة صابون. وكلما مكَّنتها من التصرف بحرية في نطاق محدود وبقدر محسوب؛ باتتْ تحت السيطرة.

طلبتُ من «الحمار» مقعدًا آخر، وضعته في مواجهة الحارس، وابتدرته بالحديث:

- هل تعرف أنني أشفق على نفسك؟.. حقًا أشفق على نفسك وإن كنتَ أنتَ لا تُشفق عليها.. الذنب يشق الروح إلى نصفين متناحرين.. مثل صراع الديوك الذي تقيمه فوق سطح بيتك.. يجعل المرء يعيش بروح مزدوجة، كل واحدة منهما تنازع الأخرى على احتلال الجسد.. هل تفهم ما أقول؟

بدأ في التجاوب معي وهزَّ رأسه بإعياء، أردفتُ:

- حتى النسيان لا يُعد شافعًا لمداواة هذا الانقسام، إن كان عقلك الواعي ينسى، فلاوعيك لا ينسى.. خلف مخك يوجد مخ آخر لا تعرف عنه أي شيء، وهذا المخ يتحكم بك أكثر مما يفعل مخك الذي تعرفه.

سأل مأخوذًا:

- يعني بنو آدم لهم مُخان؟

- نعم، لهم مُخان.. بل ويعيش داخل أجسادهم شخصيتان وثلاثة وأربعة.

- كيف هذا؟

- ألم تشعر يومًا بالشيء وعكسه، ألم تشتهِ نفسك طعامًا وبعد أكله تمرض ثم تستفرغه؟

- حصل.

- إنهما الشخصيتان اللتان تعيشان بداخلك، كل منهما لها ذوق مستقل.

انحنيتُ بجسدي نحو الطاولة، وشبكتُ أصابعي أستطرد:

- أنت تعرف في قرارة نفسك أنك قتلت «الكاتب الكبير»، وتذكره جيدًا أكثر مما تذكر أسماء أولادك، لكن الشخصية الثانية الخبيثة تخدعك، تضللك، تدمر روحك.. لا تطعها، اقطع عليها الطريق واعترف بذنبك.

- يعني أنا بداخلي اثنان؟!

ثم خرج صوته متحشرجًا:

- لكنني لم أقتل أحدًا.

- بل لا تذكر أنك قتلت أحدًا.. لكنك فعلتَ.. كيف تثق بطهارتك إلى هذه الدرجة؟.. فكِّر بكل الأشخاص الذين مروا بحياتك وتمنيتَ هلاكهم، فكِّر في كل شخص وددتَ لو دعسته بحذائك فقط لو كنت تملك واحدًا كبيرًا يسع أجسادهم.. فكر في وساوس نفسك في خلوات الليل، في الشهوات التي تمنيتَ أن تُشبعها إلا أن القُدرة أعاقتك..

فكِّر في كل ذلك وأخبرني هل أنت حقًا بالطهارة التي تظنها؟

- لكن.. لكن.. كيف أعترف بشيء لا أتذكره؟

- الذكريات.. ما هي الذكريات؟.. إنها ملفات مؤرشفة في غرفة خاصة بالعقل، من الوارد أن تتعرض للتلف.. أنت رجل كبير في السن.. من الوارد تتعرض للخرف أو لفقدان ذاكرة مؤقت أو الهذيان.. أمراض الشيخوخة لا حصر لها.

- ولماذا أثق بما تقوله أنتَ.. يعني سيادتك؟

صفّقتُ بجزل:

- أحسنتَ، هذه هي النظرية بالضبط.. لا يُمكنك الوثوق في أي شيء، فكيف تثق كثيرًا في أن ما تصدقه هو الحقيقة وما أقوله كذب؟.. لا شيء يثبت ذلك.. الحقيقة خادعة.. خادعة كثيرًا.. تتلوى وتُموِّه نفسها كالحرباء.. ومهمتي أنا وأنت الآن اصطيادها من بين كل الأكاذيب.

- لكنني لم أقتله.

- بل تظن أنك لم تقتله، لكنك فعلتَ.. في عالم مثالي تتحقق فيه الأمنيات، يُعد تمني الموت للآخرين جريمة قتل من الدرجة الأولى.

عليه أن يعرف أنه حرٌّ في أن يُذنب، فحُرية الخطأ مكفولة للجميع. مَتى آمن بأن الزلل مُباح؛ آمن بالتبعية بأن السُلطات لا تُعاقِب، بل تُساعد الناس على التحرر من الذنوب، ليعودوا أبرارًا مُطَّهرين.

وأعلى مقاماتِ الحرية هو أن ينشد بنفسه العقاب على ذنبه، فيُحرر نفسه بنفسه من أسره.

أردفتُ:

- سأحكي لك قصة.. منذ بضع سنوات صدمتُ رجلًا في مثل عمرك بسيارتي.. كلا لم نكن في وقت متأخر من الليل، بل في وضح النهار.. لكنه قرر لسبب ما أن يمر من أمامي بينما أنا شارد الذهن!.. هووووب.. مات الرجل.. لم أمكث لأعرف إن كان مات في الحال

أم لا.. لكنني أحب أن أتخيل أنه اقتنص من الحياة بضع دقائق يعترف فيها بذنبه الذي تسبب في مقتله.. لمَّا رآني شاردًا أثناء القيادة لماذا أقدم على عبور الطريق؟!.. لماذا لم ينتظر؟.. أو حتى يعود أدراجه من حيث أتى.. لماذا أصر على ملاقاة ملك الموت أمام سيارتي؟.. أرجو أن يكون الوقت أتيح له ليستشعر ذنبه قبل ملاقاة ربه، الاعتراف بالذنب يجمع شتات المرء ويجعله واحدًا صحيحًا.. ألا تريد أن تكون واحدًا صحيحًا؟

- لكنني لم أقتل أحدًا.. أقصد لا أذكر أنني قتلتُ أحدًا.

فتحتُ ملف التحقيق لأخرج منه أوراق استجوابه في المرة الأولى.. أشرتُ إلى ذيل الصفحة، قلتُ:

- أليس هذا توقيعك؟

- بلى.

- اقرأ إذن اعترافك بأنكَ كنتَ على صلة بـ «الكاتب الكبير».. لا لشهر أو اثنين، بل لسنوات.

كنتُ قد طلبتُ من «الحمار» ملء الفراغات التي تحوي اسم «الكاتب الكبير»؛ لذلك بدا ملف الاستجواب كاملًا بغير نُقصان.

الاضطراب يَرمح في روحه، ويترك آثار حوافره فوق وجهه، يتذكر اعترافاته عن المكان والزمان إلا تلك المتعلقة بـ «بالكاتب الكبير».. لو طلب أحد الملوك يومًا من فنان عبقري أن يصنع تمثالًا للحقيقة؛ لعجن نصفه من الصِدق ونصفه الآخر من الشك.

طال صمته حتى نطق بجملة واحدة:

- لا أعرف...!

- بالضبط لا تعرف.

تطلَّع إليّ ما بين خوف ورجاء، سأل:

- لماذا قتلتُه؟

وكان هذا أكبر مما رجوته، بسطتُ كفاي مجيبًا:

- لا أعرف صدِّقني، لكن السبب لا يهم كثيرًا.

أردفتُ باسمًا:

- هل تعرف وسام الذبابة؟

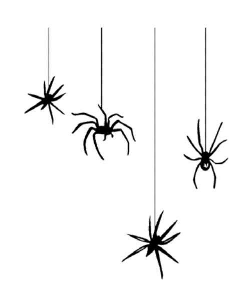
- لا.

- إنه الوسام المقدس عند الفراعنة، أعلى أوسمة الدولة، لا يُمنح إلا للأبطال والشجعان.. وأنت تستحق هذا الوسام.

برقتْ عيناه أكثر، نجحتُ أخيرًا في إقناعه أنني بالفعل أراه فصيلة مميزة من الحشرات. دسستُ يدي في جيبي وأخرجتُ منديلًا مطويًا.. وأمام ناظريه أخرجتُ من أسفل طيَّاته ذُبابة منزلية ميتة.. وضعتها فوق الطاولة بالقرب منه، قلتُ ببشاشة:

- أمنحك وسام الذُبابة نظير شجاعتك.

سافرتْ عينا الرجل في رحلة طويلة من وجهي إلى وجه «الحمار»، ثم انحرفتْ وجهتها إلى شمال شرق حيث الذُبابة.. طال صمته حتى حسبته ينتظر أنَ تدب فيها الحياة.. بتخبُط كبير مد يده إلى الذبابة.. حملَها حائرًا ونظراته تجوس فيها.. ثم.. وضعها في فمه.



(١١)

امرأة وثلاثة رجال.

براغيث غبية!.. لا تستطيع أن تُعمل عقلها -هذا إن كان لها عقل من الأساس- تأتي فقط بما يطلبه منها، لا تستطيع أن تُفكِّر، أن تبتكر، أن تتصرَّف.

- أين جثة «الكاتب الكبير»؟
- تعذَّر العثور على جواب.
- لماذا اختفت؟
- تعذَّر العثور على جواب.
- لماذا نسيه العالَم بأسره؟
- تعذَّر العثور على جواب.
- لماذا أتذكره أنا؟
- تعذَّر العثور على جواب.
- لماذا أنتم أغبياء؟
- لأننا لم نُخلق لنُفكر.

فكَّر أن على الأقل الاعتراف بالحق فضيلة. لماذا يُشغل نفسه بأمر الجثة؟.. لأنه ومنذ أن فارق صومعة مولانا الشيخ «جو» والأفكار تعصف برأسه، تملكته واحدة أخذت تتضخم وتتضخم حتى سادتْ عقله كله.. «الكاتب الكبير» لم يختفِ، بل لم يمتْ من الأساس.. لقد ارتحَل إلى الماضي!

والجثة التي عثرتْ الشرطة عليها؟.. شخص يشبهه، تمويه لا أكثر.. خطة أعدها «الكاتب الكبير» لتكون غطاءً منطقيًا لاختفائه.

يعرف «حصان طروادة» أن مولانا ثرثار كبير، حتى أنه أكبر الثرثارين؛ لذلك فكَّر في أن «الكاتب الكبير» لابد وأن طلب منه وصفة «آلة الزمن»، ومولانا منحها له، بمقابل كبير كما فعل معه من قبل.. و«الكاتب الكبير» نجح في إعداد الوصفة، وسرق من البحر قطرات قبل أن يخفيه.

كيف أخفاه؟

سأل نفسه ثم أجاب ببساطة، لابد أنه عبثَ بشيء ما في الماضي فتبدتْ آثاره في الحال على الحاضر.. لأن حكاية الحاضر والمستقبل لا يُمكن أن تُروى بدون صوت الماضي.. وإذا حدث أي خلل في هذا الصوت في لحظة ما؛ أمستْ الأغنية الناشئة عنه نشازًا.. نظريات السفر عبر الزمن تشهد بذلك.

سارَع إلى معمله في الطابق العلوي، توقف طويلًا أمام الجدران المدون فوقها أسس النظريات العلمية، وعلى رأسها نظرية «أينشتاين» في النسبية والأوراق البحثية التي كتبها العلماء عن السفر عبر الزمن، إلى الماضي على وجه الخصوص، لا يعنيه كثيرًا أمر المستقبل، لأنه باستحواذه على الماضي سيمتلك الحاضر والمستقبل معًا.

استكمل قراءة وِرده اليومي عن نسبية الزمن، «آينشتاين» وإطاحته بنظرية «نيوتن» عن تقسيم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل، «كيرت جودل» وحلقاته الزمنية وإيمانه أن الدورانَ يفتح بوابة الماضي.. الثقوب السوداء والشق الدودي.

قرأ كل شيء.. كل شيء.. أعاد قراءته مرات ومرات ومرات حتى أصبحتْ ذاكرته تستبق عينيه في القراءة.. لكن لا شيء عن براغيثه العجيبة.. لا شيء عن كيفية تطويعها لتأتيه بالمزيد.. أربع وعشرون ساعة لا تكفيه.. لا تكفيه أبدًا.. أربع وعشرون ساعة لا تخبره إن كان «الكاتب

الكبير» ارتحل في الزمن بالفعل؟.. وكيف نجح؟.. أربع وعشرون ساعة لا تخبره كيف نسي الجميع أمر «الكاتب الكبير».

في لحظة غضب أزال بعض المقالات والأوراق البحثية الملصقة فوق الجدران، ومزقهم جميعًا. لم تكن تلك هي المرة الأولى.. هكذا اعتاد أن يفعل كلما أصابه اليأس.. ولأشد ما هو يائس هذه الليلة.

انتهتِ العاصفة الهوجاء بمغادرته لمعمله.. عاد إلى غرفة المعيشة يعاقر التفكير بغير توقف.. لماذا هو الوحيد الذي يتذكر «الكاتب الكبير».. لماذا؟

فتح هذا السؤال في رأسه ممرًا ضيقًا.. لكن في نهايته بصيص من نور.. لماذا يظن أنه الوحيد الذي يتذكره.. لعل هناك آخرين غيره.. لكن كيف سيصل إليهم؟.. أجهد عقله لدقيقة فحسب قبل أن تقفز صورة البراغيث إلى رأسه.. كيف لم يفكر في ذلك؟

بحماس كبير عاد إلى أريكته يستريح فوقها وهو يطالع ساعة الحائط كل ربع ساعة ثم كل خمسة دقائق ثم كل دقيقة ثم مرتين في الدقيقة.. حتى انتصف الليل.. وأتته براغيثه تسعى.. تسلّقتْ جسده واتخذت منه مستقرًا ومقامًا.. فسألها وانتظر بشغف جوابها:

- كم شخصًا في هذا العالم يتذكر «الكاتب الكبير»؟

يبدو أنه كان سؤالًا سهلًا.. أسهل من أي سؤال سألها إياه من قبل.. إذ أن جوابها أتى بسرعة دقة قلب:

- امرأة وثلاثة رجال.

- من هم؟

- أنت أولهم.. ثم رجل يُدعى «أسمر».. والثالث «شاهق».. أما الرابعة.. «خيال».. المرأة ذات المعطف الأصفر.

- أخبروني بكل شيء عنهم.. «أسمر».. «شاهق».. «خيال».

- سنخبرك بكل ما حدث معهم خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية.. استمع إلينا جيدًا.

فاستمع.. وأحسنت الإنصات.

في البداية كان حلمه جلب الماضي إليه، الآن باتَ يطمح للسفر إليه بنفسه!

الماضي موجود هناك في مكان ما تمامًا مثل الحاضر.. وسيبذل جهده في الوصول إليه.



(١٢)

المرأة ذات المعطف الأصفر

«خيال»

إنه لمن الجميل أن يرى الناس تحت السماء ما هو جميل. لكن مهما كان ما حول المرء جميلًا سيبرز أنفه هناك في أكثر موقع استراتيجي من وجهه؛ يُذكِّره بمعنى القبح.. أو على الأقل هذا هو الحال معي.

أكبر ما منحتني إياه الحياة هو أنفي، قطعة من الغضاريف تتوسط حياتي كعقبة لا يمكن إزالتها.. هل يمكن لامرأة أن تتخلى عن أنفها؟

يولد معها في جيناتها الوراثية.. عِشرة طويلة تبدأ قبل أن ينفث الله الروح في الجنين.

لا يمكن العبث فيها بعملية تجميلية.. فكرتُ في ذلك عدة مرات لا أنكر.. لكن الأمر كأن لا تعجبك أمك فتسعى لتحويلها إلى خلاط!.. حتى وإن كان لكليهما الوظيفة الجوهرية نفسها مِن إعداد الطعام، وعصر الفاكهة.. إلا أن الأم أم والخلاط خلاط.

أنفي لن يصير أنفي إذا أخضعته لمشيئة أيادي الجرَّاحين.. سيصير شيئًا آخر لا يشبهه، وسأكره نفسي أكثر.

هذه هي المعضلة.. كيف أحوِّل أنفي إلى شيء لا يشبهه لأنني أكرهه، وفي الوقت ذاته يظل يشبهه حتى لا أشعر بغربته عن جسدي؟!

لماذا أفكر في ذلك الآن؟.. ربما لأنني أعاني من الأرق.. الأصوات لا تهدأ.. ورأسي يوشك على الانفجار. الأرق طفل مشاغب يوقظ الأفكار المنسية من سباتها ويخرجها أمامي لعرضها واحدة تلو الأخرى.

- يكفي.. يكفي.

سددتُ بكفيّ المنفذ الوحيد إلى القوقعة الداخلية لأذني.. رغم أنني جربتُ ذلك آلاف المرات.. يدي، قطن طبي، محارم ورقية، سدادات فلين معدة لغلق الزجاجات، قطع مطاط أسطوانية، أصابعي، وحتى أصابع زينب غارقة في شراب السُكَّر!.. دون جدوى.. الأصوات تجد طريقها دومًا إلى التمركز داخل رأسي.

تششش.. تششش!

«أم الرِمال» في الطابق الرابع والأخير شقة «ثمانية» تقلي أصابع البطاطا على العشاء لبناتها مجددًا.. المرة الثالثة خلال ساعتين. لا تعجز الأصوات عن بلوغ الطابق الثاني شقة «أربعة» حيث أقيم.

«أم الرمال» جزع شجرة، وبالطبع لم أخبرها أبدًا بذلك.. لأنها لكي تفهم ما أَعنيه يجب أن أخوض شرحًا مطولًا، يعجز عقلها اللاهي عن إدراكه.

فلسفتي أن الحياة شجرة، ينقسم الناس فيها إلى جزع، أغصان، وأوراق.. الأوراق هي الأجمل.. تبدو صحية ومنتعشة من الخارج.. لكنها أضعف ما في الشجرة.. تتساقط بسهولة.. مثل أولئك الذين يبدون سعداء من الخارج بينما من الداخل يعانون من هشاشة نفسية.

أما الجزع فهو أقبح ما في الشجرة، لكنه أقواها، ولا يقوى على كسره سوى إعصار.. مثل أولئك الذين يبدون مساكين بسطاء من الخارج، بغير بهجرة الألوان.. لكنهم أقوياء من الداخل.

أما الفروع فهي بين الأوراق والجزع في قوتها.. ريح خفيفة تُراقصها، وريح قوية تقضي عليها.. مثل أغلب الناس!

و«أم الرِمال» في هذه الحياة مثل جزع شجرة.. تمنح الحياة لبناتها الاثنتي عشرة.. تخدمهن، تُربيهن، تستذكر معهن دروسهن، دون سأم.

طق.. طق..طق!

السيدة «ثريا» في الطابق الأول شقة» اثنان» مثل أوراق الشجر.. سريعة التأثر بتقلبات الجو.. لابد أنها تنقر بأصابعها فوق طاولة المطبخ كعادتها.

يُقال أنها تعاني من ثقل الذنب بعد أن قتلتْ زوجها. اكتشفتْ خيانته، فالمرأة تتمتع بحاسة سادسة تزيد من حساسية أنفها لتشم آثار الخيانة.. أراد تطليقها.. فاشترطتْ أن يُعيد إليها خمسة وعشرين عامًا من عمرها كانت قد أضاعتهم معه.. عجز عن السداد؛ فسرقتْ منه أعوامه القادمة.

لا أعرف بالضبط صحة هذه الحكاية.. لكن «أم الرمال» تثق تمامًا في صحتها.

ششششششششش!

أحدهم يأخذ دشًا.. أظن أن أنها السيدة «اعتماد» في الطابق الرابع شقة «سبعة».. سَمعتُها اليوم تقول للسيدة «ثريا» في الطابق الأول شقة «اثنان» أنها تنوي الاستحمام بعد منتصف الليل.. تمضي أيامها في حياكة ثوب مبهج لكي يرتديه العالَم في العيد القادم، إذ أن ثوبه في العيد الفائت كان مُهلهلًا.. هكذا تزعم هي.

أو قد يكون السيد «سراج» في الشقة «ثلاثة» المقابلة لي.. كان قد أخبر السيد «أحمد» في الطابق الثالث شقة «ستة» أنه معتاد على الاستحمام فور انتهائه من عزف البيانو.. لأن جسده يتعرق باستثناء أصابعه.. لذلك يأخذ دشًا بعد العزف وهو يغطي أصابعه بشريط لاصق حتى لا يطالها الماء؛ فالماء يفسِد موهبة أصابعه كما يقول.

السيد «سراج» يؤمن أننا في الحياة الأخرى بعد الموت سنكون لمبات مشتعلة؛ لذلك يدخر طاقته ولا يفعل شيئًا طوال اليوم سوى الجلوس أمام الجدران وعزف البيانو.. حيث يدَّعي أن جدران العمارة مسمومة ولا يوقف سُمها سوى نغماته؛ لذلك نموت ببطء كل يوم دون أن نلاحظ ذلك.

حتى أنه يظن أن بعض سكان العمارة مثل السيدة «اعتماد» زومبي قد ماتوا مرة بالفعل.

فووووووووووو!

الرياح تنسل مجددًا من الثقب الدائري المحفور في نافذة الشقة «واحد» في الطابق الأول، والتي أغلقها مالكها وفارقها منذ أربع سنوات.. ثم عرَض نفسه في مزاد علني!.. لم يكن يملك الكثير.. شعر أسود كثيف، وعيون سوداء غائرة بعض الشيء، وبطن متكور، وقدم أقصر من الأخرى ببضعة ملليمترات.. لم نعرف أبدًا على مَن وقع المزاد.. لم نستطع الوصول إلى مالكه الجديد!

عمارة عادية، وجيران مُعتادون جدًا!

بينما يتسرَّب الليل من بين أصابع السماء تساقطتُ من التعب كورقة ذابلة فوق أريكة مُعدة للنوم في غرفة المعيشة.

طق طقطقطق.. طق طقطقطق!

ذاب الليل تحت لسعات الشمس، الصوت قريبٌ جدًا لدرجة أنه استطاع أن يمد ذراعيه وينتزعني بعد أن كنتُ قد وصلتُ إلى حافة الحُلم.

طق طقطقطق.. طق طقطقطق!

فتحتُ الباب بملابس نوم محتشمة، لا يُمكن أن أخطئ صاحبة تلك النقرات المميزة.. «أم الرمال».. الطابق الرابع شقة «ثمانية».. دخلَتْ كعاصفة تزن مائة وعشرين كيلو جرامات.

- صباح الخير يا «خيال».. بل مساء الخير.. ما كل هذا النوم؟.. لقد تخطينا منتصف النهار.. مع أنه في الحقيقة لم يعد هناك منتصف نهار أو منتصف ليل.. تعلمين.. تلك المصطلحات لم تعد تنطبق بدقة على دورات النوم لدينا.. بالطبع تعلمين فأنتِ من أخبرتني بذلك.. صحيح.. أليس لديكِ عمل اليوم؟

لم أحاول أن أفتح فمي للجواب، إذ كنتُ أعرفُ أنني لن أجد الوقت الكافي لأفعل.

- ما هذا؟.. تركتِ النوم في فراشك مرة أخرى.. يا لكِ من حمقاء يا «خيال».

- هذا بسبب الزوجين حديثي الزواج في الطابق الثالث شقة «خمـ....

لم أقاطعها ولم تقاطعني.. كنا نتكلم في ذات اللحظة:

- .... وسيؤلمك كثيرًا.. العام الماضي اضطررتُ إلى النوم لأسبوع متواصل فوقَ الأريكة فأصبتُ بانزلاق غضروفي أقعدني عن العمل شهرًا، فقدتُ خلاله خمسة وعشرين كيلو جرامات، هل يمكنك تخيل ذلك؟.. تعلمين أن ابنتي الثانية عصبية المزاج.. يعني أحيانًا.. أو كثيرًا بصراحة.. تغضب على شقيقاتها فترفض النوم معهن.. أترك لها فراشي.. لا أستطيع النوم في فراشها فهو صغير جدًا.. تعرفين أنها نحيفة.. أنحف بناتي.. بعكس ابنتي السابعة، هل أخبرتك أن وزنها زاد خمسة كيلو جرامات؟.. لابد أنها جينات وراثية.. تعلَمين أن السمنة لدي هي أمر وراثي تمامًا.. لكنها ومع ذلك تأكل كثيرًا.. جائعة تأكل.. حزينة تأكل.. غاضبة تأكل.. قولي لي ماذا أفعل معها يا «خيال».. هل أقيد معصميها إلى الجدار وأمنعها من الطعام؟.. حتى وإن كان هذا هو الحل فلن أستطيع أن أفعل.. تعلمين أنني أحب بناتي الاثنتي عشرة.. أحبهن كثيرًا.. كيف لا تصدقين ذلك يا «خيال»؟

لا أعرف كيف انتهى حديثها فجأة بعدم إيماني بحبها لبناتها.. لا أعرف في أي نقطة تحديدًا اتخذ الحوار مجرى مختلف عما بدأ به.. يبدو أنه في الأساس قد بدأ لا ليستمر في وِجهة واحدة.. بل في الجهات جميعها.. مثل البوصلة.

عنننننننن!

السيد «أحمد» في الطابق الثالث شقة «ستة».. يُدير محرك دراجته النارية استعدادًا للانطلاق بها إلى عمله.

- هل سمعت الشائعات التي تختلقها تلك المرأة التافهة «ثريا»؟.. تقول أنني حاملَ للمرة الثالثة عشر.. وبطني يحمل خمسة توائم.. إن كنتُ حاملًا لماذا أخفي عليكم ذلك؟.. هذا غير معقول أبدًا.. هذه المرأة فقدتْ عقلها تمامًا منذ قتلها لزوجها... لكنني أثق أن......

ترااك!

السيدة «اعتماد» تُغادر منزلها للذهاب إلى السوق.. لا يوجد امرأة غيرها تذهب إلى السوق بعد الظهيرة.

- ..... ثم قلتُ له إياك أن تنظر إليها بعينيك الزائغتين مرة أخرى وإلا اقتلعتهما من رأسك.. تعرفين أن ابنتي العاشرة......

تيرا تييرااالترااارااا!

بدأ لسيد «سراج» في العزف.. سيستمر من الآن وحتى منتصف الليل!

بوم بوم.. تششششش.. بوم بوم... زييييييي.. بووووو!

أصوات كثيرة تحدث.. كثيرة جدًا.. يصعب على رأسي حصرها.. أنا ورقة.

ززززززز!

- لماذا الذباب كثير في شقتكِ يا «خيال»؟

زززززززز!

- لماذا لا ترشين دواءً للقضاء عليه؟

ززززززززز!

- دعيني أفعل.. أين هو؟.. وجدته.. دقائق ولن تجدي في البيت ذبابة واحدة.

زززززز.. تسسسسس.. ززززززز.. تسسسسس!

- هيا موتوا جميعًا.

تسسسسسس.. تسسسسسسس.. تراك!

- «خيال».. «خيال».. هل خرجتِ؟!

السيارة لا تعمل مجددًا.. يومًا ما لو دار محركها بسهولة لشعرتُ بالقلق!.. حمدًا لله ها هي تستيقظ من سباتها.

كثرتْ في هذه المنطقة اللجان التي تصطاد المصابين بـ «أنفلونزا الضمير»، لكنني لم أتوقع رؤية واحدة على ناصية الشارع الذي أعيش فيه. أوقفني ضابط اللجنة بإشارة من يده.. دنا مني بنظرات شك.. عبستُ.. زاد شكه.. ابتسمتُ.. انكمش شكه.

- من أين أنتِ قادمة؟.. وإلى أين تذهبين؟

- من بيتي.. إلى عملي.

- ما هو عملك؟

- ميكانيكية مخ.

- ماذا؟

ضحكتُ.. زال شكه:

- طبيبة نفسية.

- لكن لماذا ترتدين معطفًا ثقيلًا.. نمر بطقس رائع اليوم.

- أعلم.. الجو رائع، أليس كذلك؟.. لكنني لا أخلع معطفي الأصفر أبدًا.

- أبدًا؟!

- أبدًا!

- أعطني عنوان عيادتكِ أو مستشفاكِ.. فربما أحتاج يومًا ما إلى صيانة للمخ.

- ليس لي عيادة أو مستشفى.

- ليس لكِ؟!

- ليس لي.

- أين تعملين إذن؟

- في النادي.. نادي «البحر».. يسعدنا زيارتك.. مع أنني لا أتمنى أن تحتاج إلينا.

وأخيرًا بعد مروري بالكثير والكثير من الأصوات وصلتُ النادي، مُتأخرة ثلاث دقائق ونصف، ليس من عاداتي أبدًا.

قاعة الندوات مُمتلئة بطاقم التمريض الجديد، لم تسعهم المقاعد الستة عشر حول الطاولة فاتخذوا من الجدران مُتكئًا، أطلق أحدهم مزحة، شاركه فيها البعض، ومن عاداتي ألا أبدأ الاجتماعات بجدية وأترك لهم فرصة التعرف على بعضهم البعض كلما تقدم إلى العمل في النادي بعض الممرضين الجدد، لكنني اليوم ممتلئة بالتفكير، فالوضع من سيء إلى أسوأ. افتتحتُ الاجتماع قائلة بينما أترأس صدر الطاولة:

- مرحبًا بكم جميعًا في نادينا المتواضع، لا يخفى عليكم أن النادي في حاجة ماسة إلى جهودكم لنتمكن من عبور الأزمة.. في الشهر الماضي كان يتم إدخال مريض واحد يوميًا إلى نادينا، أما الآن فقد وصل المُعدل إلى أربع حالات يوميًا..لذلك أرجو منكم الانتباه جيدًا لكل كلمة أقولها.. ولأنني لا أحب الجلوس إلى المقاعد وإعطاء معلومات نظرية بينما بإمكاني أن أريكم تلك المعلومات حية أمام

أعينكم.. لذلك فأرجو أن تتفضلوا معي للمرور على بعض الحالات التي دخلتْ المستشفى حديثًا.

مطعم النادي هو وجهتي الأولى، أردتُ لهم أن يُعاينوا بعض الحالات معي. في النادي عدة قاعات طعام، وهذه القاعة هي أفضلها، يرتادها المرضى من القسم «ألف».. والقسم «ألف» يقع في مبنى «اثنين»، ومبنى «اثنين» مواجه للبحر الذي لم يعد له وجود.. هذا القسم يتجمع به مرضى نجوم المجتمع، مُمثلون ورسامون ومُذيعون وموسيقيون وصحفيون وسياسيون.

لذلك يُعد القسم الأهدأ والأقل تكدسًا في عدد المرضى، بيد أن حالتهم لا تختلف مقدار ذرة عن حالات مرضى قاع المجتمع، الجميع يعاني من الأعراض ذاتها، وكأن المساواة الاجتماعية التي فشل كل الرؤساء والسياسيين حول العالم في تحقيقها.. نجح فيها المرض!

- لا تلمسها يا حقير.. كسرتُ ذراعك المرة الماضية لكن هذه المرة سأكسر رأسك اللعين.

كانتْ تلك هي المُمثلة والمُطربة والراقصة الشهيرة «سمسمة الحلوة أوي»، وهي أكثر المرضى هستيرية في هذا القسم، رغم محاولاتي الحثيثة لنقلها إلى أحد الأقسام الأخرى حتى لا تُزعج مرضى القسم «ألف»، إلا أنها عدَّتْ هذه المحاولات إهانة لها ولتاريخها الطويل المُشرِّف من أجل الوطن.

دنوتُ منها في محاولة يائسة لأمنعها من ضرب رأس أحد المرضين بكعب حذائها ذي الأحد عشر سنتيمترًا، والذي لم نستطع أبدًا إقناعها بالتخلي عنه داخل أروقة النادي، لا هو ولا قُبَّعاتها العجيبة التي تُصر على ارتدائها والتبديل بينها يومًا، حتى أن غرفتها لا تحوي دولابًا واحدًا مثل باقي الغرف، بل ثلاثة دواليب، واحد لأغراضها كاملة، واثنان لقبعاتها:

- مدام «سمسمة الحلوة أوي» من فضلك أخبريني بما يُزعجك.

لوَّحتْ بيديها حتى كادت تقتلع بأظافرها الطويلة المطلية بالأحمر عين أحد الزملاء الجدد، قائلة:

- كل شيء في هذا المكان المقرف يُزعجني.

ثم أشارت إلى المُمرض الذي طأطأ رأسه في انكسار:

- هذا المُتخلف كاد يكسر كف يدي الزجاجية أثناء وضعه لفنجان الشاي فوق طاولتي.. ألا يعرف أن الزجاج سهل الكسر، هل يُريد أن يقضي على حياتي المهنية؟.. لابد أنها مؤامرة دبَّرتها غريمتي «عزيزة اللذيذة» لتقضي على مُستقبلي الفني وتزيحني تمامًا عن طريقها.

ثم رفعتْ صوتها لا لداعٍ ما، وإنما فحسب لأن المشهد يتطلب حرارة في الأداء:

- اطردوا هذه الحثالة خارج النادي وإلا عاقبتكم جميعًا.

- اهدئي قليلًا يا مدام «سمسمة الحلوة أوي» فضغط دمك يعاني من ارتفاع ملحوظ في الأيام الأخيرة.

- اطردوه حالًا.

- حالًا سيتم طرده.. لكن اهدئي من فضلك.

رمقتُ للممرض الذي تعلَّقت عيناه بوجهي في رجاء صامت، أشرتُ له برأسي للخروج وخارج القاعة التفَّ حولنا الزملاء الجدد في فضول لمعرفة ردة فعلي، بادرته قائلة:

- سيتم نقلك إلى المبنى «ثلاثة»، فهذا أفضل لك بالتأكيد.

وكان قراري بالنسبة له ترقية أو علاوة كبيرة.. لا أحد يحب العمل في القسم «ألف»..انفرجتْ أساريره، ترقرق الدمع في عينيه وهو يقول:

- بالطبع أفضل كثيرًا، منذ شهر كامل وأنا أتمنى أن أنتقل إلى مبنى آخر أو حتى قسم آخر.. جميع العاملين في القسم «ألف» مبنى «اثنين» يتمنون ذلك.. أشكرك كثيرًا يا دكتورة «خيال».

انصرف المُمرض، فالتفتُّ إلى زملائه الجدد موضحة ما يجب توضيحه:

- كما رأيتم جميعًا.. المريضة تظن أن يدها من زجاج قابل للكسر.. وهذا ما يظنه جميع المرضى هنا.. لذلك لا يستخدمون أيديهم أبدًا ولا حتى لحك رؤوسهم.. بعضهم يعاني من هذا التوهم في يد واحدة فحسب، يُمنى أحيانًا، ويُسرى أحايين أخر.. وبعضهم يصيبهم هذا التوهم بشأن اليدين معًا.. وهذه الحالة هي الأصعب بالطبع لأنها تستلزم مُمرضا متاحًا لرعايته ليلًا ونهارًا.. لذلك نُعاني دومًا من نقص في التمريض خاصة مع ازدياد الحالات التي تردنا يوميًا.

رفع أحد الممرضين يده للحديث فأذنتُ له:

- اسمحي لي يا دكتورة أريد أن أعرف السبب المباشر لإصابتهم بهذا الوهم.. خاصة وأنها ليست حالة أو اثنتين، بل أشبه بهلوسة جماعية.

- هل سمعتم عن أنفلونزا الضمير؟

فتتابعتْ ردودهم:

- نعم.

- سمعنا.

- بالطبع سمعنا.

- بالتأكيد.

أخذتُ نفَسًا عميقًا زفرته ببطء ثم أردفتُ:

- مثلما يحدث في الأنفلونزا العادية من الممكن أن تتطور إلى التهاب رئوي.. فإن أنفلونزا الضمير التي تصيب الخاضعين لعملية زرع «صمام الضمير» تتطور إلى حالة التوهم تلك.. يظن المريض أن يده من زجاج قابل للكسر.

- وهل هذا المرض حديث المنشأ يا دكتورة؟

- لا بالعكس.. «الوهم الزجاجي» ظاهرة نفسية قديمة.. وأشهر المصابين بها في العصور الوسطي هو الملك الفرنسي تشارلز السادس.. كان يلف نفسه في بطانيات مخافة أن تنهار أردافه..

وبعدها سُجِّلت بعض الحالات المتأثرة بهذا الوهم.. وفي إحداها كان المريض الذي يظن أنه مصنوع من زجاج قد بدأ معه هذا التوهم بعد إصابته في حادثة.. وهذا الوهم أتاح له فرصة وضع مسافة بينه وبين أقربائه وأصدقائه.. أي يمكننا أن نقول أنه توهمَ أنه مصنوع من زجاج حتى يتمكن من إبعاد الناس عنه.. أي أن هذا الوهم قد يُعبر عن هشاشة نفسية، وقلق اجتماعي خطير تجاه المجتمع الذي يزداد ازدحامًا وسرعة وتطورًا يومًا بعد يوم.

- وهل المريض بأنفلونزا الضمير أيضًا يرغب في أن يبتعد الناس عنه؟

- لا أعرف.. لا أحد يعرف.

- وهل يوجد علاج لهذه الحالة يا دكتورة «خيال»؟

- حتى الآن لم ينجح الأطباء في علاج أي حالة على الإطلاق، لا في نادينا ولا في أي مكان آخر.. هل مِن أسئلة أخرى؟

تجاهلتُ الوجوم الذي أحطَّ فوق الوجوه، طلبتُ من رئيسة التمريض في المبنى «اثنين» أن توزعهم على الأقسام التي تُعاني من عجز في عدد التمريض.. ولم أكد أصل إلى باب المصعد حتى انفتح لتستقبلني رئيسة تمريض مبنى «واحد» بأسوأ ما بنشرتها من أخبار، تقارير لحالات المرضى المستعصية والتي لا تتبدى أن بادرة أمل في شفائهم.. أعداد

المرضى الجدد والذين ضاقت بهم أسرَّة النادي.. نقص العمالة.. شكاوى التمريض.. فرار الأطباء من هذا الجحيم..

امتصتِّ الممرضة بأخبارها الهواء من المكتب.. من الرواق.. من النادي.. من العالَم!

أوقفتُها بإشارة من يدي، كنتُ بحاجة لأن أتنفس.. فتوجهتُ إلى الشخص الوحيد الذي يجعلني أتحمل مرارة هذا العالَم البائس.. إنه مريض الغرفة «اثنان وستون».



(١٣)

البرغوث يهمس.

«أسمر»

لم أصدق في المرة الأولى.. ولا الثانية.. ولا العاشرة.. عند الثالثة والعشرين بدأتُ في التحقق من أن البرغوث الأزرق يهمس!

لا يفعل إلا عندما ألمسه بأصابعي، بينما داخل البرطمان الزجاجي يظل صامتًا كأي برغوث طبيعي يحترم نفسه.

لم أفهم همساته بالطبع.. لم أصادف برغوثا مُتكلمًا من قبل!.. وإن كنتُ أحسها لغة مصطنعة فيها كثير من التاااا.. واليووو.. والبيييي.. بنبرات تشبه مخر السفن وهي تشق ماء البحر.

أكثر من سبعين ساعة ولم يغمض لي جفن، أوشك على الظن بأن همس البرغوث إنما هو وهم اختلقه عقلي الذي أضناه السهر؛ فباتَ يُعاقر الأوهام.. لم تُجدِ نفعًا المهدئات ولا الحبوب المنومة التي ابتعتها من الصيدلية التي يعمل بها «شلبي سليم الفخراني».

هذا الرجل يعمل في أي شيء وكل شيء حتى أنني إذا سمعتُ غدًا في نشرة الأخبار الصباحية خبر تعيينه رئيسًا للبلاد؛ لن أندهش أبدًا!

توقفتُ تمامًا عن تناول مشروبات تحتوي على النيكوتين؛ ومع ذلك ظلَّ النوم عصيًا.. قررتُ تجاوز الليل؛ أشعلتُ المصابيح، أغلقتُ النوافذ، وتجاهلتُ القمر.

عصَرني الملل؛ فكانت قهوة «العطَّاسين» ملاذي، أعتصمُ فيها من الغروب إلى الشروق، وأحيانًا من الشروق إلى الغروب.. أهملتُ العملٍ، كيف لي أن أستمر في القيادة دون نوم؟.. في الحقيقة كان عقلي يقظًا جدًا، أستطيع القيادة لو أردتُ، لكن آخر ما أفكر فيه هذه الفترة هو العمل.

- ماذا تفعل هنا؟

- بل ماذا تفعل أنت هنا؟

فاجأني قدوم «شاهق».. فهو ليس من روَّاد قهوة «العطَّاسين»، يحب التسكع في أماكن أكثر وجاهة، أماكن لا أحبها ولا يحبني روَّادها.. مثل «صالة البوكر».. رغم أنها في حقيقة الأمر مجرد قهوة مثل أي قهوة.. لكن لها طابع أرستقراطي يتماشى مع علية القوم، فعزفوا عن مسمى قهوة «البلدي» واختاروا لها اسمًا أكثر وجاهة مثل «صالة البوكر».. قال «شاهق» بينما عيناه تتحسس المكان بامتعاض:

- كنتُ مارًا فرأيتُك.. حالك لا يعجبني.

- ولا يعجبني أنا أيضًا.

- ما بك؟

- لا أنام.

- توقف عن التفكير.

نصيحته وجيهة جدًا، إلا أنني لم أعثر في رأسي على زِر إغلاق التفكير. هل يجب عليَّ إخبار «شاهق» عن كوني مرشحًا محتملا لكي أكون قاتل «الكاتب الكبير»؟

إنه صديقي فلماذا لا أفعل؟

ربما لأنني أعرف قصته مع ذاك «الفنان».. أن صداقة ما تجمع بينهما منذ سنوات؛ إلا أنني أثق أنه لن يتوانَى في القبض عليه إذا صادفه خارج صالة البوكر.

فهل سيفعل ذلك معي؟.. هل سيقيد معصمي بأصفاده إذا علم أنني القاتل الذي يبحث عنه؟

عليّ أن أعثر على دليل براءتي أولًا.. عليّ أن أعثر على الظل.

هل أخبره إذن بأمر البرغوث الأزرق الهامس؟.. لا أعرف، بدا لي قول ذلك سخيفًا جدًا؛ فآثرتُ الكتمان. قال «شاهق»:

- اسمع، أريد أن أسألك عن شيء هام.. مع العلم أنك لن تتذكره.. لكن فلأحاول على أي حال.. قلتَ لي أنك قرأتَ من قبل رواية اسمها «الرواية التي قتلتْ قارئها»، هل تعرف أين أجدها؟

- لم أقل أنني قرأتها.. قلتُ أنني قرأتُ عنها في مقالة.. ثم إنك لن تعثر عليها في أي مكان لأن «الكاتب الكبير» لم ينتهِ قط من كتابتها.. قلتُ لك ذلك أيضًا.

انتشرتْ الدهشة في وجه «شاهق»، هتف:

- هل تتذكر «الكاتب الكبير»؟!

- بالطبع.. لماذا تتوقع أن أنساه؟

- غريب.. غريب جدًا!.. هل تعرف أنني وأنت فقط من نتذكر هذا الرجل بينما نسيه الجميع؟

- لا تكن سخيفًا.

ولم يكن سخيفًا.. كان محقًا في كل حرف وكل كلمة، أثبتَ لي ذلك بأدلة قاطعة. أحضر من المقعد الخلفي لسيارته صفحات جرائد ابتلعتْ أخبارها عن «الكاتب الكبير»..أسمعني على هاتفه مقاطع مُسجلة تقلَّصتْ.. وأراني صورًا تشوَّشَتْ.. خاصة تلك التي صورتها بيدي قبل عدة ليال قليلة!.. ما الذي يحدث بالضبط؟

بادرني «شاهق» وكأنه سمع السؤال الذي يتردد بداخلي:

- لا أعرف ما الذي يحدث بالضبط.. لكن ما يحدث خطير.

تلك من المرات النادرة التي أرى فيها «شاهق» قلقًا حقًا.. قلقًا جدًا. وعلى حين غفلة ألصق «شلبي سليم الفخراني» مقعدًا بالأرض أمامي وافترشه ليصيح:

- أين أموالي؟

كررتُ كلماته بتلقائية «أين أموال؟».. نظر لي «شاهق» مغتاظًا فشعرتُ بالحرج.. ما أغبى عاداتي في تكرار كلمات الآخرين!

لم أكن في مزاج رائق لمداهنة الرجل، ولم يكن «شاهق» في وضع لتحمُّل مُقاطع لحديثنا الهام.. فما إن أخرج «شاهق» بطاقة هويته ولوَّح بها في وجه «شلبي سليم الفخراني»، حتى استحال وجه هذا الأخير إلى ثمرة طماطم، حتى ليوشك العرق المتصبب من جبينه أن يصطبغ باللون الأحمر.. بادره «شاهق» آمرًا:

- ارحل الآن.

تقهقرتْ ثمرةٍ الطماطم مبتعدة في اضطراب أبهجني، بعد أن أرسلتْ من شدقيها سيلًا من كلمات غير مفهومة، في نبرة أسف واعتذار.

قصَّ عليَّ «شاهق» كل كلمة من اعترافات الحارس، يظن «شاهق» أنه قاتل «الكاتب الكبير»، إلا أنني عارضته:

- ليس هو يا «شاهق».. لأنني رأيته يغادر الفيلا ولم يرجع إليها ثانية.. تمامًا كما أخبرك في التحقيق.

انفعل كثيرًا، رغم أنني لم أنوِ استفزازه:

- أنت ساذج جدًا يا «أسمر».. الرجل هو القاتل لأنه الشخص الوحيد الذي كان قريبًا من الفيلا وقتها.. ولأنه العامل الوحيد فيها.. ليس حارسًا فحسب إنه يعتني بكل شيء يخص «الكاتب الكبير» من حراسته إلى تقليم أظافره.

- جيد.. ولكنني رأيته يغادر ولم أره يعود.

انفعل أكثر:

- هو القاتل بالتأكيد.. أقول لك لا أحد غيره كان في موقع الجريمة.. هو وأنت فحسب.. يعني ذلك إما يكون الحارس هو القاتل.. أو تكون أنت.

رفعتُ كفي في خوف، قلتُ:

- كما تقول، لن أتدخل في عملك.. لكن أخبرني من الذي ضربَ رأسي وأفقدني الوعي ليسرق الكاميرا؟

انفعل أكثر وأكثر:

- إنه هو بالتأكيد.. الحارس القاتل.. قتل «الكاتب الكبير».. ثم ضربك حتى أفقدك الوعي.

- جيد، لكن لماذا أخذ الكاميرا.. لماذا أراد الصور؟

- لعل فيها دليلًا على جريمته.

- كلا بالطبع لأن كل الصور في حافظة الكاميرا التقطتها قبل سقوط «الكاتب الكبير» من الشرفة.

- لا تهمني هذه التفاصيل اللعينة.. هو القاتل.. ربما ظن أنك صورته فأراد استردادها.. إنه رجل ذكي جدًا.. عطَّل كاميرات المراقبة.. واختلق حكاية عن ابنة الخادمة ذات معطف أصفر دخلتْ إلى الفيلا بعد أن أرسلتها أمـ.... «أسمر» هل أنت بخير؟

رحتُ أقفز في الهواء كمَن مسَّه جن، المرأة ذات المعطف الأصفر، نعم.. كيف نسيتها؟.. المرأة.. والمعطف الأصفر.. في تلك الليلة المشؤومة كانت ثمة امرأة ترتدي معطفًا أصفر دخلتْ الفيلا قبل مغادرة الحارس، وحتى اللحظة التي فقدتُ فيها الوعي لم تكن قد خرجتْ منها.. نعم هي..

صاحبة الظل في النافذة.. القاتلة التي دفعتْ «بالكاتب الكبير» ليلاقي حتفه.. أنا بريء.. أنا لم أقتل أحدًا.

أمسكتُ بذراعي «شاهق» كغريق يتعلق بقشة وحيدة في عرض البحر:

- يجب أن نعثر على هذه المرأة يا «شاهق».

ثم استطردتُ بانفعال صارخ:

- لأثبتُ أنها قاتلة.. وأنني بريء.

الريح الثائرة تكنس أوراق الشجر والأتربة، لكن ثورتي أكبر، تكنس ما بداخل عقلي وتلقيه في فم الإعصار.

«شاهق» لم يصدق أن المرأة موجودة، ولن يُحرك إصبعًا للبحث عنها، ظنها اختلاقًا عقليًا لأبرئ نفسي من «وهم الذنب».. هذا ما قاله «شاهق».. «وهم الذنب».. هل يُمكن للإنسان أن يتوهم نفسه مُذنبًا؟.. على العكس، الإنسان يحاول دومًا التنصل من ذنوبه، يصنع لنفسه «صنَم الأعذار»، يتعبَّد له بالآثام، يلقي إليه بالمزيد والمزيد، و«صنَم الأعذار»ودود رحيم لا يرُدّ له إثمًا.

قال «شاهق» أنني ماء ضحل.. روح تجوب منطقة آمنة على هامش الحياة، وأنني أردتُ أن أتبنى ذنبًا ليس لي لأكتسبَ شيئًا من الأهمية.. فقاتل «الكاتب الكبير» له نفس القدر من أهمية «الكاتب الكبير» نفسه.

إن كان «الكاتب الكبير» مهمًا فكل شيء يتعلق به له ذات الأهمية.. عاداته، اهتماماته، أصدقاؤه، أعداؤه، قاتله.. وحتى مخاطه.. قال «شاهق» أنني لا يمكن أن أكون قاتل «الكاتب الكبير»، وأنني بالكاد من الممكن أن أكون مخاطه.. أنهى كلماته بضحكة مجلجلة مؤكدًا أنه كان يمزح معي، ثم انصرف.

لكنه لا يعرف أن هناك شاهدًا وأدلة ضدي.. أدلة لا أستطيع إنكارها.. الصورة والساعة.

لم تثبط كلماته من عزمي.. قررتُ البحث عن المرأة ذات المعطف الأصفر بنفسي.. لا لأعلِّق عليها إثمي كالمشجب، بل لأعرف أيُّنا القاتل الحقيقي. ليس لـ «شاهق» أو لسواه، بل لأثبت للجزء المُنشق من عقلي أنني بريء.. أحتاج لذلك.. أحتاج لأن أنام.

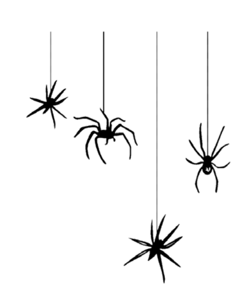
***

أمام مرآة غرفة النوم وقفتُ متأملًا.. هل يشوش عدم النوم وضوح الرؤية؟

أشعر بنفسي أتقلص أكثر.. بضعة سنتيمرات من هنا وهناك.. أجابني مولانا الشيخ «جو» ذات سؤال، أن إحساسنا بالذنب يصنع حجمنا الخاص.. إن استمر حالي على الوتيرة ذاتها حتمًا سأصاب بالتقزُّم.. أو الجنون.. أيهما أقرب.

كيف أعثر على تلك المرأة.. كيف؟

بالطبع، كيف لم أفكر في ذلك.. فجأة برز إلى عقلي صورة الكائن الوحيد الذي بإمكانه مساعدتي في هذا العَالم.. نعم.. لا يوجد غيره.. مولانا الشيخ «جو»!



(١٤)

الرواية القاتلة

«شاهق»

ابن الدهاليز يظن نفسه بالأهمية ليكون محط الأنظار، إنه لا شيء.. وسيبقى لا شيء.. يعجز حتى عن أن يكون قاتلًا خسيسًا.

لم أخبره بكل شيء عن القضية، تجاوزتُ الجزء المتعلق بحادثة الانتحار المتكررة.. ليس الانتحار فحسب، بل الجثث التي تنكمش حتى لا يبقى منها سوى الإبهام.

لم يكن الرجلان صديقين، يعملان في المعمل الجنائي نفسه لكنهما مجرد زملاء عمل، من المستبعد أن يكون انتحارهما قد حدث بالاتفاق المسبق بينهما. الرجلان مستقيمان ليس لديهما أي نوازع انتحارية ولا يعانيان من مشكلات جسيمة تدفع بهما واحدًا تلو الآخر إلى القفز من شرفة المعمل وسطحه.. والأهم من ذلك كله أن الأحراز لم يفحصها أحدٌ سواهما.

أستمرُ في قول «انتحار» لأنني لا أجد لتلك الحوادث الغامضة توصيفًا آخر.. لا قاتل.. إذن لا جريمة!

أعدتُ قراءة قائمة الأدلة والأحراز التي أخذتُها من مسرح جريمة مقتل «الكاتب الكبير» ثم أرسلتُها للمعمل الجنائي.. لم تكن القائمة مدونة على ورقة فتلك انمحتْ بالكامل، مثلما انمحى كل شيء له علاقة بـ «الكاتب الكبير».. لكن نسختها في رأسي بعد القراءة الأولى.. أذكرها قطعة قطعة: عُشب يحمل أثرًا لدمائه.. غصن شجرة مكسور مُدمًى..

ملابسه.. قلم.. فتات متناثر أثبت المعمل أنه لشطيرة سمك.. بعض الأوراق التي كانت ممتلئة ببقع زيتية فوق مكتبه، يبدو أنه كان عاكفًا على كتابة مقال عن اختفاء البحر.

وعثرتُ أيضًا بجوار الجثة على هاتف محمول، كان يقبض عليه بإحكام في يده اليُمنى أثناء سقوطه، وهو أمر غريب ليفعله مُنتحر.. وأيضًا كتاب كان مُلقى على أرض الغرفة.

لا شيء غير طبيعي.. باستثناء غصن الشجرة المكسور والذي كان يحمل آثارًا لدماء «أسمر» فوقها.. وفوق الأرض.. وهذا ما كنتُ أعرفه مُسبقًا إذ ذكر لي «أسمر» سقوطه من فوق الشجرة وإصابة قدمه، وحتى وإن لم يذكُره فقد رأيته بنفسي بينما كنتُ أتخفى في المقعد الخلفي لسيارته.

لكننا لم نعثر في معصم «الكاتب الكبير» على الساعة الفضية الكبيرة التي قيل أنه لا ينزعها أبدًا من معصمه، حتى زعم البعض أنه كان على استعداد لأن يخسر كل شيء إلا هذه الساعة!.. يبدو أنها إحدى تلك الشائعات التي لا نعرف من أين تأتي وإلى أين تذهب.

ما الذي فاتني إذن؟

قررتُ مغادرة المكتب رأسًا إلى المعمل الجنائي.. قد يكون كل شيء يتعلق «بالكاتب الكبير» اختفى من الوجود، لكن أغراضه بقيتْ على حالها.. مسكنه.. ملابسه.. أوراقه.. دفاتره.. كانت هناك دون أن تحمل عبقه الخاص، وكأن شخصًا غيره قد مسها.. وكأن ألف شخص غيره قد مسها.. لا تحمل منه بداخلها أي أثر.. لا بصمات ولا حمض نووي DNA.

الأحراز لم تختفِ مثله، وتلك نقطة يُمكنني البدء منها.

في المعمل الجنائي كان الوضع بائسًا أكثر مما ظننتُ، الخوف يُعشش في عيون الجميع، يلوكون في أفواههم حكايات عن حاصد الأرواح الذي حطَّ فوق مَعملهم واعتزَمَ حَش رؤوسهم واحدًا تلو الآخر.

توقُّع الموت أكثر قسوة من الموت ذاته، ربما لهذا السبب حجَبَ الله عنا ميقات الموت، ومع ذلك لو خُيِّرتُ بين أن أعرف أو لا أعرف؛ لاخترتُ أن أعرف.

كان صندوق الأدلة والأحراز بلا اسم، لزم ساعتين ونصف للعثور عليه.. الأغراض نفسها التي حوتها القائمة..

عُشب.. غصن شجرة.. ملابسه.. قلم.. فتات شطيرة سمك.. بعض الأوراق.. هاتف محمول.. وكتاب!

لم يكن كتابًا، بل رواية!.. يحمل غلافها اسم «الرواية التي قتلت قارئها».. لا اسم مؤلف.. لا اسم دار نشر.. لا رقم إيداع.. لا شيء على الإطلاق.. كيف أخطأ الشرطي المسؤول عن كتابة الأحراز هذا الخطأ القاتل.. كيف نسي أن يكتب اسم الكتاب؟!.. لعنة الله عليه.. لو قام بعمله كما ينبغي لاختصر عليَّ وقتًا طويلًا.

على الفور وضعتُ الرواية في حافظة بلاستيكية وأمرتُ بفحص صفحاتها بكل السُبل الممكنة، ما عدا اللمس المباشر.. ثم كتابة تقرير عنها ورفعه إلى مكتبي في أقرب وقت.

إن كان حدسي صحيحًا، فصفحات الرواية تحوي سُمًا أو مُخدرًا أو عقَارًا يُحرِّض قارئها على الانتحار!

❧❧

إذا أصبحتِ القضية تتطرق إلى خدع المجرمين في القتل بطُرق مبتكرة فإن أكثر من سيفيدني في هذا الأمر هو «الفنان».

لم أزر صالة البوكر منذ أيام.. لم أجد الوقت ولا الطاقة الكافية لأفعل.. استقبلني البعض بالترحاب، لم أكن في مزاج يتوافق مع مثل هذه الاجتماعيات، انطلقتُ مصيبًا الهدف بغير إبطاء:

- أريدك في أمر هام يا «فنان»

- يا مرحبًا.. «شاهق» باشا تذكرنا أخيرًا.. لم نعتد غيابك عنا كل هذا الوقت.

قاطعتُه قائلًا وأنا أرقب مَن حولي:

- اسمع ولا تقاطعني.. أريدك في أمر يخص قضية أعمل عليها.

بدا على وجهه مسحة من الاهتمام، واتسم صوته بالجدية وهو يقول بخفوت:

- أي قضية؟.. اختفاء البحر؟

تلك ليست قضية.. بل كارثة كونية.. أي أنها خارج اختصاصي. على سبيل الاختبار سألته:

- هل تذكر «الكاتب الكبير»؟

لأول مرة تبدو علامات البلاهة على وجه «الفنان»، وهذا لعمري شيء بديع.

كان من الكوميديا السوداء أن أضطر إلى مُشاركة مجرم عتيد تفاصيل القضية ليساعدني في القبض على مُجرم آخر.. قلتُ:

- هل تعرف طريقة يُمكن من خلالها أن تدفع رواية ما قارئها إلى الانتحار؟

ضحكَ بصخب:

- غير ضربه بها على رأسه؟

- إن كنت لن تأخذ الأمر بجدية أخبرني حتى لا أضيع وقتي معك.

- أنت محق، أعتذر.. مممم.. رواية تدفع قارئها إلى الانتحار.. هذا يُذكرني بشيء ما.. لا أعرف إن كان سيفيدك لكن....

- وما هو؟

- «تأثير فيرتر».

- وماذا يعني «تأثير فيرتر»؟

- سأخبرك إن لم تُقاطعني.. نسبة إلى رواية «آلام الشاب فيرتر» التي كتبها الأديب الألماني «يوهان جوته».. تعلَّق الشباب ببطلها وأخذوا يُحاكونه في أسلوب حديثه وطريقة ملبسه.. هل تُصدق ذلك؟.. أقدَم بطل الرواية مرهف الحِس على الانتحار.. فماذا حدث؟.. انتشرتْ في أوروبا موجة انتحارٍ بين الشباب ضعاف النفوس.. تقليدًا لبطل الرواية.. لم أرَ أسخفَ من ذلك!.. وبعد إصدار الرواية بقرنين أنشأ أحد علماء الاجتماع مصطلح «تأثير فيرتر» لوصف الانتحار بالمحاكاة أو التقليد.. هل تُفيدك تلك المعلومات يا تُرى؟

احتجتُ إلى فترة طويلة للتفكير.. تجاوزتُ الدقيقتين والنصف، حذرني «الفنان» من أن أتجاوز الثلاث دقائق صامتًا؛ فاضطررتُ إلى التحدث بما يدور في رأسي:

- أتعرف.. لا أظن أنه يفيد كثيرًا.. ما تقوله عن «تأثير فيرتر» ذاك هو حالة اجتماعية ونفسية نشأت لمجموعة من الناس بسبب قراءتهم لرواية.. لكن لا أظن أن هذا هو الوضع القائم في القضية.. لسبب بسيط جدًا وهو أن كل مِن يقرأها يموت.. ليس واحدًا من ثلاثة.. ولا حتى الثُلثين مقابل الثُلث.. بل مائة بالمائة.. كل من قرأها لقوا حتفهم بالسقوط من علٍ.

- مممممم.. فهمتُ مقصدك.. هذا يقودنا إذن إلى التفكير في.. «الظلال مِن جدران الموت».

- وماذا يكون «الظلال مِن جدران الموت»؟

- كتاب لن تجد منه في العالم الآن سوى نسختين فحسب.. كل من يحاول تصفحه يموت في الحال.. فأوراقه مُطعمة بمادة الزرنيخ السامة.

- ولماذا يؤلف أحدهم كتابًا كهذا؟

- «روبرت سي كيدزي» صاحب الكتاب أستاذ في علم الكيمياء، كان ينادي دائمًا بخطر ورق الجدران الملون الذي كان مُنتشرًا في أمريكا عام ألف وسبعمائة وتسعة وثلاثين، وذلك لتلوثه بنسبة من مادة الزرنيخ.. لكن أحدًا لم يستجِب لصيحاته فابتكر حيلة يدفع بها الناس للاهتمام بكلامه.. صَنع من أوراق الجدران مائة كتاب، كل واحد منهم يضم ستًّا وثمانين صفحة بلا كلمات، شبَّعهم تمامًا بالزرنيخ، ثم قام بتوزيعهم على المكتبات.. وكان محقًا، فقد استمع له الناس أخيرًا بعد أن رأوا الموت بأعينهم.. كل من شمَّ أو مسَّ الزرنيخ مات في الحال.. ولم يتبقّ من هذا الكتاب القاتل سوى نسختين فحسب في العالم كله كما أخبرتُك.

- أي عقل مريض هكذا؟!

- ليس عقلًا مريضًا.. بل مُبدعًا.. يستطيع الإنسان أن يفعل أي شيء في سبيل أن يستمع الناس إلى كلماته.. الكلمات حية مثلي ومثلك، وإذا لم تجد أذنًا تلجها، وعقلًا تستقر فيه؛ انكمشت وماتت.. وصاحب «الظلال مِن جدران الموت» أراد لكلماته أن تُخلَّد.. فما الخطأ في ذلك؟

- وأيضًا تسألني!.. ألا يُمكن أن يكون الخطأ في أنه قتل بشرًا من لحم ودم في سبيل إحياء كلماته اللعينة؟

- لا أقول أن الوسيلة صالحة.. لكن النية صالحة.

- النية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد.

- ولا تُفسد نفسها كذلك.. في النهاية كلنا نختار ما نؤمن به.. وما يُمكن التضحية به في سبيل هذا الإيمان.

- وبماذا تستطيع أنت أن تضحي في سبيل فنّك؟

ضحك باستمتاع حقيقي قائلًا بمكر:

- لا تسأل.. انتظر الفرصة المناسبة لترى بنفسك.

وكنتُ بالفعل أنتظر الفرصة المناسبة.. لكن للقضاء عليه. تجهَّزتُ للمغادرة، أوقفني بقوله:

- آه تذكرتُ.. هناك كتاب ثالث خطرَ على عقلي الآن.

دُرتُ على أعقابي، جلستُ بجواره ثانية، لوَّحتُ بيدي أستحثه على مواصلة الحديث، استطرد وقد عاودته الجدية:

- «نيكرونوميكون».. إذا كانت «آلام الشاب فيرنر» هي الرواية المشؤومة.. و«الظلال من جدران الموت» هو الكتاب المسموم.. فـ «نيكرونوميكون» هو الكتاب الملعون.. من يمتلكه ناقصًا تحل عليه اللعنات.. يدور حول استخدام السحر للسفر بالزمن إلى الماضي.

- السفر بالزمن!

- نعم، يعني هو تشبيه ولكن قريب جدًا.. فالادعاءات تقول أن للكتاب قدرة على إنطاق الموتى والتواصل مع أناس عاشوا في الماضي.. يا عزيزي «شاهق» باشا ثمة أناس يثير شغفهم الغيبيات والتحرك نحو المستقبل.. وثمة مَن يسيل لعابهم مِن أجل الماضي.

- أغبياء، عمَّ يبحثون في الماضي والمستقبل؟

- عن الجمال!

- أي جمال؟

- الجمال الذي يجعل الإنسان يتمسَّك بالحياة.

اكتفيتُ، إذ بدأ حديثه يفقد ترابطه، ويحيد بنا عن القضية الأساسية. لعبتُ على الوقت الذي أمضيته فوق مقعد اللاعب.. لم تعجبني الكلمات التي فزتُ بها.. ثم فارقتُ «الفنان» غير مودع.

وما إن وصلتُ إلى سيارتي حتى شعرتُ بالهواء ثقيلًا يجثم فوق النفوس.. كان يبدو أن شيئًا ما في الأفق يُنذر بالخطر.. تتبعتُ آثاره حتى أوصلني إلى الحادث الكارثي الجديد.

تبخَّر البحر الأحمر!

وفي الوقت ذاته تلقيتُ مكالمة هاتفية برقم محجوب، كانت من القيادة العُليا.. لا تزيد عن بضع كلمات لكنها بمثابة قُنبلة موقوتة على وشك الانفجار:

- المقدم «شاهق»، نُعلمكَ أنه تم إطلاق النداء الأول لسفينة نوح، اتبع البروتوكول فورًا.

واريتُ القلق وأجبتُ بحزم:

- تمام يا فندم!



(١٥)

النداء الأول لسفينة نوح

كما قال مولانا الشيخ «جو» في زيارته الأخيرة له:

- العلامة الثانية لنهاية العالم هو اختفاء اللون الأزرق من الأرض!

وها قد تبخَّر البحر الأحمر كذلك.

أرسل «حصان طروادة» براغيثه تسعى لتحصد له الخبر اليقين، ظن بأنه يتفوق على الجميع في الإلمام بحقيقة الأمر.. لكن النداء الأول لسفينة نوح كان قد انطلق بالفعل، حتى قبل أن تعود براغيثه مُحملة بالأخبار.

ذِيع الخبر في كل مكان، وعبر جميع وسائل الإعلام. يتصدر بيان الدولَة الرسمي هذه الكلمات:

- بيان عاجل.. تعلمون أيها الشعب الطيب الكريم بصراعنا الأزلي مع «العلماء».. الذي بدأ كتنافس شريف في سبيل مصالح الوطن، ثم أضحى نزالاً على السُلطة ونزاعًا على السيادة، أدى بهؤلاء الخبثاء إلى تضليل الشعب، وإلحاق الأذى النفسي والجسدي بهم.

وآخر مؤامراتهم الشنعاء هو «فيروس الضمير».. الذي يُدمر المراكز العصبية في المخ.. ويؤدي إلى الهلوسة والخرَف وفقدان الصلة بالواقع.. امتلأت مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية بضحاياهم، حتى اضطررنا إلى اتخاذ الملاعب والنوادي والاستراحات والجراجات مستشفيات لاستقبال المرضى.. وأصبح الأطباء النفسيون والأخصائيون النفسيون تحت الطلب أربعًا وعشرين ساعة.. وكل ذلك في محاولة يائسة لإنقاذ من يُمكن إنقاذه.

وفي خضم هذا السباق مع الفيروس لإنقاذ الشعب من الهلاك، ضرب «العلماء» ضربتهم الجديدة.. والتي أثبتتْ أن صراعنا معهم ومحاربتهم كان قرارًا صائبًا من البداية.. لقد أطلق «العلماء» قبل ثلاث وأربعين دقيقة «النداء الأول لسفينة نوح».. من ركبها فاز.. ومن تخلَّف عنها هلَك!

أصبحنا الآن في سباق جديد.. لكن مع الزمن هذه المرة.. لقد توصلت مخابراتنا الوطنية إلى أن هؤلاء الخبثاء الملقبون زورًا بـ «العلماء» قد قاموا بوضع قنبلة عالمية ستنسف عالمنا الذي نعرفه!

فخخوا أرضنا وبلادنا بقنابلهم المُميتة.. وبنوا سفينة كبيرة في موقع مجهول لم ترصده أجهزتنا حتى الآن.. أسموها «الجنة الخضراء».. وضعوا أنفسهم مكان الرب.. واقتبسوا سُلطاته.. الذي يؤمن بهم سيدخل جنتهم الخضراء.. والذي يكفر سيتركونه هنا في الجحيم العالمي..

المؤمن في نظرهم هو ذاك الذي خضع لمشيئتهم وعبثهم وقرر إصابة نفسه بفيروس الضمير.. لم يعد الأمر يقتصر على إخضاع قريبك أو صديقك لهذا الفيروس.. فمع النداء الأول لسفينة نوح أصبح بإمكان المرء أن يُخضع نفسه بنفسه لعبث رغباتهم وأفكارهم الشاذة.

وأنا أطالب الجميع باسم أعلى سُلطة في الدولة ألا يستجيب الناس لدعوتهم الضالة المُضلة.. اتركوهم وجنتهم.. فالعالَم الحقيقي هنا حتى وإن كان جحيمًا لا يُطَاق.. والله الموفق والمستعان.

⁂

صارتْ وتيرة الأحداث تركض بسرعة جنونية، لا يكفي عقل المرء لمتابعتها، ومحاولة حسم ردة فعله بشأنها.

البراغيث تزحف ببطء فوق جسد «حصان طروادة» مُفارقة إياه، تُسري بأقدامها الملساء قشعريرة خفيفة على طول طريقها.

يجب أن يصل إلى هدفه قبل أن يتدمر العالَم بأسْره، سيرتحل بالزمن إلى الماضي فينجو بنفسه من جحيم بلاده، وجنة «العلماء».. كلاهما لا يروق له العيش فيهما.. كلاهما هراء.

لا ليس هراءً بالكلية.. ربما تنجح «الجنة الخضراء» في أن تكون بديلًا جيدًا عن تلك الحياة البائسة، ربما يجد الناس فيها كل ما كانوا يحلمون به.. أليستْ جنة؟.. وهكذا هي الجنان.. فيها ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر.

تُرى ما هو ماضي الجنة؟.. ما الذي حوته الجنة قبل أن يدخلها البشر؟.. كيف أنشأها «العلماء»؟.. وماذا فعلوا بها قبل أن يفتحوا أبوابها أمام العامة، تُرى كم باب لها؟.. وهل لها حُرَّاس؟.. هل فيها ليل ونهار، هل فيها عمل وشقاء؟.. لا يظن ذلك، وإلا لما كان اسمها جنة.. لكن لماذا خضراء.. لا زرقاء؟.. فالبحار تختفي وربما يصير اللون الأزرق شحيحًا في عالمنا.

***

«خيال».. المرأة ذات المعطف الأصفر عليه أن يتواصل معها في أقرب وقت ممكن.. بل الآن.

هذه المرأة واحدة من ثلاثة غيره يتذكرون «الكاتب الكبير».. ونمى بداخله إحساس صارخ بأنها تملك من المعلومات أكثر مما يملكه السائق والضابط.

لم يكد يأخذ قراره بلقائها حتى نفَّذ في الحال، وخلال ساعة كان على أعتاب ناديها.. نادي البحر.. المُعَد لاستقبال المرضى المتأثرين بأعراض أنفلونزا الضمير.

حسب ما أخبرته به البراغيث عنها خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية فهي جميلة، ذكية، ماهرة في عملها، تتحمل الضغوط، والأهم من كل ذلك شخص موثوق.

لكن بقيتْ المشكلة الأصعب بالنسبة له، كيف يفتتح حوارًا معها، هل يدخل في صلب الموضوع ويخبرها أنه يعرف جيدًا أنها واحدة من أربعة أشخاص يتذكرون الكاتب الكبير؟.. بالطبع رسمتْ له براغيثه في مخيلته صورة لوجهها.. وبات يعرف شكلها.

كان العثور عليها صعبًا، فالنادي مَبنى ضخم على مساحة كبيرة.. آخر ممرضة سألها عن «خيال» أخبرته أنها في المبنى الثالث، لكنه أخذ وقتًا أطول مما ينبغي حتى تمكن من الوصول إلى المبنى والبحث عنها في طوابقه الأربعة وأروقته التي تكاد تكون كالممرات السرية.

وأخيرًا التقى بها وجهًا لوجه.

بدتْ له أنحف من الصورة التي رسمتها براغيثه لها، وأجمل كذلك، بأنفها الدقيق المرسوم بعناية.. ما أجمل أنفها!

دنا منها أكثر، لكن حركته عادتْ بطيئة.. بطيئة جدًا.



(١٦)

مريض الغرفة «اثنان وستون».

«خيال»

الهواء في غرفته ليس كخارجها، يُفلتر الهواء برئتيه، أشمُّ عطر المسك وأنا أدنو من مكتبه الصغير قُرب النافذة المُسيّجة بالحديد كأبواب الزنازين، لم يسمع خطواتي كعادته إذ كان شاردًا.. مسحتُ بيدي فوق شعره الأبيض فانتبه..

ابتسم لي.. أمسك بيدي.. أجلسني فوق طرف فراشه.. كل شيء في الغرفة كان أبيض.. نظيفًا.. نقيًا.. مثله.

ساحتْ عيناه بشغف في حقيبة يدي.. فتحتُها.. أخرجتُ منها كتابين.. تهلَّل وجهه.. وضحكتْ عيناه.. أخذهما مني بغير كلمة واحدة.. لا يحب الحديث كثيرًا.. ولا أنا أحب الأصوات.

في عالمنا الخالي من الأصوات رحنا نعزف سيمفونية وجدانية خاصة بنا.. فتح الكتاب الأول.. قلَّبه كما يُقلَّبُ السمك أثناء شوائه.. دسَّ أصابعه بين ورقاته.. عض الغلاف بأسنانه.. وضعه بجوار أذنيه وحاول الاستماع إلى صوت يخرج منه.. تشممه.. تنفسه.. ولمَّا ظلَّ الكتاب كتابًا.. كرر فعلته مع الكتاب الثاني.. ثم وبروية شديدة أخذ يمزق صفحاتهما.. ويلقي بهما أرضًا.

تركته.. إذ عاد إلى شروده.. الذي لن يخرجه منه سوى كتاب جديد!

هكذا يمضي وقته بين تأمل السماء من نافذة مُسيجة.. وكتب ممزقة.

مسحتُ فوق شعراته البيضاء.. قلتُ:

- أبي الحبيب لا تقلق.. يومًا ما سينتهي كل الألم.. ألم أعاهدك بذلك.. ثق بي أرجوك.

عيناه تمسحان وجهي.. تُقبله.. تُدفئه.. الأمل يُعافر كي يفارقني، لكنني روَّضته.. وقلتُ:

- ستُسافر إلى أروع البلاد.. ستتلقى علاجك عند أشهر الأطباء.. ستشفَى كما لم يشفَ أحد.. ستعود إلى عالمك.. إليّ.. لا تقلق يا حبيبي.. سأعيدك إليّ.

تترقرق في عينيه العبرات، يهمس لي:

- لا أريد أن أعود.. أريد الذهاب.

أضم رأسه إلى قلبي.. يبكي.. فأبكي.. ينتفض.. فيرتجف صوتي:

- أبدًا لن أسمح لك بالذهاب.

أسحبه إلى فراشه.. أساعده على الاستلقاء.. أدثره.. أودعه بقبلة فوق جبينه.. أفارق غرفته.. لكنه معي أينما ذهبتُ.

***

غلبتني العبرات حتى صنعت غشاوة على عيني، لكنها انقشعت سريعًا ما إن تناهى إلى مسامعي صوت صراخ.. إلى إحدى الغرف القريبة ركضتُ.. فرأيت ثلاثة ممرضين يحاولون تثبيت رجلٍ إلى الفراش.. سألتهم:

- ماذا يحدث هنا؟

أجابني أولهم وهو يكافح كي يبقى أظافر الرجل القذرة بعيدة عن وجهه:

- مريض جديد.. لكنه ثائر جدًا كما ترين يا دكتورة «خيال».

دنوتُ منه.. لم أتمكن من أن أتبين ملامحه وسط لطخات الطين والوسخ.. ملابسه قذرة.. رائحته قذرة.. كل شيء فيه كان منفرًا.

- من يكون؟.. وما هو وضعه؟.. ومن أحضره إلى هنا؟

- عامل مشرحة.. هذا كل ما نعرفه عنه.. لا يحمل بطاقة هوية.. أحضرته الشرطة بعدما حاول أن ينبش المقابر؟

- المقابر؟

- نعم يا دكتورة «خيال».. أخرج رفات سبعة قبور وفي الثامن قُبض عليه.

سألتُ باستهجان بينما الرجل لا يزال يحاول الفكاك من قبضتهم:

- ولماذا أحضرتموه إلى هذا القسم.

رفع أحد الممرضين يد الرجل اليُمنى موضحًا:

- لأنه أحدهم.

فهمتُ على الفور مقصده، إنه أحد الخاضعين للجراحة. وهنا صاح الرجل بكلمات مفهومة للمرة الأولى بدلًا من الصراخ:

- اتركني.. حاذر.. يا ابن الـ....!

وجهّتُ حديثي إليه بحزم، أُسايره في أوهامه لأتمكن من السيطرة عليه:

- اهدأ إن كنتَ لا تُريد ليدك الزجاجية أن تتكسر.

- اتركوني.. أريد الخروج من هنا.

- لا أحد يخرج من هنا.. يُفضَّل أن تعتاد ذلك سريعًا.. إما هنا أو السجن.. لا تنسَ أنك ارتكبتَ جريمة شنعاء بنبش قبور الأموات.

اهتاج أكثر.. تشدق صارخًا:

- ليسوا أمواتًا.. لا أحد منهم ميت.. المقابر خالية.. من الأموات ومن الدود.. نحن الأموات.. نحن الدود.. نحن الدود.

لم أعد أتحمل صرخاته.. أصدرتُ لهم أمرًا بإعطائه بعض المهدئات، ثم انصرفتُ في الحال، وصدى كلماته يتردد عبر الرواق الطويل:

- نحن الدود.. نحن الدود!

كدتُ أصطدم بإحدى العاملات في الرواق:

- دكتورة «خيال»، هناك رجل يبحثُ عنكِ!

ظننه في البداية زائرًا لأحد المرضى، لكنها قالت لي أنه أحد المشاهير، لم أعبأ بسؤالها عمن يكون، فالنادي يعُج بأمثاله.

- تفضل، قالوا أنك تبحث عني؟

عرفته ما إن وقعتْ عيناي فوق وجهه، إنه صحفي شهير له سمعة كقطعة من الليل الأسود.. أكره هؤلاء الصحفيين الذين يتربعون فوق عروش النجاح بفضل أشلاء مشاعر الآخرين، وأنقاض حيواتهم الخاصة.

- ألا تعرفيني؟

ببرود أجبته:

- كلا.. لا أعرفك.

- مستحيل.. تذكري قليلًا.. «حصان طروادة».. أشهر صحفي في البلاد.

يا له من مُتكبر، ما أبغضه:

- من فضلك لا تضيع وقتي.. إما أن تخبرني بما تريد أو ارحل في الحال، لدي الكثير من العمل.

- اسمعي، لا أريد أن أتسبب لكِ في أي إزعاج.. لكنني بحاجة ماسة إلى مساعدتك.

كيف أدفعه لأن ينصرف؟.. قلتُ:

- كيف بإمكاني أن أساعدك؟

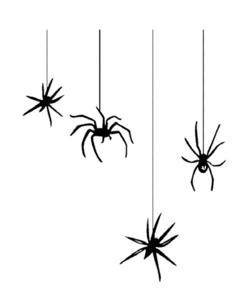
- «الكاتب الكبير».

وكأن قذيفة ما سقطت فوق رأسي، فحوَّلتْ مكتبي إلى أشلاء.. اختفى النادي واختفى العالَم ولم يبقَ فيه إلا أنا وهو.. تصر تلك الليلة على مُلاحقتي بمخالبها وأنيابها.. الماضي لا ينتسى بل يتظاهر بالنوم حتى يسهو عنه الحمَل، ثم ينقض فوقه يُمزقه ويرتوي بدمائه، أنهيتُ الحوار قائلةً بعناد:

- لا أعرفه.

كان على وشك الاعتراض، وكنتُ على وشك طلب الأمن لأدفعه للمغادرة، إلا أن الممرضة اقتحمتْ المكتب هاتفة:

- دكتورة خيال.. مريض الغرفة «اثنان وستون» حاول قتل نفسه مرة أخرى!



(١٧)

البقرة الضاحكة.

«أسمر»

لا أحب الدخول إلى صومعة مولانا الشيخ «جو»، ليس لأن جوها مُقبض، على العكس فهي مضيئة على الدوام، لكنني لم أشعر بالارتياح تجاهه قط. دومًا آخذ منه موقف الحَذِر، وكأنني أدنو من ضبع نائم، من الممكن أن يستيقظ لينهشني في أي لحظة.

قبل أن أزوره للمرة الأولى في الرابعة عشر من عمري كنتُ أظنُ أن رأسه كبير بسعة صومعته، وإلا كيف يحفظ كل تلك المعلومات والأخبار وصغائر الأمور وسفاسفها في رأسه؟

كنتُ أعجب به كثيرًا، حتى تمنيتُ أن أصير يومًا ما مولانا سوبر مان.. لكن ما قطع أواصر هذا الإعجاب هو أن مولانا لا يُغضِب أحدًا.. ولا يغضَب من أحد.. لم أر مخلوقًا واحدًا يشعر نحو مولانا بالَنقمة، لا يملك الناس تجاهه ثقافة المقاومة، لستُ مُتمردًا بطبعي، ولا أملك شرارة تكفي لتُشعلني بالثورة، بيد أنني لا أستسلم بالكامل لأي شيء أو لأي شخص.

وكان الناس يُقدمون عقولهم وعاء بين يدي مولانا.. يملأه بالعِلم و بالدين والرضا والسلام.. وكذلك بالجهل والكفر والسخط والعنصرية. وعاء بإمكان مولانا أن يأكل ويتبوَّل فيه في الوقت نفسه. ولم يكن مولانا يشعر تجاه أحد بالضيق أو التأفف أو الازدراء.. مهما تنمَّر الآخرون عليه.. كان يُسامح ويغفر ويصفح.

استفزني كثيرًا.. جعلني أشعر أنه مخلوق من طاقة نور.. لا من طين كأمثالنا من البشر.

كائن لا يَغضَب ولا يُغضِب.. لا يمكن الوثوق به.

وكان أيضًا يُسأل ولا يَسأل.. وأنا أحب أن يوجه لي الآخرون الأسئلة.

صومعته طاقة نور، مثله. ولجتها في وَجَل. لا زلتُ لا أتمكن من اصطياد النوم في شبكتي؛ لذلك أعصابي فائرة تفوح بالهيجان. الضوء الأبيض أزعجني، وددتُ لو أطفأته بالكامل.

أرى مولانا مُتربعًا هناك في صدر الصومعة، باشًّا مُرحبًا بزيارتي، وإن كنتُ أثق أنه لا يتذكرني، إذ كيف يتذكرني بينما يزوره آلاف البشر.. مُريدوه كُثر، وكذبَ مولانا إن زَعم أنه يتذكرهم جميعًا.

- هل أنت متفرغ يا مولانا؟

- كيف حالك يا «أسمر».. هل أصلحتَ عطل سيارتك؟.. ألا زلتَ لا تحلُم؟

بئس أمرك يا مولانا.. كيف تذكَّرتني وأنا لم أخط عتبتك منذ سنوات!.. هذا يُخيفني.. يُخيفني كثيرًا.. رفعتُ حذري إلى طاقته القصوى.

جلستُ بين يديه جسدًا طائعًا خاضعًا مثلما يفعل كل مُريديه، لكن عقلي ليس كذلك.. بادَرني:

- ابحث في جعبتي عما تريد.. أو قل عنوان موضوعك.

عبارته السخيفة نفسها، لا أدري من أي ثقافة اقتبسها، لكني دومًا أراها سخيفة إلى أبعد مدى. طال الصمت بيننا، ينتظر أن يسألني، وأنتظر أن تكون قدراته قد تطورتْ إلى درجة أن يُخمن سؤالي قبل أن أسأله، أخيرًا قلتُ:

- أبحث عن امرأة.

لم تنِد عنه كلمة.. فانتبهتُ إلى أنني منحته جملة خبرية بدلًا من استفهامَية، تداركتُ:

- هل تعرف امرأة ترتدي معطفًا أصفر؟

ضحك حتى كادت الجدران تنشق لضحكاته:

- أنا لستُ حاويًا يا «أسمر».. أُخرِج لك من القبعة أرنبًا أو امرأة ذات معطف أصفر.

- للأسف لا أعرف عنها المزيد.

حفَّنا الصمت لثانيتين، قطعته في الثالثة:

- هل تعرف امرأة ذات معطف أصفر على صلة بـ «الكاتب الكبير».. بشكل ما؟

- لا أعرف من يكون «الكاتب الكبير»!.. تلك هي المرة الثانية التي يسألني أحدهم بشأنه.. غريب!

يا إلهي، كنتُ أظن أن العالم كله بإمكانه أن ينسى، لكن مولانا الشيخ «جو» لا يسهو ولا ينسى:

- ومن سأل الأولى؟

- صحفي شهير يُدعى «حِصان طروادة» بالتأكيد تعرفه.

- صحفي شهير يُدعى «حِصان طروادة» بالتأكيد تعرفه!.. نعم.. أعرفه.

ها أنا أُردد كلمات الآخرين مرة أخرى.. ليتني أتوقف عن هذه العادة الغبية!

عقلي يتفسَّخ، كلما ولجتُ بابًا وجدته موصدًا بمفتاح ضائع.. الآن ليس لدي سوى خيارين لا ثالث لهما.. إما التوقف عن البحث، كمجرم يُحاول الفرار بجريمته. أو المضي قدمًا إلى «حصان طروادة». فإذا كان قد سأل مولانا عن المرأة فلابد أنه يعرف عنهاَ أكثر مما أعرف.

في خضم هذا الصراع وجدتُ نفسي أسأله بغير تفكير أو ترتيب مُسبق:

- ماذا تعرف عن البراغيث الزرقاء يا مولانا؟

- البراغيث الزرقاء.. لا يسألني الكثيرون عن البراغيث الزرقاء.. هذه المعلومات خاصة.. خاصة جدًا يا «أسمر».. خاصة إلى درجة أنني لا أستطيع منحها لكل من يطلبها.. عليك أن تُقدِّم ثمنًا يليق بها يا «أسمر».

- لا أملك مالاً يا مولانا، ثم هل يحتاج مولانا الشيخ «جو» إلى المال؟

قلتُها ساخرًا، فلم يغضب:

- صدقتَ يا «أسمر».. لا أحتاج إلى المال.. المال مثل الماء لا يحتاجه إلا كائن حي يعيش عليه.. تخيل لو أن جسمك لا يحتوي خمسة وسبعين في المائة منه على ماء.. تخيل لو أن خلاياك تحيا وتعيش وتكبر وتتكاثر بدون ماء.. ما كنتَ ستحتاج أبدًا إلى الماء.. ولما اهتممتَ بتبخُّر كل أنهار العالم.. لا أحتاج إلى المال لكن المعلومات الثمينة تحتاج يا «أسمر».. إنك تُقدِّم ما يليق بها لا ما يليق بي.. تبذل ما تحتاجه هي لا ما أحتاجه أنا.

كان كلامه محض هراء، هو طمَّاع ويأبَى أن يعترف بذلك، لكن أثارتْ كلماته شيء آخر في نفسي:

- هل من الممكن أن تختفي الأنهار يا مولانا.. مثل البحر؟

- لا أرى مانعًا يا «أسمر».. لا أرى مانعًا أبدًا.

- ولماذا تختفي البحار يا مولانا؟

- ربما لأن أحدًا لم يعد ينظر إليها يا «أسمر».. ربما هي غاضبة من هجر مائها الأزرق.

- الماء ليس أزرق يا مولانا.. إنه يعكس لون السماء لا أكثر.

صمتَ، فتداركتُ بسؤال:

- أليس كذلك؟

- بلى، أنت على حق.. لذلك أخشى أن يكون كل ما يحدث حتى الآن مجرد مرحلة تمهيدية قبل انكماش السماء.

- السماء!.. مستحيل.

أخذتِ الخيالات تعبث برأسي.. ماذا لو تبخَّرتِ الأنهار.. والآبار.. ثم انطوتِ السماء.. ماذا لو اختفى اللون الأزرق من العالَمِ كله كما يدعي مولانا؟.. على أي ذنب يُعاقَب الملايين من البشَر حول العالَم؟

ثم أي سماء ستختفي.. الأولى فحسب، أم السماوات السبع؟.. هل سنرفع رؤوسنا فنتمكن من رؤية الجنة والنار جهارًا؟.. هل سنرى العُصاة يتقلَّبون في دركات الجحيم بينما المؤمنون ينعمون في درجات الجنة؟..هل هذا سيكون داعيًا لأن نكون أفضل؟.. نفعل الخير ونُعرض عن السوء.. هل عندئذ سيؤمن بهما الملحدون والمُنكرون لوجود حياة أبدية بعد الممات، أم سيتمسكون بغِيِّهم؟

مولانا يحلو له أن يكون مصَّاصًا لدماء العقل، يأخذ منه ما يشتهيه، ويلفظ فيه ما ينتقيه.

- ألا يحتاج جسدك إلى الماء يا مولانا؟

- غذائي من نور يا «أسمر».. طاقة نور!

انتابتني رعشة خفيفة، إما أن مولانا بإمكانه أن يخترق رأسي وقراءة ما أفكر فيه، أو أنني أعاني من وهم سبق الرؤية لأني على ثقة من أن الكلمات ذاتها دارت في رأسي منذ لحظات فحسب!

- هل تقرأ أفكاري يا مولانا؟

- بالطبع أفعل يا «أسمر».. أعرف كم تعاني من الشعور بالذنب لأنك قاتل «الكاتب الكبير».

انتفضتُ هاتفًا بزعر:

- ما الذي تهذي به؟.. لستُ قاتله.

- لا أهذي يا «أسمر» أنت قاتله.. وستقتل ثانية.

-أقتل ثانية؟.. من؟

- ستقتل رجلًا لا تعرفه.

- ولماذا أقتله إن كنتُ لا أعرفه؟

- لأن أحدًا سيطلب منك ذلك.

احتشدتْ شياطين الغضب أمام وجهي، والخوف كذلك.. صحتُ هازئًا:

- هل بتَّ تطلع على الغيب يا مولانا؟

- هذا ليس غيبًا يا «أسمر».. بل خطوات مُعدة مُسبقًا.. من أجلك أنت.. حينما يحين الوقت اقتله يا «أسمر».. اقتله وأنقذ نفسك والآخرين.

وفي هذه اللحظة حدث شيء عجيب ربما يراه بشري للمرة الأولى، انهار مولانا «الشيخ جو» أرضًا وكأن الله أمر ملكًا موكلًا بقبض روحه.

كلا، لم يمت.. أرى أصابع يديه مرتعشة، وشفتيه تنتفضان.. تختنقان بكلمات يود لو يقولها لكن قوة ما تمنعه.

وقبل أن أستغيث بأحد خُدَّامه، كان قد نهض في لمح البصر.. استعاد مولانا «الشيخ جو» في لحظات كامل لياقته!

ثم نظر إليّ قائلًا بابتسامة لزجة وكأننا لم نُجرِ معًا حوارًا طويلًا منذ قليل:

- ابحث في جعبتي عما تريد.. أو قل عنوان موضوعك!

لم أجبه، غادرتُ الصومعة في الحال، وقد بات التنفس بداخلها مهمة عسيرة.

سأقتل ثانية!

سأقتل ثانية!

نفضتُ هذا الهذيان عن عقلي.. يجب أن أستمر في سعيي عن الحقيقية بعدأن أصبحتُ أعرف طرف الخيط الذي سيربطني بالمرأة المنشودة.. «حِصان طروادة».

انطلقتُ بالسيارة، لاحتّ مني نظرة صوب المرآة.. دققتُ النظر مُتعجبًا.. لماذا لم تعد المرآة تعكس الصورة تمامًا.. لماذا أصبح فيها انحراف في الشكل؟!

«شاهق» لن يُساعدني.. لن يهتم.. قدتُ سيارتي بسرعة لم أعتدها.

آه كم أشتهي النوم الآن، لا آبه إن غصبتُ فيك حتى النخاع بينما أقود السيارة، وليحترق العالَم بما فيه.

أتعجَّب أحيانًا من رغبات الآخرين، ولا أشعر بأهميتها إلا حينما تتملك حواسي.. عندئذ أفهمها.. وإذا فهمتها اشتهيتها.. والنوم في هذه اللحظة انتقل إلى أعلى نقطة في هرم الشهوة. لا ليست الأعلى، تفوقها رغبتي في العثور على تلك المرأة، وانتزاع اعترافها بقتل «الكاتب الكبير».

هرم «شلبي سليم الفخراني» يعلوه المال.. أتفهم ذلك.. لكن المشكلة هي أنني لا أملك ما أشبع به شهوته.. لذلك تخيَّرتُ مرتبة أخرى مميزة في هرمه.. صورة للممثل العالمي «دينزل واشنطن» التقطتها بنفسي أثناء زيارته حارتنا منذ عدة أشهر.

تحديدًا عندما دخل قهوة «محبي اللبن الطازج» ليطلب سطلًا من اللبن، فأخبره رواد المقهى أن اللبن لا يوضع في سطل أو أكواب، بل يُشرب مُباشرة من ضرع البقرة؛ فافترش «دينزل واشنطن» الأرض أسفل البقرة، وارتوى بحليبها بتلذذ أدهشني، ألا يوجد لبن طازج في بلاده؟

يومها أخبرني «شلبي سليم الفخراني» برغبته في الحصول على تلك الصورة.. صحيح أنه لا يظهر فيها بجسده، إلا أن طرف جلبابه أطلَّ بوضوح من يسار الصورة.. وفي منتصفها «دينزل واشنطن» يستند بظهره إلى البقرة.. وحوله جمع غفير من سكان الحارة.

لكنني أبيتُ أن أعطيه إياها.. كانت مميزة بشدة، إلى الحد الذي جعلها محط أنظار أغلب سكان الحارة.. لن يزورنا ممثل عالمي كل يوم، ويشرب من حليبنا، أليس كذلك؟

الصورة لا زالت تحتل موضعها فوق جدران البناية من الخارج، أزحتُ السلم الخشبي، ثم تسلّقته.. نزعتها بحرص شديد كيلا أفسدها.. حتى أنني سمعتُ صيحة تند عن رجل مسن لديه محل بقالة على بُعد ثلاثة مبانٍ:

- لا تفعل يا بُني.. لماذا تزيل الصورة.. أبدو رائعًا فيها كثيرًا.. أحبُ أن أتأملها في الصباحات العكرة، فتمنحني شعورًا بالرضا.

- اعذرني يا عم.. أحتاجها في مكان آخر.

مصمص شفتيه في أسف بالغ. انطلقتُ بها من فوري إلى شقة «شلبي سليم الفخراني»، طرقتُ الباب كثيرًا، لم يكن بالداخل.. احترتُ هل أذهب إلى محل الكشري، قهوة «العطَّاسين»، الصيدلية، أم تُراه لا يزال في دوام عمله بالجريدة؟

تخيَّرتُ في النهاية محل الحلاقة بعد تردد طال، وكنتُ مُصيبًا في اختياري.

جلستُ بين يدي «شلبي سليم الفخراني» على المقعد الفارغ.. من سوء حظي أن المحل كان خاليًا من الزبائن..تركتُ شعري عُرضة لعبث مشطه وبطش مقصه، يفتح فمه على أقصاه، ثم ينقض على شعري قاضمًا بعضه.. وبشكل عشوائي!

بادرني:

- لمن أدين بهذا الشرف؟.. كنتُ أدعوك كثيرًا للحلاقة عندي لكنك لم تُجِب الدعوة قط.

- أحببتُ أن أدردش معك قليلًا، ثم.. لدي هدية لك.

ما إن أخرجتُ الصورة من جيبي حتى اتسع بؤبؤ عينيه دهشة، قال:

- هل حقًا ستُهديني إياها؟

- نعم.. بالطبع.. هي لك الآن.

تلمَّسها بابتهاج طفل حصل على حلواه المفضلة.. كنتُ لأمنحه الوقت كله في إبداء سعادته، لكنني لا أملك الوقت، أردفتُ:

- بالمناسبة أريد منك خدمة صغيرة.

- إياك وأن تقول أنك تريد مقايضة الصورة بأموالي؟.. صحيح أن المرء لا يجتمع مع «دينزل واشنطن» كل يوم في صورة واحدة إلا أن مالي أحب إليّ منها.

كان بإمكاني أن أخوض حوارًا زائفًا عن عدم علاقة الهدية بمطلبي.. لكن عدم النوم أثَّر على مُستقبلات الحِس الذوقي.. وجعلني أشبه بإنسان مشلول اجتماعيًا.. قلتُ:

- أنت على حق أريد مقايضتك لكن ليس الصورة مقابل المال.. بل الصورة مقابل معلومات.

ضاق بؤبؤ عينيه، سأل:

- أي معلومات؟

- «حصان طروادة».. أريد أن أصل إليه.

- ها.. «حصان طروادة».. ممكن.. لا أرى مشكلة في ذلك.. لكن أخبرني ماذا تريد منه؟

- لا شأن لك بذلك.

لوى سحنته.. قال بعد أن ألقى نظرة على الصورة بين يديه:

- سأمنحك عنوان الجريدة.

- وعنوان بيته.

هز رأسه:

- وعنوان بيته.

كنت غبيًا حين ظننتُ أنني سأقايض الصورة بعنوان «حصان طروادة» ثم ينتهي الأمر، إذ دنا «شلبي سليم الفخراني» من أذني هامسًا:

- وأنا أيضًا عندي مقايضة لك.. لن أفشي سرك لأحد هو في بئر عميق كما وعدتك.. لكن في المقابل أريد منك خدمة.

ازدردتُ ريقي بصعوبة، هززتُ رأسي في تساؤل صامت، قرأه من خلال انعكاس وجهي فوق المرآة، فدنا مني أكثر قائلًا:

- أريدك أن تقتل شخصًا من أجلي.

انتفضتُ أتخبط في الكرسي والباب والجدران حتى خرجتُ مسرعًا من محل الحلاقة وكأنني أفر من ملك الموت.. جريتُ حتى وصلتُ إلى باب شقتي ثم باب غرفتي.. انهرتُ فوق الفراش ورأسي يوشك على الانفجار.

كيف عرف مولانا «الشيخ جو» أن أحدهم سيطلب مني القتل؟

وكيف عرف أنني سأقوم بالتنفيذ؟

أمسكتُ رأسي وأنا أصيح بجنون:

- لن أقتل.. لن أقتل.. هذا مستحيل.. هذا لا يمكن أن يحدث وأنا في كامل وعيي.

عندما لاحتّ مني نظرة صوب انعكاس رأسي في المرأة؛ ندَّتْ عني صيحة فزع:

- اللّه يلعنك ماذا فعلتَ بشعري!

لماذا لم يرسل «هتلر» الحلاقين إلى المحرقة؟

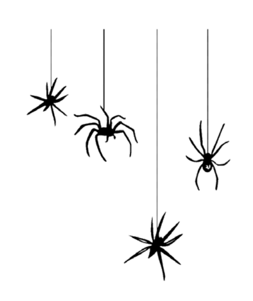
لم أنجح على الإطلاق في إصلاح ما أفسده المقص اللعين.. كانت رأسي كأن هبط فوقها سرب من الطير وأعدوا من شعري وليمة، بعضه مأكول حتى الجذر.. وبعضه مقضوم بكسل، وبعضه مُفتَرَس بوحشية.

ولمَّا فشلتُ في إيجاد حلٍّ يعيدني إلى هيئة رجل متزن، لا مشعوذ مجنون؛ أتيتُ عليه بالكامل. انعكس ضوء مصباح الحمام فوق صلعتي البِكر بقوة.. مُرحبًا بأركان أرض جديدة لم يطأها من قبل.

أفسد «شلبي سليم الفخراني» نهاري، ثم أَبَى إلا ويُفسد عليَّ ليلتي كذلك.. طرق الباب بهمجيته المعتاد..

شعرتُ بالفزع، هل سيعيد على مسامعي طلبه الوقح ثانية؟.. فتحتُ الباب.. لم يتحدث بكلمة.. سحبني من أكمام منامتي حتى أدخلني شقته.. ثم غرفة نومه.. ثم جعلني أدنو من فراشه.. كانت لوحة النهرِ لا تزال على وضعها المقلوب.. وعلى خزانة صغيرة إلى جانب السرير أطَّر صورة «دينزل واشنطن» بإطار نحاسي قديم.. نظرتُ له بعدم فهم.. فانتزع الصورة المُأَطَّرة ووضعها بجوار أذني صائحًا بغضب:

- لا أستطيع النوم.. البقرة الواقفة في منتصف الصورة لا تتوقف عن الضحك!



(١٨)

وسام الكلب.

«شاهق»

غمرني عطر الدهشة عندما وجدتُ «بيضة الديناصور» واقفًا ينتظرني على أعتاب صالة البوكر، قال لاهثًا وكأنه انتهى للتو من سباق ماراثون:

- «شاهق» باشا لدي أخبار غاية في الأهمية.

- ولماذا لم تُعلمني إياها عبر الهاتف؟

- هاتف سعادتك مُغلق يا فندم.

متى لفظ هذا الكائن الأسود الصغير أنفاسه الأخيرة؟.. أشرتُ له كي يتبعني إلى الداخل -«بيضة الديناصور» لا الهاتف- طلبتُ للأول زجاجة صودا، وللثاني قبلة حياة.

- ماذا لديك يا «حاتم»؟

- «حا...

أغنَته نظرة واحدة ليبتلع المقطع الثاني برشفة صودا، أردفَ:

- في الواقع لدي خبر جيد، وخبر سيء، وخبر أسوأ.

- أخبرني بهم على الترتيب.

- أنا أتابع نتائج المعمل الجنائي عن قُرب كما أمرت سيادتك.. وأكَّد أحد أمهر خُبرائنا استحالة احتواء أوراق الرواية على أي مادة سامة يُمكن أن تُؤثر على الإنسان عن طريق اللمس أو الشم أو حتى الأكل.

- هل هذا هو الخبر الجيد؟!

- دعني أكمل سيادتك.. كنتُ مُحبطًا بالفعل بعد النتيجة.. وأهداني تفكيري إلى الرواية ذاتها ومحاولة البحث عن كاتبها، رغم أن الغلاف لا يحوي أي أسماء على الإطلاق، ولا حتى رقم إيداع يُمكن تتبعه.

لا أعرف كيف أشرح له أن كاتبها قد نسيه الجميع!.. تركته يستطرد:

- كان ورق الرواية مُميزًا، سُمكًا ولونًا وخامة.. وكذلك الخطوط المستخدمة في الطباعة.. لذلك قمتُ بتحريات مُكثفة عن عدد المطابع التي بإمكانها إخراج عمل مميز بهذا الشكل.. ثم استبعدتُ من القائمة المطابع خارج العاصمة.. فتحصَّلتُ على عدد بدا كبيرًا نسبيًا.. فاستبعدتُ من القائمة المطابع الكبيرة، إذ غلب على ظني أن كاتبها أراد طبعها بهذه المواصفات في الخفاء، أو على الأقل أمام عدد قليل من الشهود.. فتبقى من القائمة عدد محدود.. مررتُ عليهم واحدة فواحدة.. وأخيرًا وجدتُ عاملًا في إحداها تذكَّر صاحبها.. الرواية كما قلتُ طباعتها مُميزة لذلك علقتْ في ذاكرة العامل.. وأعطاني اسم الرجل الذي طلب منه طباعتها، والذي كان مُسجلًا في دفاتر المطبعة، وحسب أقواله فقد أخبره أنه كتبها بنفسه.

ثم خطر في عقلي أن أتحرى عن اسم الرواية نفسه.. ولمَّا فشلتُ في التوصل إلى شيء استعنتُ بصديق.

- ومن يكون الصديق؟

- مولانا الشيخ «جو».. تعرف سعادتك أنه ضليع في الأدب.. لا تخفى عنه خافية.. مولانا ذاكرته موسوعة حقيقية فبإمكانه أن يسرد أي رواية غيبًا.. وما إن سألته عن اسم الرواية حتى أخبرني بأمر بالغ الأهمية.. هناك روايتان تحملان الاسم ذاته.

- روايتان!.. وهل هذا قانوني؟

- لا يوجد حقوق ملكية فكرية للأسماء طالما لا تحمل تركيبة إبداعية.. واسم «الرواية التي قتلتْ قارئها» عادي جدًا..

إحدى الروايتين لم تكتمل قط، كاتبها مجهول، لا أحد يعرف عنه شيئًا ولا حتى مولانا نفسه.. وكأن خبر كتابته لروايته نبتة شيطانية زرعتها روح من العالَم الآخر.

قلتُ في نفسي، هذا هو «الكاتب الكبير» حتمًا. استطرد:

- أما الثانية فعرفتُ اسم كاتبها من سجلات المطبعة.. ثم تحريتُ عنه حتى عرفتُ محل إقامته.

نجح أخيرًا في الاستحواذ على جُل انتباهي، سألته بلهفة:

- ومن يكون؟

أخرج مُفكرته التي لا تُفارقه، وقرأ منها:

- الاسم «رامي قَشْوَع».. السن ثلاثة وسبعون عامًا.

- آه.. كنت أثق أن هذه القضية ستصيبني بالسُكَّر والضغط.. وأين نعثر عليه.. عند «آثار الحكيم»؟

- بل هو نزيل في النادي الذي يطل على البحر يا فندم.

- نادي؟

- نعم يا فندم.. نادي الأمراض النفسية والعقلية.

- أكمل، هل هو أحد مرضى أنفلونزا الضمير؟

- كلا.. إنه نزيل النادي منذ ثلاث سنوات.. أمرتْ المحكمة بإيداعه في النادي للعلاج.. لأن القاضي لم يستطع مُحاكمته بالسجن إذ أظهر اختلالا عقليًا خلال فترة الاستجواب والمحاكمة.

- وما هي تُهمته؟

ازدرد ريقه، زاغتْ عيناه، تعجَّلته؛ فأعاد قراءة الكلمات من مُفكرته وكأنه لا يستطيع النُطق بها غيبًا:

- تُهمته.. أكَل زوجته!

- تعني أنه أطعَم زوجته؟!

- لا يا فندم بل أكَلها..كما تأكُل سيادتك قطعة لحم.

لم يدع لي الفرصة لاستيعاب كلماته، أردف وهو يضع فوق الطاولة التي تفصل بيننا ملفًا:

- هذا هو ملف القضية كاملًا، ظننتُ أنك سترغب في الاطلاع عليه.

قلَّبتُ الملف في يدي في دهشة اخترقتْ مسام جلدي، إذن هناك روايتان بنفس الاسم.. واحدة بدأها «الكاتب الكبير» ولم ينهها.. والأخرى كتبها ذاك الـ«رامي قشوع».. لكن الأمر الأغرب من ذلك ماذا كانت تفعل رواية المدعو «رامي قشوع» فوق مكتب «الكاتب الكبير» ليلة الجريمة؟.. وأي سِر هذا الذي حوته الرواية حتى تتسبب في كل هذه الجرائم؟.. ولماذا؟

تذكرتُ شيئًا، سألته:

- ألم تجد نسخًا من الرواية المنتهية في «دار الكتب والوثائق القومية»؟.. فحسب علمي لابد من أن يتقدم الكاتب بنسخ من روايته إلى دار الكتب للحصول على رقم إيداع.

- هذا ما فكرتُ فيه.. ذهبتُ إلى «دار الكتب» ووجدتُ أن رواية «رامي قشوع» بدون رقم إيداع.

قلتُ له:

- البصمات.. اطلب من المعمل الجنائي مقارنة البصمات الموجودة على نسخة الرواية ببصمات «رامي قشوع» الموجودة في ملف قضيته.. والآن ما هو الخبر السيء؟

- الخبير الأجنبي الذي كان عاكفًا على فحص الرواية القاتلة في المعمل الجنائي، غلبه الفضول لقراءتها.. ثم.. لقي حتفه بالطريقة ذاتها.. ألقى بنفسه من الشرفة.

- لا تخبرني أنه كان قابضًا على هاتفه المحمول مثل «الكاتب الكبير» وعاملي المعمل.

- للأسف، كان كذلك.

- لا تخبرني أن الجثة تبخَّرتْ ولم يتبق سوى إبهامها!

- رغم كل الحراسة المُشددة، وكاميرات المراقبة، والفحص الدوري.. للأسف اختفت الجثة يا فندم.. إلا إبهامها.

- إذا كان هذا هو الخبر السيء فما هو الأسوأ؟!

- تم فتح تحقيق في حق سعادتك.. لاحتجازك مواطنًا بغير تُهمة مُوجهة إليه.

بالطبع، الحارس!.. سقطتْ تُهمته رسميًا، نتيجة لاختفاء كل شيء عن «الكاتب الكبير»، إذ كيف له أن يُتهم بقتل شخص لم يعد له وجود.. وبذلك أصبحتُ مُحتجزًا له بغير حق..

كيف لم أفكر في ذلك؟!

أشعر نفسي مثل متسلق الجبال، لا يكتشف أفضل طريقة للوصول إلى القمة، إلا بعد الصعود خطوات ثم النظر تحته. وعندما أنظر تحتي أجدني قد أحرزتُ تقدمًا كبيرًا .. حتى وإن كان بأسلوب التفافي غير مستساغ للبعض.. فها هو الحارس قد أقر واعترف بجريمته.

صحيح أنه لم تعد ثمة تُهمة رسمية موجهة إليه.. لكن الرواية القاتلة وضحاياها لا زالوا في ذاكرة الجميع.. لو أعثر على كاتبها، ألقي القبض

عليه، أجبره على الاعتراف بسِر روايته الغامض.. سينتهي كل شيء.. اللغز والقضية والتحقيق المفتوح بحقي.. حتى أنه قد يتم ترقيتي أو تقليدي وسامًا رفيعًا تقديرًا لجهودي وأفكاري.. لا أمل لي في النجاة سوى بالوصول إلى حل لغز الرواية.. وسأصل إليه مهما كان الثمن!

تُرى لو استمررتُ في الضغط على الحارس هل من الممكن أن أتوصل إلى شيء آخر مُتعلق بالرواية أو كاتبها؟.. كما قلتُ لن أعرف الطريق الصحيح ما لم أجرِّب.

انتظرته في غرفة الاستجواب، وما إن دخل حتى رأيته وقد تحوَّل إلى حشرة شبه كاملة.. حشرة حقيقية مرَّتْ بأطوار كثيرة داخل الحبس قبل أن تصل إلى هذه المرحلة.. دققتُ النظر إليه.. بدا وكأن طرفيه الأماميين قد زادا اثنين.. هل كان ذلك ظل الإضاءة الضعيفة أم أنهما تضاعفا بالفعل؟.. لا أعرف.. لكنني أعرف أنني لم أجد قرون استشعاره قد نبتتْ بعدُ في رأسه.

ككل الحشرات التي تمر بأطوار تحوُّل مختلفة بدا مُتعبًا.. لكنني أحتاجه مُتعبًا كيلا يُتعبني:

– كيف حالك اليوم؟.. أراك بخير حال.. أبشِر خروجك من هنا أصبح وشيكًا جدًا.

تهلل وجهه، وعاد إلى عينيه بريق خافت.. يدل على أن يومًا ما كان رجلًا يملك نورًا في روحه:

– وكي أساعدك في الخروج عليك أيضًا أن تُساعدني.. اتفقنا؟

– إن كنتُ أستطيع.. بالطبع أفعل.. أفعل.. المهم أخرج من هنا.. أرجوك أريد العودة إلى بيتي وزوجتي وأطفالي.. ليس لهم سواي ليرعاهم.

صوته مُتحشرج، مثل صرصور الحقل.. هدَّه الهَم.. بدا مهمومًا أكثر من كونه مُتعبًا:

- جميل جدًا.. كنتُ على ثقة من أننا سنتفق.. الآن أخبرني ماذا تعرف عن «رامي قشوع» وروايته.

نظر بغباء قائلاً:

- ومن يكون «رامي قشوع»؟.. تقصد سعادتك «ممدوح عبد العليم» في فيلم «بطل من ورق»؟

ضربتُ الطاولة بقبضتين حتى كدتُ أسحقها، هتفتُ:

- اصح معي وركز.. «رامي قشوع» كاتب مثل «الكاتب الكبير».. هل كان صديقه؟.. كم مرة رأيته يزوره؟.. وهل قرأ روايته؟

تحشرج صوته أكثر، بعبرات هذه المرة، قال:

- لا أعرفه.. يعني لا أتذكره.

- طبعًا لا تتذكره.. يبدو أنك ترغب في أن أحضر لك أبناءك وزوجتك ضيوفًا لدينا، نقوم معهم بواجب الضيافة حتى تتذكره جيدًا.

- تذكرته تذكرته.. نعم تذكرته.. أنا قتلته أيضًا.. ألقيته من الشرفة كما فعلتُ مع الكاتب الآخر.

ضربتُ الطاولة مرة أخرى صائحًا:

- لم أقل أنك قتلته يا غبي.. الرجل على قيد الحياة ويقيم في النادي.

- ولا مؤاخذة يا «شاهق» باشا.. ماذا يفعل في النادي.. النوادي هذه لممارسة الرياضة والتنزة، أليس كذلك؟

كلا، لن أحصل منه على شيء بهذه الطريقة.. يبدو أنه يُحب الطريق الأصعب.. وقفتُ، شبَّكتُ يديّ خلف ظهري، طفقتُ أروح وأغدو بينما تنكمش الحشرة في مقعدها أكثر فأكثر:

- ثمة عالم بيولوجي اسمه «ادوارد جينر».. هذا الرجل توصَّل إلى اكتشاف مصل ضد مرض الجُدري.. ومن بين كُل العلماء الذين سمعتُ عنهم هذا الرجل أثار إعجابي كثيرًا.. هل تعرف لماذا؟..

لأنه تعامل مع المرض مثل ضابط شرطة لا كما يتعامل غيره من العلماء.. لم يتساءل الرجل بتقليدية لماذا لا يُصاب الناس بمرض الجدري.. بل وجَّه لنفسه السؤال بطريقة مختلفة.. قال لماذا لا تُصاب الفلاحات حالبات الأبقار بمرض الجدري؟.. فاكتشف أنهن يُصبن بجدري الأبقار فيعطيهن مناعة تجاه الجدري البشري.

كنتُ لا أزال أروح وأغدو من الجدار إلى الجدار المقابل، استطردتُ:

- وأنا لن أسألك لماذا اخترتَ العمل عند «الكاتب الكبير» واستمريتَ معه طوال هذه السنوات.

توقفتُ خلف مقعده، تحركتْ رأسه بعصبية يُمنة ويُسرة مثل كلب يتشمَّم موضع الخطر، قلتُ:

- بل سأسأل نفسي لماذا اختارك «الكاتب الكبير» لتحرس بيته وحياته بالرغم من كونه رجل مصاب بالارتياب لا يثق في الآخرين بسهولة.

أرحتُ يديّ فوق كتفه، أردفتُ:

- سأخبرك بالجواب.. لأنه رأى فيك كاتمًا للأسرار.. وهذه صفة نادرة جدًا.. الناس يخبئون أسرارهم في آذان أصدقائهم وأقاربهم بل والغرباء الذين يمرون بهم في الطرقات.. لم يعد ثمة «خصوصية».. هذا المصطلح أمسى قديمًا باليًا.. أما أنت فرجل تعرف كيف تحترم الأسرار.

درتُ حول الطاولة، جلستُ، شبَّكتُ أصابعي فوق الطاولة، ملتُ صوبه، قلتُ:

- لكن لا يوجد أسرار بين الشعب ورجال الشرطة.. يُمكنك أن تخفي الكثير عن أمك، أبيك، زوجتك، أبنائك، أصدقائك، حتى عن نفسك.. لكن معي يُمكنك أن تبوح بكل شيء.. مثلما يفعل المرء مع طبيبه النفسي.. الطبيب النفسي يُعالج خللًا نفسيًا.. وضابط الشرطة يُعالج آفات نفسية.. يُساعدك على التطهر من الذنب.

- تذكرتُ شيئًا.. شيئًا صغيرًا لا أعرف إن كان بإمكانه أن يفيد سعادتك.

- كل شيء تقوله مُفيد.

- هذا الاسم سمعته من قبل.. لا أتذكر بالضبط.. لكن.. وكأنه أراد مني أن أسمح له بدخول مكان ما.. ربما أراد دخول الفيلا الذي يعيش فيها هذا الكاتب الذي ذكرتني سعادتك بأنني قتلته.. لا أعرف.. لكن ما أعرفه أنني لم أسمح له بالدخول.. لأنني كنتُ مجبرًا على ذلك.. ربما لأن الكاتب لم يرغب في لقائه.. لا أعرف.. لا أتذكر.. أو لعلي أتذكر لكنني لا أتذكر.

بدا مُتخبطًا مثل خفاش استيقظ فجأة في ضوء النهار، قلتُ:

- أرأيتَ.. كل شيء محفوظ في رأسك فقط أنت بحاجة إلى من يرُجّه فيفيض بما يحويه.. الآن أنت حُر طليق.. لكنٍ يجب أن تعرف أنك ستعود إلينا في وقت قريب، إما سارقًا أو قاتلا.. لن يقبل أحد أن يوظف عنده شخصًا تلوَّثتْ صحيفته بجريمة قتل.. ستجوع.. ويجوع أبناؤك.. ستضطر إلى السرقة من أجل إطعامهم وكسوتهم.

وإن لم تفعلٍ ستُجبَر زوجتك على العمل، أو تُجبرها أنت.. وقد يكون رب عملها رجلًا خسيسًا يراودها عن نفسها، وأنت جالس في بيتك تنتظرها، لن تعلم أبدًا إن كانت قبلتْ أم رفضتْ.

ستثق بها في البداية.. لكن ليلة بعد ليلة سيكبر الشك في قلبك.. ستسمع كلمة من هنا أو من هناك.. سترى حالها يتغير.. وزنها ينقص.. جمالها يتزايد.. ستخفي شيب شعرها وترهل جسدها خلف الألوان والأقمشة الغالية.. فيقضم الشك قلبك.. ويومًا ما لن تتحمل عضَّاته.. ستتبعها.. وتُداهمها في مكان عملها.. سترى رب عملها يتقرب منها ويبتسم لها.. سيغلي الدم في عروقك.. ستخرج السكين الذي أخفيته في جلبابك.. تنقض عليه ناحرًا عنقه.. ستسمع خوار الثور خارجًا من فمه.. بينما تنظر إليها والسكين يقطر دمًا.. لا تثق كفاية بخيانتها فتقتلها،

ولا ببراءتها فتتركها.. سيمزقك الشك.. سينحر عنقك مثلما نحرتَ بسكينك عنق الرجل.

هربتِ الدماء من وجهه وتجمعت في رأسه تضخ في عقله أسوأ الاحتمالات، أردفتُ:

- لذلك سأكون معك كريمًا للغاية وأوفر لك فرصة عمل.

- حقًا!.. أحقًا ما تقول؟.. ستوفر لي فرصة عمل.. وتخرجني من هنا.. الآن؟

أخرجتُ من جيبي سلسلة ووضعتها أمامه قائلًا بابتسامة عريضة:

- بالطبع.. وهذا هو «وسام الكلب» أمنحك إياه نظير مُساعدتك في حل غموض القضية.

قلَّب السلسلة بعينه ثم بكفيه حائرًا.. تبادل النظرات معي ومعها.. ثم وضعها حول عنقه بنفسه، وأغلق قفلها، تساءل بأمل:

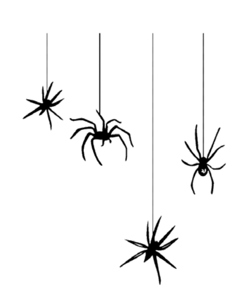
- وما هو نوع العمل؟

مِلتُ صوبه قائلًا:

- كلب الحراسة الذي كنتُ أربيه مات منذ بضعة أسابيع.. أريدك أن تحِل مَحله.

- حارس؟

- بل كلب حراسة!



(١٩)

اختطاف

عرف «حصان طروادة» أن «أسمر» يبحث عنه.. ليصل إلى المرأة ذات المعطف الأصفر.. فيُبرئ نفسه من تُهمة القتل.

هكذا أخبرته مصادره السرية.. بعد مقابلة «أسمر» الأخيرة للضابط «شاهق»، ثم حواره المثير مع عامل البوفيه «شلبي سليم الفخراني».. ولأشد ما أبهجه ذلك، إذ تلاقتْ رغبته برغبة ذاك السائق.. كلاهما يريدان شيئًا من تلك المرأة.. وكلاهما لن يتنازلا عن الحصول على هذا الشيء.

جلس في شرفة بيته ينتظره.. يعرف أن «أسمر» لن يؤجل زيارته للصباح، لن يستطيع، خاصة وأن الشعور بالذنب جعل الليل والنهار عِنده سواسية.

ما أغبى الإنسان.. ورث في جيناته الشعور بالذنب من «قابيل»، لو أن الغراب لم يظهر حينها، وقرر «قابيل» الانتحار ندمًا بعد قتله لأخيه؛ لانتحر بالتبعية كل قاتل بعد أداء جريمته.

***

كانت الساعات حُبلى بالدقائق، تنقسم في بطنها إلى ستين جنينًا.. فيأتيها المَخاض.. تضعهم.. ثم تحمَل بغيرهم.. سبع وِلادات ثم سَمع صوت الجرس!

ربما هي حاسة سادسة نمَتْ لديه مع الوقت، أو ربما أسبغتْ البراغيث عليه بعضًا من بركاتها، إذ سمع في عقله صوت الجرس قبل أن يدق

«أسمر» الجرس بالفعل. تعمَّد ألا يفتح بسرعة.. ترك الطارق يدق ويدق حتى إذا ما استوطن اليأس قلبه؛ هبَّ هو لفتح الباب.

طالع «أسمر»، ذا وجه ليس بأسمر.. ما سبب تسميته إذن؟!.. ثم فكَّر أنه ربما كان أسمر البشرة عند ولادته. بادره قائلًا:

- من تُريد؟

بدا تردد «أسمر» جليًا، وكأنه يُعيد التفكير في سبب مجيئه، أو يُفكر في أن يعود بأدراجه من حيث أتى.. وهذا ما دفع «حصان طروادة» إلى أن يستبقيه قائلًا:

- تفضل بالدخول.

اندهش «أسمر» من تلك الدعوة، خاصة وأنه يعرف عن الرجل أنه صعب المراس، متكبِّر، متجبِّر.. لكنه لبَّاها على الفور، ليس خوفًا من أن يُبدِّل «حصان طروادة» موقفه، بل من أن يُغيره هو.

تهادَى «أسمر» في مشيته، يمسح بعينيه محتويات البيت، أركانه، تُحفه، أثاثه، إضاءته.. كل شيء كان أزرق اللون بشكل عجيب!.. أزرق.. وأزرق.. وأزرق في كل مكان.. تتنقل الموجودات بين درجات الأزرق من أدناها إلى أقصاها.

لكن ما أثار فيه جُل الدهشة ساعة كبيرة تتوسط جدار حجرة الصالون، والتي دعاه مضيفه إلى دخولها.. ساعة دائرية كبيرة تبتلع نصف الجدران.. لا تحتوي على أرقام.. رأى براغيث زرقاء تستقر في مواضع الأرقام بداخل الساعة.. أما عقرب الساعات والدقائق فكان مؤلف من سلسلة من البراغيث الزرقاء المتشابكة في خط طولي.. تجاهل إشارة مضيفه بالجلوس إلى الأريكة ودنا من الجدار أكثر؛ ليكتشف أنها من الفصيلة نفسها التي ينتمي إليه برغوثه الوحيد.. زرقاء، ملساء، بغير شَعر!

وما أشعل حيرته أكثر، أن عقرب الثواني المؤلَّف من أرجُل براغيث متصلة كان يدور في عكس اتجاه الساعة العادية، أي من اليمين إلى

اليسار، ثم انتبه إلى أن عقرب الدقائق يحذو حذوه العبثي، عقرب الساعات فقط هو الذي كان يدور بشكل طبيعي.. وكأن الوقت ﰲ صراع أبدي مع نفسه.. طرف يدفعه للمستقبل.. وآخر يجذبه صوب الماضي.

احتار ﰲ أمره هل يخبر «حصان طروادة» بأمر برغوثه الهامس عله يتحصَّل منه على جواب شاف بشأنه، أم ينتظر حتى يسأله عن براغيثه المُحنَّطة داخل الساعة، متظاهرًا بفضول بريء. قطع الرجل عليه حيرته، إذ بادره بنفاد صبر:

- ألن تجلس؟

اختار الجلوس ﰲ مقعد مواجه لـ «حصان طروادة»، يحبُ أن يستكشف أمارات وجهه حين يُحدثه، فيظن «أسمر» ﰲ نفسه موهبة فطرية ﰲ معرفة طبائع البشر. أو لعله لا يملك واحدة ولكنه يحب أن يوهم نفسه بذلك.

وهل يستطيع بشري على ظهر الأرض أن يدعي معرفة الصادق من الكاذب؟.. حتى أجهزة كشف الكذب لا تعمل بدقة مائة بالمائة.. «الجسد أبدًا لا يكذب».. من الذي أخبره بتلك العبارة، لماذا تُلح على رأسه كثيرًا.

لم يكن «حصان طروادة» يملك فائضًا من الكرم ليُكرم ضيفه بطعام أو شراب، لم يتحمل صمت «أسمر» وظلَّ يهز ساقه بعصبية لفتتْ نظر هذا الأخير، حتى تنحنح قائلًا:

- أعتذر إن أزعجتك ﰲ هذا الوقت.. كنتُ سأتصل أولًا لأتأكد إن كنت تملك وقتًا متاحًا لمقابلتي.. لكني....

- الوقت، وما هو الوقت؟.. إنه ﰲ الحقيقة غير موجود.. نحن من نضع له أشكالًا حسب إدراكنا.. أشكالًا من الثواني والدقائق والساعات والأسابيع والأشهر والسنوات.. لولا هذه القوالب لصار الوقت شيئًا مبهمًا مثل الثقب الأسود، نسمع عنه ولا نراه.. لأننا إن رأيناه سيبتلعنا بداخله.

- أنا.. لم أفهم مقصدك.. ما قصدك بأن الوقت غير موجود؟

- لا يهم.. هيا تكلم.. أنتظر سماعك.

- في الواقع.. بصراحة أنا أبحث عن امرأة، لكنني لا أعرف عنها معلومات كافية.

أراح «حصان طروادة» ظهره إلى الوراء، شكَّل بساقيه صليبًا، ثم سأله بلا مبالاة مُتعمدة:

- لم أفهم ما علاقتي ببحثكَ عن امرأة ما.

- لأنك أيضًا تبحث عن تلك المرأة.

علتّ وجهه دهشة حقيقية، فكَّ الصليب، سأله:

- ومن أين عرفت ذلك؟

- سألتُ مولانا الشيخ «جو» عن المرأة، فأخبرني أنك سألته عنها قبلي.

يبدو أن مولانا سيكون له فضل إسراع وتيرة الحديث، وهذا ما أعجب «حصان طروادة».. اللعب بورق نصف مكشوف.. انحنى للأمام، ثم قال:

- دعنا نتفق على شيء في البداية.. لن أخفي عنك شيئًا.. وأنت ستفعل المثل.

بحماس أجابه «أسمر»:

- اتفقنا.

- هذه المرأة أريد منها معلومات مهمة.. لا شأن لك بتلك المعلومات فهذا خارج موضوعنا الأصلي.. وأنت تبحث عنها لسبب ما لن أسألك عنه.. ودعني أخبرك أنني عثرتُ عليها بالفعل.

وما إن أنار الفرح وجه «أسمر» حتى أطفأه مُحدِّثه بقوله:

- لكن المرأة ترفض التحدث إليَّ.. تتظاهر بأنها لا تملك المعلومات التي أحتاجها منها.. ولا أظنها ستمنحك أنت أيضًا ما تريد.. يعني تخيل

من أكون أنا .. وما هو مركزي في هذه البلاد.. وبالرغم من ذلك لم تمنحني ما أريد.. فما بالك بسائق بسيط مثلك.

- لكنني لم أخبرك أنني سائق كيف عرفتَ ذلك؟!

- أ.. أنسيتَ إلى من تتحدث.. أنا «حصان طروادة» أشهر صحفي في البلاد.

- معك حق.. أكمل حديثك.

- فكرتُ.. في حلٍّ واحد.. يُجبر هذه المرأة.. على.. منحنا ما نريد؟.. فهل أنت.. معي فيه؟

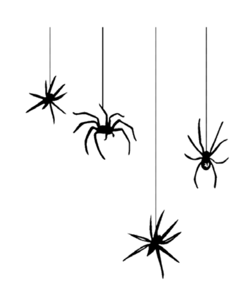
أثارتْ دهشة «أسمر» بطريقة الرجل المتأنية جدًا في التحدث، وعندما راقب حركاته وجد أنها ثقيلة ككلماته، أجابه في الحال:

- بالطبع.. بالطبع.. فقط أخبرني ماذا أفعل وسأفعله فورًا.

أراح «حصان طروادة» ظهره إلى الوراء مرة أخرى ثم قال ببساطة ممزوجة بابتسامة واسعة:

- ستختطفُها!

تأمله «أسمر» متسائلًا في نفسه، كيف اختاره في أحد الأوقات ليكون مَثله الأعلى؟.. لماذا يبدو العظيم باهتًا كلما تآكلتْ المسافات.. لماذا يبدو كل شيء في البُعد أكثر بهرجة وجمالًا؟



(٢٠)

بين السماء والبحر

«خيال»

مريض الغرفة «اثنان وستون» حاول قتل نفسه مرة أخرى!

ما أشد الفزع الذي ألقته عبارتها.. حتى لأكاد أشعر بأنه اعتصر قلبي، ورئتيّ، وصدري، وسحقهم بقبضته.

هرولتُ مُسرعة من رواق إلى آخر، أصطدمُ بهذا وأدفعُ ذاك.. حتى وصلتُ إلى غرفة رقم «اثنان وستون».. دفعتُ بابها بقوة جعلته يصطدم بالجدار.. وكان هو مُستلقيًا في منتصف الفراش الوثير كطفل صغير.. طفل يبلغ الستين.. عيناه شاخصتان إلى السقف، وكأنهما تخترقانه وتتعلقان بزرقة السماء.. ربما لأن عينيه زرقاوان فهما يحنّان دومًا إلى السماء والبحر.

نافذة غرفته كانت تطل مباشرة على بحر كبير بامتداد البصر، ولأنه لم يعد هناك أراد تقبيل السماء.. وتشممها.. ومعانقتها.. أن يذوب في سُحُبها.. فيصير سحابة كبيرة تمتلئ بالزاد، وتغدق به على الأرض فيعود البحر.

ربما لهذا السبب أراد القفز من النافذة.. رغم كل وسائل الحماية والدعامات الحديدية التي تُحيط بنافذة غرفته، إلا أنه احتال على الممرضة وفر منها إلى غرفة مريض آخر ذات نافذة تصلح لارتقائها ثم القفز.

دنتْ مني ممرضته تتلعثم:

- لا أعرف كيف حدث ذلك.. أراد الدخول إلى الحمام.. اصطحبته.. لكن لا أعرف كيف خرج دون أن أراه.. ربما تخفَّي في رداء أحد الأطباء أو العاملين.. لا أعرف صدقيني يا دكتورة.. ثم سمعتُ صوت هياجه وصياحه في إحدى الغرف بينما زميلتي تمنعه من القفز عبر النافذة.. أعتذر كثيرًا.. لن تتكرر مرة أخرى.

وضعتْ هاتفًا أمام وجهي.. أخذتُه منها بآلية.. دائمًا نفس القصة.. يحاول الهرب من طاقم التمريض، لوقت كاف لأن يعثر على نافذة بغير سياج.. وهاتف محمول.. يقبض عليه بكفيه ويحاول القفز من النافذة!

دومًا القفز.. لم يحاول أبدًا شنق نفسه.. أو قطع شرايينه.. أو الغرق.. أو الحرق!

ودومًا يُمسك بهاتف محمول.. أي هاتف محمول يتمكن من سرقته!

بمن أراد أن يتصل؟.. لماذا أراد أن يقفز؟.. أسأله كثيرًا.. لكن أبدًا لم يجب. فكرتُ أنه يحاول الاتصال بالله.. لا يملك إدراكًا طبيعيًا ليعي أن الله يسمعنا دون أن نحتاج إلى وسيلة اتصال.. ربما أراد أن يخبره بأمر خطير.. يخص ذاك الحادث القديم.. والذي أذهب بعقله ودمر حياته بالكامل.. ربما أراد أن يبوح لله بظلم وقع عليه.. أو ظلم تسبب به!

كلا لم يرغب في قتل نفسه.. أراد أن يطير إلى السماء.. أراد أن يذهب إلى الله.

ربما شغله سؤال «ماذا أفعل هنا؟».. ولم يجد له جوابًا.. فأراد الذهاب إلى الله ليسأله بنفسه، لماذا خلقتني في عالَم لا أجد لنفسي فيه مكانًا؟

- هذا العالَم سيختفي.. استعدي للرحيل.

هذا أول ما نطق به عندما انفصلتْ عيناه أخيرًا عن السقف وربطها بوجهي، قلتُ باسمة بإرهاق:

- هذا ما تقوله دائمًا.. لكن انظر.. لا شيء يختفي.

نفذتْ عيناه إلى وجهي أكثر، عرَّتْ الجلد وقطَّعتْ العروق وشقَّتْ العضلات.. نخرتْ العظام وألهَبتْ الأعصاب، ثم قال:

- لكنه بات قريبًا.. قريبًا جدًا.

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا ترغب في القفز من النافذة؟.. لماذا تحاول الهرب؟

بكى.. تمامًا كطفل في السادسة مات أهله، أردف:

- لا أريد البقاء هنا.. أريد أن أقفز من النافذة لأفتح لي ولكِ طريقًا للنجاة.

- ألم تقل أن العالَم سيفنى.. أي نجاة إذن؟

سبق وأن أجريتُ معه هذا الحوار عشرات، بل مئات المرات من قبل، وكل مرة ينتهي بنفس الكلمات وهو يتشنَّج باكيًا:

- هذا العالَم سيبتلع نفسه.. لا أريده أن يبتلعك في فمه.

ثم يتوقف عن الكلام بعدها.. يمسح عبراته.. ينهض من الفراش.. يتوجه إلى طاولة مكتبه المواجهة للنافذة.. ينتقي كتابًا.. يتفحصه.. ثم يمزقه ورقة ثم ورقة ثم ورقة!.. حتى يفنى الورق، فيتخير كتابًا آخر ويقطع أشلاءه هو الآخر.. وهكذا حتى يحطّ عليه طير التعب، وينام في مقعده جالسًا. وفي صبيحة اليوم التالي تتكرر الأحداث ذاتها.. ينظر إلى النافذة.. يمزق صفحات الكتب.. ويحاول الهرب!

أشار لي رئيس القسم فتبعته إلى الخارج، قبل أن أغلق الباب قلتُ للممرضة بحزم:

- إذا شعر بالجوع رافقيه إلى غرفة الطعام، إياكِ أن تتركيه بمفردة لحظة واحدة.

- لا تقلقي يا دكتورة «خيال».. سأعتني به جيدًا.

حثَّني رئيس القسم بينما نسير متجاورين في الرواق:

- ألم يحدث أي تقدم في حالته؟

تنهدتُ بأسف بينما أسير برفقته في الرواق حتى دخلنا إلى قاعة الطعام المخصصة للأطباء وفريق التمريض:

- كلا، حالته تسوء باستمرار.. يجب أن نُشدد عليه المراقبة، أعلم أن طاقم التمريض يعمل بطاقته القصوى، لكن لا يُمكنني أن أفقده.

تخيَّرنا الجلوس إلى طاولة شاغرة، ثم أردفتُ:

- يمر بمرحلة شديدة من مرض «الذهان».. خلَل في تفكيره يدفعه ليظن أن العالَم كله متآمر ضده.. ضد البشر.. يسعى لفنائهم.. وكأنه وحش سيبتلعهم.. ثم سيُدمر نفسه في النهاية.. وأن السبيل الوحيد للنجاة هو القفز من النافذة.. أي أنه يرى الموت هو السبيل الوحيد للحياة.. بالتأكيد السبب الأول في هذا المرض هو الحادثة القديمة.

- بالتأكيد الحادثة كان لها دور كبير.. لكن في ظني أن هناك عوامل أخرى تسببتْ في وصوله إلى هذه الحالة.

سألته:

- وما هي؟

أجابني:

- شيء ما في حياته السابقة قبل أن يدخل النادي.. أمر غفلنا عن معرفته ومن ثَم تحليله.

- لا أظن.. كان رجلًا طبيعيًا تمامًا.. مثلي ومثلك.

- نحن يا دكتورة «خيال» لا ننمو بطريقة أفقية.. لا نكون أطفالًا ثم مراهقين فرجالًا.. بل ينمو الثلاثة بداخلنا طوال الوقت.. لعل الطفل بداخله يملك مُسببات هذا الخلل العقلي.. أو المراهق.

طاف برأسي حلم عزيز:

- أتمنى ذات يوم أن ينجح الأطباء في هندسة المخ.. فيتدخلون لمنع المرض عن طريق علم الهندسة الوراثية.. عندها لن يبقى مريض عقلي فوق ظهر الأرض.

قال بابتسامة أبوية:

- لا تقلقي.. يومًا ما سيتماثل الأستاذ «رامي قشوع» للشفاء، ولن يعود اسمه مريض الغرفة «اثنان وستون».

- سأتمسك بهذا الأمل حتى آخر مُنتهى العمر.. لا يمكنني التخلي عنه.. وعدته أنني سأعيده إليّ.

ترقرقتْ عبرة تُشاركني الأمل، همستُ:

- أبي سيعود إليّ.

تمنَّى وتمنيتُ.. وانتظرنا شجرة تحقيق الأمنيات أن تثمر.

❧❧

هرولتْ نحوي رئيسة التمريض التي لا تستقبلني إلا بأسوأ الأخبار لتقول في ارتباك كبير:

- دكتورة «خيال».. عامل المشرحة المجنون الذي كان ينبش في القبور.

- ما به؟

- لقد هاجم الأستاذ «رامي قشوع» في غرفة الطعام محاولًا قتله.

- ماذا تقولين؟

ركضتُ إلى غرفة أبي.. كان نائمًا في وداعة الأطفال.. جلستُ عند يديه أقبلهما وجسدي يرتجف، لا خوفًا فحسب، وإنما غضبًا من ذاك المجنون.. ماذا أراد من أبي؟.. لماذا يفعل أمرًا كهذا؟

أبي إنسان مسالم يتناول طعامه في هدوء، ولا يتحدث إلى أحد.. ولولا أنه يكره طول العزلة لما سمحتُ له بتناول وجبة الغداء مع باقي المرضى في صالة الطعام.

اندفعتُ بغضب صوب غرفة عامل المشرحة الذي لم يخبرنا باسمه بعد، ولم نتوصل إلى هويته. كان أكثر هدوءًا، واتزانًا مما رأيته أول مرة، أو هذا ما خُيِّل إليّ.

واقفًا أمام الجدار ويوليني ظهره.. تعجبتُ إذ أن الجدار خال من اللوحات أو الصور.. فما الذي يسترعي انتباهه إذن. حاولتُ السيطرة على غضبي، ففي النهاية هو إنسان لا يتمتع بالاتزان الكافي لمعرفة الفرق بين الخطأ والصواب. رغم أن هذا كان شاقًا عليّ، بادرته:

- مساء الخير.

لم يرد التحية، ولم يلتفتّ.. دنوتُ منه أكثر.. كان يمسك بشوكة ويحفر بها في الجدار!

حاولتُ أخذها من يديه، فتراجع في عنف.

- ماذا تفعل؟

- أحفر.

- أرى أنك تحفر.. لكن لماذا تحفر؟

لم يجِبني، فأردفتُ:

- هل لتهرب؟..وكم من الوقت برأيك ستستغرقه في حفر طريق للهرب عبر شوكة في جدار؟.. فضلًا عن أننا في طابق مرتفع أي أنك حتمًا ستسقط ميتًا.

- أنا لا أموت.

- وما أسباب خلودك يا ترى؟

- لأنني مختلف.

- كيف مختلف؟

وهنا أتى بفعل غريب، بالغ العجَب.. رفع كفه اليُمنى ثم اليُسرى.. وانهال بهما ضربًا فوق الجدار.. وهو ينظر في عمق عيني مباشرة.. كانت صدمة كبيرة.. إذ أن من المعتاد أن يخشى مريض «أنفلونزا الضمير» اصطدام أيديهم بشيء صلب، لأنها من زجاج كما يتوهم.

- لماذا فعلتَ ذلك؟.. الزجاج يتهشم بسهولة عند ضربه في الجدار.

لا الخوف يتبدى فوق وجهه، ولا القلق.. رفع كفيه بمحاذاة وجهه، تأملهما بآلية وكأنه يراهما للمرة الأولى.. ثم قال:

- نعم هي من زجاج.. ولقد تهشمتْ الآن.

فتر حماسي.. كنتُ أظن أنه بالفعل مختلف.. إلا أنه لا يختلف عن الآخرين في شيء.. بادرني وهو يعيد الاتصال بعمق عيني:

- هل رأيتِ ميتًا يغتم إذا كُسر له ساق أو ذراع؟

- أنت حي.

اتسعت ابتسامته.. تبدت أسنانه الصفراء المتآكلة.. قال:

- لا يمكنك إثبات ذلك.. لا يمكنكِ أبدًا.

أخافتني كلماته.. وأسلوبه.. وأنقاض أسنانه.. وابتسامته الكالحة. هاجمته:

- لماذا أردت قتل أحد المرضى.

- إنه ليس مريض.. وأنا لستُ مريضًا.. الموتى لا يمرضون.

اندفعتُ صوبه بحدة، قلَّصتُ المسافة بيننا إلى خطوتين فحسب، قلتُ:

- لماذا حاولت قتله؟.. ماذا فعل لك؟

- لم يفعل شيئًا.. وتلك هي المشكلة.

تملَّكتني الحيرة، سألته:

- ماذا تقصد؟

قلَّص هو الخطوتين إلى واحدة فحسب، فاحت رائحة كريهة من فمه واصطدمتْ بوجهي، رائحة مطاط محروق. ثم أدركتُ أن فمه ليس مصدر الرائحة.. بل الهواء.

الرائحة تنتشر في الأجواء حتى لتكاد تخترق مسام جلدي.

أردتُ التراجع لكنني لم أفعل، مخافة أن يترجمه ضعفًا، يجب أن يعرف هذا البائس من المتحكم هنا في مُجريات الأمور.. أنا طبيبة وهو مريض، عليه الالتزام بالقواعد والقوانين. لكنه بادرني بكلمات أفزعتني:

- أردتُ قتله لأنه لم يقفز.

- ماذا تقصد؟

- عليه أن يقفز من النافذة.. عليه أن يُحررنا جميعًا.

ابتعدتُ خطوة.. واثنتين.. وثلاثة.. هتفتُ:

- أنت مجنون.

لكن داخلي يصرخ، كيف علم برغبة أبي في القفز، لابد أنه سمع ذلك من إحدى الممرضات، لا تفسير منطقي آخر.. أردفَ صائحًا بصوت جهوري:

- لكنه سيموت.. سيموت.. لن تستطيعي إنقاذه.

اندفع ثلاثة ممرضين يقتحمون الغرفة ويحاولون تقييد الرجل إلى الفراش، كانت دقَّات قلبي تكاد تصم آذاني بينما يصيح:

- سيقتله «أسمر» السائق.. سيقتله وينقذنا جميعًا.

«أسمر» السائق.. ومن يكون «أسمر» السائق؟.. لن أسأله عن أي شيء.. هو مجنون.. ليس أكثر من مجنون..

وللمرة الثانية سارعتُ بالهرب من غرفته.

خرجتُ إلى الهواء الطلق.. كانت الروائح الصناعية تفوح من كل شيء، الطعام، الشراب، الهواء، الأشجار، الأزهار..

حتى الصداقة، الحب، البنوة، الأخوة..

تمنيتُ أن أفقد حاسة الشم لأتجنَّب نتانة العالَم.



(٢١)

فرامل الضمير

«أسمر»

عطستُ مرتين، وفي الثالثة شعرتُ كما لو أن عيني على وشك الخروج من محجرها.. ألهذا السبب نغلق عيوننا أثناء العطس، مخافة أن تُقتلع؟

أم تُراها أرادتْ هجري بسبب ضغط النوم الذي ما طفق أن يرتفع كلما طالت فترة الاستيقاظ؟

أسقطتُ كوب الشاي أرضًا، حاولتُ إنقاذه قبل ثانية من السقوط، لكن ردَّة فعلي في تدهور مستمر. أشعر بتغيرات في الرؤية، في الإدراك. رمقني روَّاد المقهى بشيء من الفضول، فقلتُ على سبيل اللاشيء:

- لا بأس.. لا بأس.

وعندما أحضر لي عامل القهوة «شلبي سليم الفخراني» كوبًا آخر أسقطته كذلك. نظر لي شذرًا؛ فوقَّعتُ بهزة رأسي تعهدًا بدفع ثمن الشاي المُراق والكوبين المُنكسرين. لأشد ما أعاني من ضغط نوم مرتفع لكن ليس هذا فحسب ما يجعل أعصابي ملتهبة، فائرة، إنما الكلمة النافذة التي بدأ وانتهى عندها حديث الصحفي المُختل..سنختطفها!

ضربتْ رأسي عاصفة من الأفكار.

في ورديات عملي على الطريق كنتُ بومة ليلية، وفي الأوقات التي أمنح نفسي فيها أجازة أكون طائر «قُبَّرة»، يحلو له أن ينام مبكرًا.. أما الآن فلا أجد لحالتي شبيهًا يصل الليل بالنهار.. سوى البكتريا!

أختطفها!.. هل يظن هذا المخبول أنني رئيس عصابة، أو أحد الحشَّاشين وقطاع الطرق ومُحترفي الجاسوسية الذين يغدقون عليه بسيل جارف من المعلومات. وإلا من أين يتحصل على معلوماته؟

النوم مُراب حقير، لا يمكن تأجيله إلى أجل غير مُسمى.. حتمًا يومًا ما سينهار الجسد، سيقتنص منه النوم دينه كاملًا، كل ثانية استيقاظ أقرضها له.

ماذا لو اختطفتها؟.. هل سأتمكن من إجبارها على الاعتراف بجريمتها؟.. ماذا لو رفضتْ هل أهددها بسلاح، أم بالضرب؟.. لم أضرب في حياتي امرأة قط، ولا رجلا.. فهل سأبدأ الآن؟

من المؤسف أننا لا يُمكننا أن نُخزِّن في أجسادنا قسطًا من النوم على سبيل الرصيد، نسحب منه متى نشاء. لو حدث ذلك هل ستستمر الحياة في السير بصورة طبيعية؟.. أعني كيف بإمكان البوم والقُبَّرة والبكتريا أن يتواصلوا معًا في عالَم يُقدّس الروابط الاجتماعية؟

في الحقيقة لا يقدسه كثيرًا، إذ أصبح بإمكاننا أن نهز الرؤوس، ونشيح بالأيدي، بدلًا من إجراء حديث. ربما لأننا ككائنات اجتماعية بالفطرة نُحب أن نتواصل مع بعضنا.. لكن بهشاشة.. مُتحررين من التزامات التواصل.

لن أؤذيها، فقط سأحتجزها ؛بضع دقائق أو ساعات، كي أتحرر أنا من ذنبي. هدفي نبيل، وهو تحقيق العدالة، فمن الظلم ألا أنام، هذا لا يُخالف الضمير.

وما الضمير؟.. هل يُشبه ضميري ضمير «شلبي سليم الفخراني»، أو ضمير هذا الصحفي المُختل.. مثلما تتشابه أكبادنا وقلوبنا تشريحيًا؟.. أم أنه هُلام لا يُمكن أن يتخذ شكلًا ثابتًا؟

هل الضمير الذي أملكه بداخلي أفضل؟.. ولماذا هو أفضل.. ما هي حيثيات الإقرار بحُكم أنه أفضل؟

الصحفي يرى في اختطافها عين العدالة.. لأنه يُحقق به غاية نبيلة، وكذلك أنا أبغي تحقيق غاية نبيلة، فلماذا يصر ضميري على معاندتي، بينما كان هو ضميره ثابت الجنان.

شربتُ عيني سواد الليل، ومع ذلك لم ينته. وشربتُ معدتي المزيد من الكافيين، في محاولة بائسة للتخفيف من حدة آثار الحرمان من النوم.

- عليك أن تُغير القهوة.. لم تعد تنتمي إلى «العطَّاسين».

احتجتُ إلى دقيقة كاملة، نصف لأدرك أن من يحدثني هو «شلبي سليم الفخراني»، ونصف لأعي معنى كلماته بينما يُكررها للمرة الثالثة بنفاد صبر:

- إلى أين أذهب؟

أشار إلى الشارع المقابل قائلًا:

- إلى قهوة «اللانائمين».

لماذا لا يملك أصحاب الضمائر الجيدة رائحة مميزة نعرفهم بها؟.. ولماذا لا يملك كل منا بصمة ضمير خاصة به يُعرف من خلالها؟.. هل لأن الضمائر تتبدل كما تتغير الأوراق فوق الشجر، تارة هي خضراء، وتارة صفراء، وتارة تحت الأقدام؟.. أم لأن» قانون الخطأ والصواب» نفسه غير ثابت؟

أيهما أكثر سُلطة على الإنسان، القوانين أم الضمير؟.. هل نحن بحاجة إلى صوت خارجي بقدر حاجتنا إلى صوت داخلي؟

يرى «العلماء» أن الضمير له السُلطة العُليا ولذلك يقومون بصيانته، ولا يؤمنون بالسُلطات الرقابية.. لكن ماذا لو تعطَّلتْ فرامل الضمير؟

ماذا لو حادت بالإنسان عن وجهة الحق.. ما الرادع عندئذ؟.. هل يكفي الضمير وحده ليكون حاكمًا؟.. ولمن يدين هذا الحاكم بالولاء.. هل إلى الإله.. أم إلى الصالح العام.. أم المنفعة الشخصية؟

وأي ضمير يحكُم؟.. هل ضمير الفطرة البكر الذي أودعه الله في الإنسان؟.. أم ذاك الذي تشبَّع بالآراء والمعتقدات والأفكار الصالح منها والطالح؟

فالضمير الذي يحض على عمل الخير هو نفسه الذي قد يُبرر فعل إرهابي أو مجزرة جماعية.. وكلاهما في عُرف صاحبه عين الحق!

إذا كانت عدالة القانون عمياء فإن عدالة الضمير عوراء!

دارت دوامة الأسئلة بعقلي حتى أعجزته عن التفكير.. وعلى حين غرة سألتُ نفسي سؤالًا أخيرًا: لماذا بتُّ أشعر أن اختطافها ليس فعلًا قبيحًا إلى هذه الدرجة؟

(٢٢)

الزومبي.
«شاهق»

فشلَ «داروين» في إثبات أن الأميبا تحوَّلتْ إلى إنسان، لكنني دومًا نظرتُ إلى مستشفيات الأمراض العقلية كدليل مادي على أن الإنسان بإمكانه إن يتحوَّل إلى أميبا!

خلية لا نفع منها، تستهلك الأكسجين، شكلها غير ثابت، فها هو أحدهم يُطيل النظر إلى جدار مُصمت، وآخر يمنعه أحد الممرضين من أن يضرب به رأسه. تتحرك الأميبا بأقدام كاذبة، بينما تُحركهم أفكار كاذبة يصدقونها كما نصدق نحن أن الأسبوع سبعة أيام.

الاختلاف الوحيد هو أن الأميبا تُخرج فضلاتها عن طريق فتحة شرج مؤقتة، بينما يحتفظون هُم بفضلات عقولهم، يثورون إذا حاول أحدهم تنظيفها.

لم يكن النادي بمكان يعوزه النظافة والاهتمام كما سبق أن خمَّنتُ قبل أن أدخله، لكنه مُكتظ كثيرًا، كل هؤلاء فقدوا عقولهم بعد زراعة صمام الضمير، وآمنوا أن أجسادهم تتحول إلى زجاج!.. لم يَسلَم أحد، غني كان أم فقير، كبير أم صغير، مُتعلم أم جاهل، رجل أم امرأة!

لم يكن العثور على غرفة «رامي قشوع» صعبًا، السماح بدخولها وإجراء حديث معه هو الذي كان صعبًا. خاصة أنني لا أملك سوى بطاقة إثبات الشخصية وكلمة «ضابط شرطة» تُزينها.

ذكَّرني ذلك بالاستجواب الذي عليّ أن أخضع له غدًا بخصوص التحقيق المفتوح بحقي.. بئسًا لذلك.

كانت طبيبته التي ترتدي معطفًا أصفر اللون مُتحفزة وكأنني جرثومة قَدِمتُ لتلحق الضرر بمرضاها، صاحتْ بحزم:

- قلتُ لك لا يُمكنك استجوابه.. من فضلك ارحل عن هنا وإلا اتصلتُ بالشرطة.

- هل أنتِ معتوهة أم ماذا؟.. أنا ضابط شرطة!

- لكنك لا تملك حق استجوابه.. سأشتكيك إلى رؤسائك إن لم ترحل في الحال.

ابنة الدهاليز!.. أصابتْ صبري في منتصف جبهته، صحتُ بها:

- اسمعي لا أريد أن أؤذيكِ.

عقدتْ ذراعيها فوق صدرها وبمنتهى الصفاقة قالت:

- حاول إن كنتَ تقدِر.

حشرة أخرى لا تعرف مقدار وزنها في هذا الكون، حشرة لم تمر بعد بأطوار التحول.. حشرة لم تنسلِخ بعدُ إلى كلب.. لكنني قادر على تغييرها.

سأعود إليها ثانية..قريبًا جدًا.

ﷺ

أحب الأماكن التي تبعث بالخوف في الإنسان، المقابر.. إنها المكان المثالي لصناعة الخوف.. لذلك كانت نكهة الهواء مالحة بينما أمر بين شواهد القبور، في ظلام يقضم ضوء مصباح هاتفي النقَّال بعضًا منه.

ماذا قال لي «بيضة الديناصور» بعد أن قررتُ الذهاب بنفسي؟

القبر الأخير الواقع بجوار «الخرابة»، في نهاية السور. كنتُ أحاذر في خطواتي رغم أنني أظن أن المكان خالٍ من أي كائن حي، لا كائن عاقل أو غير عاقل يرغب في البقاء على مقربةٍ من القبور. نؤمن بحقيقة الموت في قرارة أنفسنا، لكننا لا نُحب أبدًا أن نراه.

ها هي نهاية السور.. والخرابة.. والقبر الأخير.. ثم رأس يبرز خلف الشاهد، دنوتُ من صاحبها، كان مقرفصًا يضع يديه فوق قدميه، ويطلق عينيه نحو السماء. يبدو أن صوت خطواتي استرعى انتباهه فالتفتَ بعينين غائرتين.. سوداوين.. ضيقتين.. لا يُرى ما هو مُخبَّأ خلفهما.. العين نافذة الروح لكن عينيه كانتا نافذة مُصمتة.

يتعرَّق.. تتشابك أصابعه في توتر.. يدور بؤبؤ عينيه فيما حوله بترقب، يتساءل:

- من أنت؟

قالها بصوت مُصمت كعينيه. دنوتُ منه خطوة، ثم أبقيتُ على مسافة خمس خطوات تفصلنا. قلتُ أدسُّ كفي في جيب بنطالي أخرج منديلًا أحول به دون وصول رائحته الكريهة إلى أنفي:

- أنت عامل المشرحة الهارب من النادي، أليس كذلك؟

غالبَ حُراس النادي على حين غفلة ثم فر هاربًا. كان الأمر كما وصفه «بيضة الديناصور» تمامًا.. الرجل افترش الأرض وقد كبَّل نفسه حول صدره وبطنه بسلاسل حديدية في شاهد القبر الأخير، تاركًا ليديه حرية الحركة!.. يأكل ويشرب دون أن يتحرك من مكانه، من أين يأتيه الطعام والماء؟.. عن طريق حارس المقابر وزُوَّارها.

- نعم أنا عامل المشرحة.. لكنني لستُ هاربًا.

- وماذا أنت إذن؟.. لماذا سرقت جثة «الكاتب الكبير»؟.. أين خبَّأتها؟.. ولماذا تُكبل نفسك وسط الأموات؟

مال إلى الأمام ولا يزال جالسًا مفترشًا الأرض.. شيء ما في وجهه مُخيف، مُقزز.. ليس فقط الأوساخ والأتربة وبُقع القيح والجَرَب.. بل شيء آخر لا أجد له اسمًا ولا صفة.. قال وصوته يفتح الباب أمام بُعد خامس بعد الطول والعرض والارتفاع والزمن:

- مَن الأموات؟.. هم؟.. أم نحن؟

- ليس لدي الوقت لأستمع إلى أي هراء.. هناك قوة من الشرطة خرجتْ منذ قليل وستأتي للقبض عليك.. وصدقني.. ستعترف بكل شيء مثل الكلب.

اتسعتْ ابتسامته فقط لأدرك تحت ضوء المصباح أن فمه خال تمامًا من الأسنان.. بل الأبشع من ذلك أن ملامحه باتت وكأنها تتلاشى!.. وكأن حرارة ما لامستْ وجهه وكادتْ أن تصنع منه عجينة مجهولة الشكل.

ثبَّتُّ المصباح على وجهه أكثر، لم تنفر عيناه من الضوء رغم اعتيادها كل هذا الظلام، لم يجفل من اقترابي، لم تُخفه تهديداتي.. عندها أدركتُ الشيء المقزز الذي لمسته.. هذا الرجل وكأنه لم يعد بشريًا.. وكأنه عائدٌ من عالم الأموات.

الفارق بينه وبين الأموات الذين يُحيطون به أن بإمكانه أن يتكلم بالهراء ويبتسم بفم خال من الأسنان، وقسمات وجهه التي تكاد تتلاشى.

ربَّتَ فوق القبر الذي يُسلسل به نفسه:

- هنا لا يرقد أموات.. هنا لا يرقد أي شيء.. نحن لسنا أحياء لنموت.. نحن مجرد فراغ اجتمع ليُكون فراغا.. وحوله فراغ.. فوقه فراغ.. تحته فراغ.. فراغ عن يمينه.. وفراغ عن شماله.. هنا لا ترقد جثث.. لأننا لا نموت.. لا يموت سوى الأحياء.. هل رأيتَ فراغا يموت.. كيف للفراغ أن يموت؟

كان يهذي.. كأشد ما يكون الهذيان، أردتُ أن أصيح به.. أسبه.. أركله.. أضربه.. لكن وجهه أوقفني.. هذا الشعور الغريب بأنه غير

بشري أعجزني عن التقدم خطوة.. أو النطق بكلمة.. أردف وهو لا يزال يربتِ بكفه القذرة فوق القبر:

- هنا يرقد فراغ زوجتي.. أرادتْ أن تحولني من رجل حقير إلى رجل ذي ضمير حي.. فسلَّمتني إلى «العلماء» بمساعدة سائق سيارة أجرة.. وكادوا ينجحون، إلا أنني لم أكن رجلًا من الأساس.. أنا فراغ.. هل يُمكن أن يكون للفراغ ضمير كما للأحياء؟.. هل يمكن أن تكون له حياة؟

لم ينتظر إجابة مني.. يسأل نفسه ويجيب:

- نعم يمكن.. يعيشون بصورة طبيعية كما الأحياء.. حتى اللحظة التي يدركون فيها أنهم فراغ.. عندها ماذا يصنعون؟.. هل يستمرون في عيش كذبة؟.. أمْ يُسلسلون أنفسهم في شواهد القبور.. هم أموات على أي حال.. بل أقل من الأموات.. هم فراغ.. أنا فراغ.. أنت فراغ.

- أين جثة «الكاتب الكبير»؟.. هل أخفيتها؟.. هل بعتها؟

- هل تعلم أنني كنتُ أفعل ذلك؟.. قبل أن تُسلمني زوجتي إلى «العلماء».. بل لعلها سلمتني لهذا السبب تحديدًا.. كنتُ أبيع جثث المشرحة.. كاملة أو مُجزأة.. كنت أقطع من تلك الأجساد دون ذرة ندم.. لكن بعد أن أصلحني «العلماء» لم أشعر بالندم كذلك.. لأنهم فراغ.. أنا فراغ.. أنت فراغ.. البحر الذي اختفى.. كلا.. لم يختفِ.. لأنه من البداية كان فراغًا.

- أنت مجنون.

- أنا مجنون.. لكنني فراغ.. فراغ مجنون.

ثم طفق يضحك ضحكات متقطعة كانت أشبه بالعواء، سمعتُ صوت سيارات القوة تقترب.. سيأسرون الرجل حتى أعود لاستجوابه مرة أخرى.. غادرته ولا تزال ضحكاته تسري في الهواء.. تتسرب إلى مسامي

وتُشعل مع كلماته شعورًا غريبًا في أعماقي.. رجل مجنون.. ليس أكثر من مجنون!

نا داني.. فاستدرتُ.. أوقف الضحك.. صاح كي أسمعه:

- اذهب إلى المرأة؟

- أي امرأة؟

- المرأة التي تعرف طريق البوابة.. اجعلها تفتحها.. إنها تُصدق حارس البوابة.. لكنها خائفة.. قل لها ألا تخاف.. دعوه ينقذنا جميعًا.. دعوه يُخرجنا من هذا الفراغ!

أكملتُ سيري دون أن ألتفتَ مرة أخرى، هذا الرجل ليس أكثر من مجنون، يصرخ ويصرخ، صوته طعنات تشق سكون الليل، وتُخيف القمر:

- دعوه يُخرجنا من هذا الفراغ.. دعوه يُخرجنا من هذا الفراغ.

وفي منتصف تلك الليلة ذاب القمر!



(٢٣)

ثلاثة ورابعهم سِرّهم

ضاق «حصان طروادة» بصغر حجم سيارة «أسمر»، ووضاعة حالها، كاد أن يترجَّل منها ليريح جسده المحشور، لولا أنه لا يرغب في أن يراه أحد ويتعرف عليه.

كان بإمكانه أن يترك المهمة الخطيرة كاملة لـ «أسمر»، لكنه لا يثق كثيرًا في هذا السائق المرتبك، الذي يقضم أظافره منذ أن توقف بالسيارة أمام منزل تلك الطبيبة «خيال».

وكان بإمكانه أيضًا أن يسند المهمة إلى شخص غيره، محترف، يقدر على القيام بها على وجهها الأكمل، لكن هذا يتطلب وقتًا وحرصًا وقدرًا كبيرًا من الثقة في الشخص المقترَح، أما «أسمر» فهو في نظره كالدمية لا خطر منها، ويُمكن تحريكها بأصابع يد واحدة.

«... وفي هذا الحادث المؤسف سقط ثلاثة وسبعون من الضحايا ما بين قتلى وجرحى في حالات حرجة، هذا وقد طالب المتبرعين بدمائهم لضحايا الحادث بتأجيل التبرع بسبب عُطل في الكاميرا التليفزيونية التي ترصد تلك اللحظة الإنسانية...»

أطفأ «أسمر» الراديو بحدة. لا يفتأ أن ينظر إلى ساعة يده كل عدة دقائق، في الواقع هو لا ينتظر وقتًا محددًا لبدء مهمته، فالمهمة تبدأ ما إن تخرج تلك المرأة من باب العمارة، لكنه لا يعرف ماذا يصنع سوى مراقبة الوقت دقيقة تلو أخرى.. مما يزيد من ارتباكه أكثر.

وخلال الدقائق الخمسة والثلاثين التي مرَّت عليهما في السيارة، يترقبان خروج فريستهما من بيتها، كانت إحدى ساكنات العمارة قد نزلت ما لا يقل عن سبع مرات، تعبر الطريق إلى حيث صندوق بريد منتصب في الزاوية.. تفتحه.. لا تعثر بداخله على رسالة تخصها، تغلقه.. ثم تعود بأدراجها إلى العمارة، وتختفي داخلها.. ولا تمضي عدة دقائق حتى تُكرر الأمر مرة أخرى.. بالترتيب ذاته. مما دفع «حصان طروادة» ليهتف بغيظ:

- هل هذه المرأة تُعاني من اختلال عقلي؟.. لماذا تفتح صندوق البريد باستمرار؟!

لم يملك «أسمر» لذلك جوابًا، لكنه على عكس الرجل الجالس بجواره، شعر بإشفاق نحو المرأة، لا أسوأ من أن ننتظر رسالة لا تأتي أبدًا.. لا، بل هناك الأسوأ.. وهو الأمل في أنها ستصل ذات يوم.. هذه المرأة تنتظر لأنها لم تقطع عنها الأمل.. لو قطعته لكانت توقفتْ منذ زمن عن ملاحقة صندوق البريد.

دقائق أخرى تمر.. كان تركيز الرجلين منصبًّا على مدخل العمارة، لذلك لم ينتبه أي منهما إلى سيارة «شاهق» التي توقفتْ أمامهما ببضع سنتيمترات، ولا عندما ترجَّل منها ودنا من نافذة السائق ليقول بدهشة:

- ماذا تفعل هنا يا «أسمر»؟

اضطرب «أسمر» لمرأى صديقه، وتبادل مع «حصان طروادة» نظرات القلق.. كان الأخير يُخفي نصف وجهه بقبعة من القش، لكن الضابط الحاذق تعرف عليه في الحال، لم ينطق بكلمة أخرى، فتح باب المقعد الخلفي ودسَّ جسده بالداخل. ثم قال:

- والصحفي الشهير أيضًا!.. الآن من منكما سيخبرني بما تفعلانه هنا؟

لو كانوا في عالم مثالي يخضع للمنطق لما كان هناك حاجة لرجال الشرطة، لأنه لما وجدتْ جريمة من الأساس، ولأنهم لا يعيشون من عالم منطقي؛ كان لزامًا على «شاهق» أن يفتش عن الحقيقة بنفسه.

لكن عليه أن يكون صادقًا مع نفسه، لم يأتِ فقط إلى بيت المرأة ليقتنص الحقيقة الضائعة بين شفتيها؛ بل ليُعطِيَها درسًا على طريقته الداروينية.

بادر «أسمر» بكلام لا رأس له ولا ذيل، يفشل في إقناع طفل صغير، أما الرجل الجالس بجواره كان أكثر ذكاء، التفتَ صوبه ليقول:

- فلنكشف أوراقنا، ما رأيك أيها الضابط الهُمام؟

لم يكن مُستبعدًا على الصحفي الشهير أن يعرف «شاهق» إذ أن سُمعته التي يستمدها من شدته وطريقته الغريبة في استجواب المجرمين قد بلغت القاصي والداني. أجابه «شاهق» باستمتاع:

- إذن أنت تعرفني.. جيد.. فلتكشف أوراقك إذن.

- ثلاثتنا نريد من هذه المرأة شيئًا يهم كلًّا منا.. أنت يا «شاهق» باشا ترغب في حل غموض قضية مقتل «الكاتب الكبير» حتى تتجنب التحقيق المفتوح ضدك باحتجازك مُجرمًا بشكل يخالف القانون، أليس كذلك؟

يعترف «شاهق» لنفسه أن كلمات الرجل سببتْ اضطرابًا بلغ تجويف بطنه واعتصرها؛ فتصاعد منها ألم خفيف.. وحتى لو أنكر فتكسُّر ابتسامته خير دليل على دهشته من معرفة الرجل بكل هذه التفصيلات.. لم ينطق بكلمة.. تركه يستكمل حديثه وهو يشير برأسه إلى «أسمر»:

- أما سائقنا اللطيف فهو يريد أن يثبت أن هذه المرأة ذات المعطف الأصفر هي قاتلة «الكاتب الكبير» فيُبرئ ساحته من الإثم.

هنا كانت دهشة الضابط قد وصلت إلى أقصى معدلاتها فهتف:

- لحظة واحدة.. أتريد أن تخبرني أن هناك بالفعل امرأة ذات معطف أصفر كانت في بيت «الكاتب الكبير» ليلة الجريمة.. وأن هذه المرأة هي نفسها «خيال»؟

طرقع الصحفي الشهير بأصابعه قائلًا:

- أصبتَ الهدف.. هي نفسها الدكتورة «خيال».

اضطرب «شاهق» أكثر، فكل شيء تعقد إلى حد غريب.. ولكن في الوقت ذاته بدا كل شيء جليًا له الآن.. هذه المرأة بالفعل وراءها سر خطير.. لم يكن هاويًا ليكشف للرجلين جميع أوراقه.. لم يخبرهما بأمر «الرواية التي قتلت قارئها» ولا بأنه يبحث عن كاتبها الذي هو نزيل النادي للعلاج، كاتبها الذي أكل زوجته!

يأمل فقط ألا يكون الصحفي اللعين يعرف كل شيء بالفعل، فهذا يسرقِ منه غموض الأسرار، لا يحب أن يكون في موضع صاحب اليد السُفلَى الذي يجهل الكثير من المعلومات. قال «شاهق» بزهو الذي يجود بالمعلومات:

- لعلمك فقط، هذه المرأة ليست طبيبة، ولا حتى أخصائية نفسيه.. هذه المرأة لم تُكمل تعليمها الجامعي من الأساس.

كانت الدهشة هذه المرة من نصيب الرجلين في المقعدين الأماميين من السيارة.. ثم استطرد الضابط موجهًا حديثة إلى الصحفي:

- وأنت، ماذا تريد من تلك المرأة؟

- لنقل معلومات لا تفيد أحدًا.

- ولماذا تريدها طالما أنها لن تفيد أحدًا؟

- لنقل أنني أعاني من بعض الخمول والملل وأبحث عن مغامرة مثيرة، هل لديك اعتراض؟

وكان ذلك أكثر ما يبغضه «شاهق» لقد أصبح صاحب اليد السُفلَى بالفعل. تحدث «أسمر» بتوتر بالغ:

- اسمع يا «شاهق» ما كنتُ سأورط نفسي في هذا الأمر لو لم أكن على ثقة من أن هناك امرأة قد دخلت بيت «الكاتب الكبير» في تلك الليلة، أنا لا أريد سوى العدالة فحسب.

- طبعًا، طبعًا.. وماذا تنوي أن تفعل لتحقيق هذه العدالة يا راعي العدالة؟

حاول «أسمر» الجواب لكنه وقف كالغصة في حلقه. فأجاب عنه الصحفي:

- سنختطفها!

- جميل.

قالها «شاهق» ولم يزد.. بدتْ هذه الأحداث مثيرة إلى الحد الذي دفع بالأدرينالين إلى أن يغزو عروقه.. ولكَم يحب ذلك.

***

كانت خطة «أسمر» والصحفي تتلخص في السير بجوارها بضعة أمتار بالسيارة، ينزل «أسمر» ــــ مخافة أن يتعرف شخص ما على الصحفي، فلم يكن مقتنعًا أن قبعة القش تُعد وسيلة تنكر جيدة ــــ يدفع بها إلى المقعد الخلفي، يعود إلى مقعد السائق، ثم ينطلق بسيارته.. لكن الصحفي كان قد احتاط لهذا الأمر جيدًا، وأتى معه بمنديل قماشي ومُخدر قوي، وتقتضي الخطة أن ينزل «أسمر» من السيارة، يُخدر المرأة، يسحبها إلى الداخل، ثم ينطلق بها.

أما «شاهق» فقد رأى قصورًا في هذه الخطة إذ قال:

- الشارع مزدحم بالمحلات، الرصيف المجاور لمدخل العمارة يكتظ بالعابرين، فلنفترض أن الناس عميان، فهل هم صُم كذلك؟..

فصرخة واحدة تنطلق من فم المرأة قبل فقدانها للوعي لَمِن شأنها أن تجعلنا فريسة سهلة لبطش هؤلاء الرعاع.

- وجهة نظر سليمة.. وماذا تقترح أيها الضابط الهُمام؟

أجاب بعد لحظات قليلة من التفكير، وقد عاد إليه زهوه كونه المُحرك الأساسي للأحداث:

- إذا أردنا إلهاء الكلب ألقينا له بعظمة.

كان السؤال من نصيب «أسمر»:

- ماذا تقصد بالعظمة؟

أجابه «شاهق» بالفعل لا بالكلمات.. أخرج رأسه من النافذة، وضع إصبعين في فمه وأطلق صفيرًا طويلًا.. لم تكد تمر ثانية واحدة حتى كان باب سيارته المتوقفة أمامهم ينفتح، ويخرج منه.. كلب بشري!

يرتدي فوق كامل جسده بدلة مطاطية بيضاء مُرقعة بالأسود، يتبدَّى منها فمه وعيناه، يزحف على أربع، يُخرج لسانه لاهثًا، يُشمشم بأنفه عن صاحبه.. يدنو من السيارة.. من رأس «شاهق».. يقفز قفزة تُمكنه من تعلق أطرافه الأمامية في نافذة السيارة.. يُخرج لسانه ويلعق به كف «شاهق».

كانت الصدمة جلية على وجه الرجلين في المقعد الأمامي.. صدمة أعجزتهما عن السؤال.. لكن «شاهق» اهتم بمنحهما إجابة عن سؤال لم يسأله أحد، لعلمه أنه يعصف برأسيهما.

قال وهو يمسح رأس كلبه الأليف:

- هل سمعتما عن ظاهرة «البَشَر الكلاب» أو «البَشَر المُستكلبين»؟.. لقد بدأت في «بريطانيا» ثم انتشرت بسرعة إلى باقي دول العالم.. ربما يظن البعض أنها تأخَّرتْ في الوصول إلينا، لكنها بالفعل كانت تحدث بأشكال ونسب متفاوتة.

قطع حديثه ليُخرج من جيب سترته علبة معدنية، قرأ «أسمر» التعريف المكتوب عليها ليُصاب فورًا بالغثيان.. «طعام للكلاب».. فتحها «شاهق» وقرَّبها من فم كلبه الأليف، فأخذ ينهش ما بها في نهم.. بينما يستطرد صاحبه:

- ربما يرى البعض أنها وسيلة لسحق الإنسان، وقتل آخر ذرة من إنسانيته.. وبل ويعدونها موتًا أخلاقيًا.. لكنها في الواقع تحرره من الضغوط.. فما أصعب أن تكون بشريًا.. انظرا حولكما.. الناس يسيرون في الطرقات كالموتى الأحياء.. «زومبي» لا يعرف من أين أتى ولا إلى أين هو ذاهب.. يدور كالثور حول طاحونة الحياة.. ليكسب مالًا يحتاجه فقط ليبقي نفسه على قيد الحياة، من أجل أن يعمل ويأتي بالمال الذي يبقيه على قيد الحياة، حتى يعمل ويأتي بالمال الذي... دائرة مفرغة متصلة حلقاتها.

فكان لزامًا على قانون الانتخاب الطبيعي أن يتدخل ليفصل بين البشر.. يصنع منهم أنواعًا وفصائل.. حتى وإن كانت الفصيلة الأدنى هي الفصيلة «الكلابية».. ستجد أنها أكثرهم سعادة.. لأنهم لم يعد مطلوب منهم أن يقلقوا على حيواتهم.. أو أن يتبنوا رأيًا أو مبدأ يتآذون بسببه.

لم يعودوا مضطرين إلى التحلي بقواعد أخلاقية أو حضارية.. توقفوا عن سحب الطاحونة وتركوا أرواحهم وأجسادهم تحت مشيئة مالكهم، يأتمرون بأمره، دون أن يكون لأرواحهم وعقولهم وضمائرهم دخل في ذلك.

جهاز مناعة الضمير يُمرر الأفكار والأفعال والأقوال أو يُهاجمها.. لكن في الفصيلة «الكلابية» تعطَّل عمل هذا الجهاز من الأساس.

كان كلبه قد أجهز على طعامه كاملًا، وتجشأ في رضا.. جذبه «شاهق» من طوق رقبته ليمسح فوق رأسه ويردف:

- المستكلبون يزداد ذكائهم عما كانوا وهم بشر.. إذ أن متطلبات الحياة بالنسبة لهم أقل ضغوطًا.. وهم أيضًا أكثر وفاء لحياتهم الجديدة.. لم أر مُستكلبًا فضَّل العودة إلى حياته البشرية.. أبدًا.. لأنهم صاروا أكثر تكيفًا مع الحياة..

فكما يقول «داروين» في كتاب أصل الأنواع «البقاء ليس للأقوى، بل للأقدر على التكيف».

طبَق الوجوم على وجه الرجلين.. تتلاعب بعقليهما الظنون حول الصحة العقلية لثالثهم.. لا ينكر الصحفي أن لهذا الرأي وجهة نظر مُعتبرة.. أما «أسمر» فقد لفظها كاملة.. التفتَ صوب النافذة عن يساره.. وفي الحال تقيأ كل الكلمات التي سمعها من صديقه.

ثم فكَّر، نحن في هذا العالم لا نعيش.. نحن فقط نحاول النجاة!

خرجت تتهادى في معطفها الأصفر.. تحركتْ غريزة الصيد في الثلاثة رجال.. يتبادلون النظرات وكل منهم يعرف دوره جيدًا.. كانوا كـ«عنكبوت السلطعون» الذي يُفضِّل نصب الكمائن لفريسته بدلًا من مطاردتها!

وفي لحظة الصفر أشار «شاهق» لكلب حراسته صوب المرأة.. فكشَّر عن أنيابه.. وقفز على أربع وهو يطلق نباحًا شرسًا يُفزع الموتى.. تسمَّرتْ المرأة في ذعر وهي ترى رجلًا في بدلة مطاطية بيضاء مُرقعة بالأسود يُهاجمها ككلاب الطرقات.

أطلقتْ صرخات مدوية.. اندفع البعض يُزيحون دهشتهم في محاولة لإنقاذها.. محاولةً على استحياء.. مخافة أن يترك هذا «الشيء» المرأة وينقض عليهم بدلًا منها.

وما إن ظهرت الدماء فوق وجهها حتى تلاحمتْ الأجسام، مخافة أن يُنهي الكلب وليمته ويبحث عن قطعة لحم جديدة.

ووسط الهرج والمرج نزل ثلاثتهم من السيارة.. الصحفي يتظاهر بالمساعدة.. «شاهق» يكتم أنفاس المرأة بمنديل مُشبع بمخدر قوي.. و«أسمر» يُساعده على حملها إلى المقعد الخلفي.. يركب الثلاثة رجال.. ينطلقون مُبتعدين وهم يُشيعون الكلب بنظراتهم الأخيرة.. بينما تتشرب الأرض دماءه، ويبتلع الهواء وأنفاسه.. شاخص البصر.. مسلوب الإرادة.. مهدور الضمير.

فارق الحياة وهو يعلم أنه وُلِد فيها مرة، ومات فيها مرتين.

التاريخ حبل مشدود بإحكام بين الماضي والمستقبل.. يهتز بثقل الخطوات وشدة النزوات.. يسير فوقه البهلوان، ويحاول إيجاد مناطق آمنة لعبوره.. وعلى البهلوان أن يدرك أن الأحداث لا تتصل بأحداث، بل بآراء وأفكار.

وربما كان هذا هو خطأ أربعتهم.. كل واحد منهم كان يحتكم على قطعة من التاريخ.. لا يبوح للآخرين بسرها.. فلم يسمحوا للحبل بأن يتصل.

كان البيت الأكثر أمانًا هو بالطبع بيت الصحفي، وفي قبوه العلوي ثبَّتوها فوق مقعد فاقدة الوعي، وقيدوها بإحكام.

وما إن أدرك جسدها وطأة القيود حوله؛ حرر عقلها وعيها فجأة ليطفو على السطح.. كانت تُجيل بأنظارها في ثلاثتهم بارتعاب.. تجهل المكان والزمان والحدث.

كانوا قد تناثروا في أرجاء الغرفة.. لكن في مُحيط نظرها.. الصحفي يجلس فوق مقعد وثير مقابل لها، مُنهمك في التحدث همسًا إلى نفسه. الضابط يتفحص الأوراق البحثية العلمية المثبتة فوق الجدران، في محاولة لأن يربط بينها وبين الصحفي وغرضه من المرأة. أما «أسمر» فكان يوليها

وجهه ويستند بظهره إلى النافذة الوحيدة المغلقة، بينما يتأمل الساعة الكبيرة المُعلقة فوق رأسها.. أرقامها وعقاربها من البراغيث الزرقاء.

- لماذا أحضرتموني إلى هنا؟

نظرتْ حولها فإذ بكل شيء رمادي اللون وكأنها دخلتْ المادة الرمادية لمُخ أحدهم.

دنا منها «أسمر»، تأمل ملامحها الدقيقة وأنفها الصغير، وفي محاولة لبث الأمان فيها قال:

- لا تخافي.. لن نؤذيكِ.

لكنها انتفضتْ تحاول الابتعاد عنه قدر طاقتها؛ فبادرها «شاهق» هازئًا:

- نعم، لا تخافي منه فـ «أسمر» مجرد سائق سيارة أجرة مُسالم.

ثم اشتعلتْ عيناه قسوة قائلًا بشراسة:

- إن كنتِ ولابد خائفة.. فأنا من يجب أن تخافي منه.

«أسمر» السائق!.. تذكرتْ كلمات عامل المشرحة، عن «أسمر» السائق الذي سيقتل والدها، فازداد انفعالها حدة. تطلعَّتْ إلى «أسمر» باشمئزاز، وكأنه وحده المسئول عن اختطافها؛ صاحت به:

- ماذا تريد مني؟

وقف «أسمر» بمحاذاة مقعد الصحفي، الذي كان مُتلذذًا بمراقبتها وهي تصارع قيوده المُحكمة. لكن الاستمتاع كان أبعد ما يكون عن «أسمر».. كان سابحًا بنظراته في وجهها الذي تعلوه آثار أظافر المُستكلَب، نظر مليًا إلى عينين ترشقانه بكره وغضب.

ولا يدري لما راوده شعور قوي بأنه التقى بهاتين العينين من قبل.. ليس ليلة الجريمة، فعندئذ لم يرَ منها سوى معطفها الأصفر.. لكن يومًا ما التقاها.. أو حادثها.. أو لعله التقاها ولم يحادثها.

غريب.. إنها مألوفة له كثيرًا.. وكأنها جزءًا من نفسه.. أو حجرة من حجرات قلبه.. أو قطرة دماء تسري في أحد شرايينه.. ما هذا الشعور الغريب؟!

تقدَّم «شاهق» ليحاذي رفيقيه قائلًا:

- سأسألكِ بضعة أسئلة.. ستجيبين عنها بوضوح دون حجب أي معلومة.. وعندئذ ستعودين سالمة إلى بيتك.

دنا أكثر فأكثر.. انحنى صوبها.. حتى لم يعد يفصل بين وجهيهما سوى بضعة سنتيمترات، قال بصوت كالفحيح:

- أما إذا كذبتِ، أو ناورتِ، أو خادعتِ، أو تهربتِ.. فإما أنك ستعودين إلى بيتكِ غيرَ سالمة.. أو لن تعوديَ على الإطلَاق.. اتفقنا؟

لم يتوقع ثلاثتهم ردة فعلها، حتى أن أمواج الدهشة عصفت بهم لعدة ثوان جمدتهم في موضعهم.. فقد بصقتْ «خيال» بقوة في وجه مُحدثها.

وما إن تحرر عقله من دهشته حتى وقع أسيرًا لشياطين الغضب، انهال على وجهها بثلاث صفعات متتاليات، جعلت الدماء تنبثق من جروح قطعية أخرى. تحرَّر «أسمر» من صدمته وأمسك بيد «شاهق» بإحكام، في حين قال الصحفي وهو يروي غضبه من نفس البئر:

- لن تخرجي من هنا حتى نحصل منكِ على كل ما نريد.

لا تُنكر أن الخوف يعبث بقلبها في هذه اللحظة، لكن أسوأ شيء تفعله بنفسها هو أن تسمح لأنوفهم بتشمم رائحته، تظاهرتْ بالجَلَد وهي تقول:

- ماذا تريدون مني؟

عاد الصحفي إلى مقعده، ترك مُهمة الاستجواب إلى من يحترفها.. بادرها «الضابط» وصوته لا يخلو من الحزم:

- لماذا أنا وأنت وهذان الرجلان وحدنا من نتذكر «الكاتب الكبير»؟.. لماذا نسيه الجميع؟

تجوَّلت في وجوههم بدهشة حقيقية، هتفت:

- ماذا تعني؟.. أي عبث تقول!

تظاهر بمُهاجمتها، وهو يعلم أن «أسمر» سيهُب لاعتراض طريقه.. أراد أن يلعب معه دون علمه لعبة الطيب والشرير. صاح:

- لا تتظاهري بالغباء.

- بل ما تقوله أنت هو عين الغباء.. كيف ينسى الجميع شخصًا عاش بينهم لسنوات؟

- كل شيء عنه اختفى.. جثته، حياته، كلماته، لقاءاته.. وكأنه لم يوجد قط.

- كيف يختفي كل ذلك؟

- كما اختفى البحر.

قالها الصحفي، ثم أردف:

- أين ذهب «الكاتب الكبير».. سافر، أليس كذلك؟.. سافر إلى مكان بعيد جدًا.. إلى مكان لم يسافر إليه أحد من قبل.. أنت تعرفين.. حتمًا تعرفين.

سأله «أسمر» بدهشة:

- ماذا تقصد بمكان لم يسافر إليه أحد من قبل؟!.. ماذا تُخفي عنا؟

تجاهل الصحفي سؤاله واستمر في توجيه حديثه إليها بانفعال:

- أخبريني الطريقة.. كيف سافر.. أنت تعرفين.. كنت معه ليلة موته.. كان موته لعبة، أليس كذلك؟.. أراد أَن يُمارسها قبلَ اختفائه.. قبل سفره.. أو لعل موته من طقوس سفره.. والرواية.. هل هي أيضًا من بين الطقوس.. هل كتبها بنفسه؟.. أم كتبها ذاك المجنون الذي تُعالجينه في ناديك؟.. وما دور الرواية فيما يحدث؟.. أخبريني كيف فعلها.. كيف ارتحلَ من هنا؟

انتهى حديثه بسحق كتفيها وقد بدا أنه فقد السيطرة على نفسه، تصاعدتْ صرخاتها، هبَّ «أسمر» لدفع الصحفي عنها هاتفًا:

- يكفي.

نظر لها «أسمر» مُشفقًا:

- سنتركك لدقائق تُعيدين فيها التفكير.

قالها وسحب الرجلين إلى خارج الغرفة، ثم أغلقها بإحكام.

***

في صغرها كانت تحب التزلج المائي، تُجيده بمهارة تشربتها من أمها. كانت ابنة لمتزلجة مُحترفة، فازت بعدة مسابقات محلية، وأملتْ أن تحذو ابنتها حذوها.

لا زالت «خيال» تتذكر زلَّاجتها الأولى، بيضاء ذات وردات أرجوانية، تمنتْ أن تحملها بعيدًا عند آخر نقطة تتصل فيها السماء بالبحر.. وفي يوم عاصف شديد البرودة أجبرتها والدتها على مُمارسة التزلج برفقتها، وعندما بكتْ «خيال» خوفًا، قالت أمها:

- عليكِ أن تُجيدي التزلج في كل حال وفي كل مكان؛ حتى فوق الانهيَارات الثلجية.

لم تفهم «خيال» حينها الداعي إلى التزلج وسط المخاطر والأهوال، حسبتْ أن بإمكانها أن تختار أين ومتى وكيف تتزلج.. لكن منذ وفاة أمها بدأت تعي ما أرادتْ أن تُخبرها به وهي بعدُ صغيرة.. الحياة غدَّارة، تتحول من موج هادئ إلى إعصار في لمح البصر.. وعليها دائمًا أن تكون مُستعدة.

تسلَّحتْ بكل قوتها في مواجهة فيروسات الوحدة، والخوف، وأشباح الماضي.. لكنها أبدًا لم تتسلح للموقف الخطر الذي تتعرض له الآن، ولم تفهم من الأساس هدف هؤلاء الثلاثة.. ظنت في البداية أنهم يرغبون في

نبش قبر الحادثة القديمة، لكنها لم تفهم سؤالهم عن نسيان العالم كله «للكاتب الكبير».. هل يمزح؟!

الحادثة القديمة.. لم يمر عليها سوى ثلاث سنوات فحسب، لكنها تحب أن تذكرها وكأنها قديمة قدم الأزل.. بعيدة عنها بملايين السنوات الضوئية.. حادثة تقبع هناك في ذاكرتها درَّبتْ نفسها على أن تقطع عنها مدد العواطف الإنسانية.. تتذكرها لكن لا تشعر نحوها بأي شيء.. وكأنه فيلم شاهدته ولم يتبقَّ منه في ذاكرتها سوى بعض الصور.. فيلم لم تحبه، ولا ترغب في مشاهدته ثانية.

يومها كانت السماء مُشرقة، ودومًا كانت إشراقة السماء تُنذرها بالخطر، عادت إلى البيت بعد رحلة تزلج طويلة دامت لساعات وسط مياه البحر، لتقع عيناها على أبشع منظر في الوجود.. أبوها جالس إلى الأرض.. يداه وفمه وصدر ردائه مُتشبعون بالدماء الطازجة.

لا زالت تذكر رائحتها.. كانت قريبة من يود البحر.. وأمها مُستلقية فوق الأرض تحت قدميه.. تُنازع نفسها الأخير بعد أن طعنها لص وسرق حقيبتها..وقبل أن تعي «خيال» ما يحدث كان النفس الأخير يغادر صدر أمها صاعدًا إلى بارئه.

لم تفهم ما يحدث، كانت تظن أنها تُشاهد فيلما مُرعبًا حتى عندما ساقتْ الشرطة والدها.. واتهموه بقتل زوجته.. تدخلتْ بُكل السُبل لتكليف أمهر المحامين بمتابعة القضية.. لكن الأب من هول الصدمة ظلَّ ملتزمًا الصمت، لم يدافع عن نفسه قط.. فأشار عليها أحدهم أن يدعي أبوها أنه مجنون، لاقتْ كلماته منها رفضًا، ثم ترددًا، فقبولاً.

نجحتْ الخطة، وانتهى به الأمر نزيل النادي.. في الغرفة «اثنان وستون».. لكن السحر انقلب على الساحر، وأصيب والدها بخلل عقلي حقيقي.. يومها هجرت التزلج فوق الماء، وامتهنتْ التزلج وسط عقول مرضاها.. مخاوفهم، أسرارهم، أوهامهم.. تفهم هذا وتسمع ذاك، وتحاول إصلاح ما بهم من أعطاب.

لجأتْ إلى صديق أبيها الصدوق، لكنه نبذها، وادعى عدم معرفته بها، تنكّر لها ولصديق عمره.. لم يخبرها قط لماذا فعل ذلك.. لكنها تعرف أنه أراد صون اسمه من الفضيحة.

كان أحد المصورين التابعين للشرطة في مسرح الجريمة يومها، التقط صورة لأبيها وهو يحتضن جثة أمها، ذاهل وفمه مدرج بالدماء، ثم سرَّبها إلى الصحافة، فتحول أبوها من الشخص المسالم المحترم إلى وحش يأكل زوجته.

تلك الصورة البائسة أخذتْ بالقضية إلى منحنيات غير معتادة، فقط لأنها هيَّجتُ الرأي العام ضد أبيها قبل حتى استجوابه وسماع أقواله.

فتنكر له صديق عمره.. حتى لا تعلم الصحافة أن والدها المُتهم بأبشع جرائم الرجال في حق زوجاتهم هو الصديق الأقرب إلى.. «الكاتب الكبير» نفسه!

حقدتْ على «الكاتب الكبير» كما لم تحقد على أحد.. ومع الأيام حاولتْ ردم شعورها تحت الرمال، تمامًا كما أُهيل التراب فوق جسد أمها.. لكنها عادت لتتذكر مشاعرها القديمة عندما عثرت على رواية والدها.

تلك الرواية التي كان يعكف على كتابتها، يُشجعه على ذلك صديقه.. حتى أن الجميع كان يظنهما توأمين لا صديقين فحسب!

انتهى أبوها من كتابتها قبل الحادثة بيومين، وعثر على مطبعة جيدة لطباعة نسخة ورقية منها بمواصفات خاصة طلبها صديقه الذي قال: «لن أقرأها إن لم تطبعها بشكل جيد».. وكأنه يتعمد وضع العراقيل كي لا يقرأها.. لكم تعجَّبتْ من ذلك وقتها!

لا زالتْ تذكر هذا اليوم لأنهم جميعًا قد ذهبوا معًا للاحتفال.. ثم وقع الحادث ومن بعده القطيعة بين الصديقين.

عاشتْ طوال الثلاث سنوات مهمومة بمحاولة أن يسترد أبوها عقله.. فمنذ الحادث أخذ يتحدث عن نهاية العالَم، وعن الباب الذي يجب أن يفتحه.

استمر كل شيء على سكونه حتى عثرت على النسخة المطبوعة للرواية.. لم تعرف قط أن أباها احتفظ بها في خزينة سرية خلف صورة جدارية تجمع الصديقين.. اكتشفتْ ذلك عندما تسربتْ الشقوق إلى الجدار واحتاجتْ إلى ترميمها.

استيقظ أملها من سُباته.. تعرف أن بإمكان «الكاتب الكبير»أن يبعث بأبيها إلى الخارج ليتلقى علاجًا أفضل في أمهر المصحات النفسية.. كان بإمكان أمواله وسلطانه أن يُعيدا لأبيها الحياة التي سُلبتْ منه.

في البداية قررتْ الاتصال به ومحاولة تذكيره بالعشرة القديمة، لكنه تصرف معها بصلف وغرور عندما أغلق الهاتف رافضًا محادثتها.

وفي طريقها إلى الفيلا لمقابلته وجهًا لوجه صدمتْ الخادمة بسيارتها بغير عمد.. لم تعتد التهرب من أخطائها؛ فحملتها فورًا إلى المشفى وظلَّتْ برفقتها حتى اطمأنت على حالها.

وعندما زارتها في بيتها في اليوم التالي أخبرتها الخادمة أن «الكاتب الكبير» الذي لا يثق في أحد رفض إحضار خادمة غيرها، وأنها سترسل ابنتها لتكون في خدمته حتى تشفى ساقها.

عندئذ واتتْ «خيال» فكرة أن تذهب بدلًا من الخادمة فتتمكن من دخول الفيلا المُحرمة عليها. هاتفتْ الخادمة لتخبرها أن «الكاتب الكبير» عدَل عن قراره ولا يريد من ابنتها الحضور.. وذهبتْ هي بدلًا عنها.

ظنها الحارس ابنة الخادمة التي لم يرها من قبل.. لم تخش من أن يعرفها «الكاتب الكبير»، فهي تعرف أنه يعاني من ضعف في النظر، ويكره تمامًا ارتداء النظارات.

أعدت له شطيرة سمك لعلمها بأنه يكرهه، كطفلة عابثة تضع الملح بدلًا من السكر في شاي شخص أغضبها، ثم وضعت الرواية التي ستُذكره بأبيها فوق مكتبه وتحت ناظريه. لكنه قرأها دون أن يتذكر أباها، بل وألقى بها في سلة المهملات، أو لعله تذكره ولذلك ألقى بها.

رأتها عندما حضرت إلى الفيلا في اليوم التالي فأخرجتها ووضعتها بعناد فوق مكتبه أثناء تناوله لطعام العشاء.

ما علاقة تلك الأحداث بمختطفيها الثلاث؟

كيف عرف عامل المشرحة أن هناك سائقًا يُدعى «أسمر» سيدخل حياتها؟

وأن هذا الرجل سيقتل والدها؟

هل اتحد معهم لإيقاعها في مكيدة الاختطاف تلك؟.. لكن لماذا؟

كيف لكل هذه المصادفات أن تجتمع معًا؟

صفاء السماء السابح من خلف النافذة أنذرها بالخطر.

بيت الصحفي مكتظ بالأدوات التي يحتاج استخدامها ردحًا من الزمن، كما لو أنه يتآمر بها على الموت. هكذا فكَّر «أسمر» وهو يتجول في أرجاء المكان بعد اختفاء الرجل عن الأنظار.

لم يُفضِّل «أسمر» البقاء بمفرده بل اضطر إلى ذلك بعد انشغال «شاهق» في محادثة هاتفية طويلة مع مساعده.. ولم يرغب في أن يقتحم خلوة المرأة المقيدة بالداخل. كانت نظراتها كالسوط يلسع روحه، هو لم يؤذِها، بل حال دون أن يلحق بها أي من الرجلين الأذى، فلماذا تنظر إليه كما لو كان شيطانًا رجيمًا؟

صوت ضميره يزداد حدة، يصيح به أن ما يفعله ليس صحيحًا، لكن صوتًا آخر يُجادل الصوت الأول ويخبره أنه لا يبغي سوى الحقيقة.. ثم يظهر صوت ثالثٌ يُفسد حُجة الأول ويرد شُبهة الثاني، فتلقي به الأصوات وسط دوامة حيرة.

انتهي «شاهق» من مكالمته الطويلة، قال وهو يتفقَّد أرجاء المكان بنظرات شرطي يفحص موقع جريمة:

- أين ذهب الصحفي اللامع؟

أشار «أسمر» برأسه صوب غرفة مغلق بابها، قائلًا:

- دخل ولم يخرج.. قال أنه لن يغيب طويلًا.

ثم سأله:

- هل مِن جديد؟

- هذه المرأة تُخفي الكثير.. فالرجل الذي تُشرف على علاجه والذي كتب الرواية المُميتة.. هو أبوها.

تطلع إليه «أسمر» بدهشة بالغة قائلًا:

- أي رجل؟.. وأي رواية؟

نسي«شاهق» لوهلة أنه يتحدث إلى «أسمر» وليس إلى نفسه.. كثيرًا ما يتناسى وجوده كأنه ذرة غبار تسبح في الهواء.. تدارك الأمر قائلًا:

- لا عليك.

لكن «أسمر» أصر:

- أخبرني.

حدَّثه «شاهق بإيجاز عن الرواية التي تدفع بكل من يقرأها إلى أن يلقي بنفسه من ارتفاع شاهق.. قابضًا على هاتف محمول.

فبلغت حيرة «أسمر» أقصاها.

الأحداث تزداد غرابة، خاصة في غياب رابط منطقي يجمع بينها.. سُحقًا للمنطق.

سأله «شاهق»:

- هل قال لك «حصان طروادة» شيئًا؟

تلفَّتَ «أسمر» حوله وهمس مخافة أن تتسرب كلماته من تحت أعتاب الباب المغلق:

- «شاهق»، هذا الرجل لا أثق به على الإطلاق.. حديثه غامض ونيته غير واضحة.. ماذا يريد من تلك المرأة.. وعن أي سفر يتحدث؟

- أنا أيضًا لا أثق به، لكنه مجرد أداة نستخدمها حتى نحصل على ما نريد.

طال انتظارهما للصحفي، إلى الحد الذي جعل «شاهق» يطرق الباب مرات ومرات. ولمَّا لم يستجب للنداء، تبادل مع «أسمر» نظرة صامتة، لكنها قالت الكثير، وفي اللحظة التالية كانا ينقضان بكتفيهما على الباب في محاولة لاقتحامه. لم يصمد أمامهما طويلًا، ليس لقوتهما بل لضعف القفل الذي تناثرت المسامير المُثبِّتة إياه أرضًا.

دخلا الغرفة لتقع أنظارهما على أبشع مشهد رأياه في حياتهما!

الصحفي مستلق فوق الأريكة يكسوه آلاف الكائنات الزاحفة ببطء.. صغيرة، زرقاء، ملساء، بغير شعر.

بدا لهما حيًا لكن في حالة جمود، وكأنه في حلم.. لكي نحلم علينا أولًا أن نُطلِّق الواقع طلقة رجعية، وندخل في حالة من السكون.. الجمود هو مُفتاح الحلم!

لكنه بدا لهما وكأنه قد طلَّق الواقع طلقة بائنة، إذ لم تفلح نداءاتهما وصياحهما الملتاع في تحريك عضلة واحدة من جسده. لولا عينان مفتوحتان تتحركان هنا وهناك لظننا أنه قد فارق الحياة.

سرتْ قشعريرة باردة في جسد «أسمر» وهو يدنو من الصحفي ويُحاول الإطاحة بالحشرات العالقة بجسده عن طريق ضربها بإحدى وسائد الأريكة.. صاح بـ «شاهق»:

- ساعدني.

حمل «شاهق» ممتعض الوجه وسادة أخرى وانهال بها على جسد الصحفي، لكن الحشرات لم تتحرك قيد أنملة، التصقتْ بجسده كالعلقات.

- علينا أن نتصل بالشرطة.

اغتاظ «شاهق»:

- أنا الشرطة!

- إذن تصرف.. لن نترك الرجل فريسة لهذا الجيش من الـ...

انتفضا يتقهقران للخلف، كالجيش المنهزم، إذ بدأت الحشرات في مُفارقة الجسد الدافئ.. بسرعة شديدة.. وكأنها لا تعبأ بمقاييس الزمن.

تسير في سرب طويل إلى الجدران.. تتخلل الشقوق المتوارية خلف الطلاء والزخارف.. تقتحم الطوب والإسمنت.. وتتلاشى هناك.

ومع مُفارقة آخر حشرة لعائلها ندَّتْ على الصحفي حركة، فحركتان، فثلاث.. حتى استعاد سيطرته على جسده كاملاً.

انتفض لرؤية الرجلين أمامه، يعلو وجهيهما الخوف والقرف والدهشة والغضب. وعندما أراد النهوض منعه «شاهق» بدَفعة من يده.. وقال ملوحًا بسبابته على سبيل التحذير:

- ستخبرني بكل شيء.. وإلا سأفعل بك أسوأ مما تفعله هذه الحشرات القذرة.. وقد رأيتَ بنفسك كيف بإمكاني أن أحول البشر إلى فصائل أخرى.. هذه المرة سأحرص على أن تتطور إلى واحدة من حشراتك المقززة تلك.. ستخبرني الآن بكل شيء.. أسمعتَ؟.. كل شيء.

لم يكن الصحفي بالرجل الذي يصمد أمام التهديدات، خاصة وأنه يُسابق الزمن من أجل تحقيق حلم حياته، الحلم الذي بات على مقربة خطوات قليلة، لا يحول بينهما سوى باب خشبي.. ورأس امرأة.

عدَّل من وضعيته فوق الأريكة، واستهل حديثه لاهث الأنفاس:

- هذا الأمر خاص بي ولا شأن لكما به على الإطلاق.

كانت نظرات «شاهق» كافية لينتفض قلبه، خاصة مع ما يعرفه عنه من سُمعة في مجال التحقيق والاستجواب.. فاستطرد:

- لكن رغم ذلك سأخبركما.. حتى وإن كنتُ أثق أنكما لن تستوعبا معشار ما سأقول.. منذ سنوات وأنا ألهث خلف مشروع حياتي.. سنوات طويلة عاقرتُ فيها الإحباط واليأس والفشل.. سنوات طويلة من اللاشيء.. هل تعرف معنى أن تفقد الأمل؟.. إنه أسوأ من أن تفقد الحياة نفسها.

لكن كل شيء تغير في ليلة شتوية ماطرة.. التجأتُ إلى بيتي.. ومعذرة إن أطلقتُ عليه بيتًا فقد كان مُجرد حجرة حقيرة، زُوارها من الفئران والحشرات أكثر من البشر.

سعل مرتين ثم أردف:

- لكن في تلك الليلة زارتني هذه الحشرة العجيبة.. ظننتها في البداية برغوثًا عاديًا.. لكن كثرتها وسلوكها كان شاذًا كثيرًا.. لا تأكل.. لا تهرب.. لا تموت!.. في البداية كنت أحاول دفعها عن جسدي بينما تصر هي على الالتصاق به.. ومع كثرتها سمحتُ لها ذات مساء أن تحتل جسدي كما تشاء.. لكن ما حدث كان أغرب من الخيال.. كانت البراغيث تهمس.. كذَّبتُ أسماعي مرة.. لكن في الثانية صدَّقتُ أنها بالفعل تهمس لي.. ثم صار الهمس حروفًا.. والحروف كلمات.. والكلمات جملًا.. والجمل معاني وأحداثًا وأفكارًا.

عندما تلتصق بجسدي كانت تتحدث معي عن كل شخص تخطر صورته بعقلي. كما لو أنني فتحتُ ألبوم صور يتحدث معي وجهًا لوجه.. يصف لي حياة صاحب كل وجه.. وكأن البراغيث تملك وحدها كتابًا مميزًا ليس كغيره من الكتب..

«كتاب وجوه»!

نطقتْ أمارات وجهيهما بالتكذيب، لكنه لم يتوقف عن الحَكي، لا يدفعه شيء سوى شهوة الحَكي.. مال إلى الأمام قليلًا وقد استعاد انتظام أنفاسه:

- كان ذلك مُذهلًا.. بل أكثر من مُذهل.. كان كنزًا ثمينًا أعظم من كل كنوز الدنيا.. البراغيث بإمكانها أن تأتيني بأدق التفاصيل والمعلومات عن الوجه الذي أتخيله.. كل شيء فعله صاحب الوجه قبل أربع وعشرين ساعة.. هل تتخيلان ذلك؟

كل يوم تأتيني بالمزيد من المعلومات.. حتى أنها كانت تُحلل صاحب الوجه نفسيًا وكأنها «فرويد» شخصيًا.

نسي وجود الرجلين تمامًا، نهض وطفق يروح ويغدو بحماس:

- كان كل شيء مثاليًا، إلا شيء واحد فحسب.. الطموح.. لم أتمكن من الاكتفاء.. الطموح عدو الاكتفاء.. أربع وعشرون ساعة لم تكفِني.. رغم أنها جعلتني «حصان طروادة» الصحفي العظيم الذي لا تخفى عنه خافية.. لكن ذلك لم يكفِ.. لا يكفي.. لن يكفي.

ثم أردف:

- أدتُ المزيد.. وسعيتُ خلفه بإصرار.. قرأتُ كل الكتب التي تتحدث عن السفر بالزمن إلى الماضي.. وصناعة آلة زمن حقيقية.. جربتُ كل شيء.. كنتُ أمكث في صومعة مولانا الشيخ «جو» أكثر مما أمكث في بيتي.. كنتُ أتحدث معه أكثر مما أتحدث مع أي إنسان.

ثم قال وقد وصل حماسه لذروته:

- ثم أخيرًا وبعد ثلاث سنوات كاملة من عثوري على أول برغوث.. وجد لي مولانا طريقة مضمونة لصناعة آلة زمن، تمكنني من السفر إلى الماضي.. إلى اللحظة الأولى التي نشأ فيها الخلق.. هل تتصوران ذلك؟.. اللحظة التي يتحدث عنها كل العلماء دون أن يُعاصروها.. اللحظة التي لا يستطيع أي عالم على وجه الأرض أن يأتي بأدلة ملموسة عليها.

ثم أردف وقد زاحم الغضب الحماس في صدره:

- لكن الوصفة اللعينة كانت تتضمن قطرات من مياه «البحر الأبيض المتوسط».. البحر الذي اختفى.. تخيلوا ذلك!.. لم يخبرني مولانا بالوصفة إلا بعد اختفاء البحر.. ومن بين كل بحار الدنيا لم تتضمن الوصفة سوى مياه «البحر المتوسط».. الزمن يُعاندني.. كما يفعل دائمًا!

تصاعد غضبه:

- لكنني لن أسمح له.. ليس بعد كل ما عانيته لهزيمته.. ليس بعد سماحي لتلك المخلوقات المقززة بأن تحتل جسدي كل يوم.

لم يمنع «أسمر» نفسه من مقاطعته قائلًا:

- لكن ما علاقة ذلك بتلك المرأة؟

- لا بد أن المرأة تعرف شيئًا وإلا ما ذهبتْ إلى «الكاتب الكبير» في تلك الليلة بالذات.. ما يحدثني به عقلي أن «الكاتب الكبير» لم يمت.. ولم يختفِ.. بل سافر عبر الزمن إلى الماضي.. وبمعاونة تلك المرأة أتى بجثةَ شخص يشبهه ليوهمنا أنه هو.. وإلا قل لي بربك كيف تختفي كل آثاره من الوجود فجأة؟.. كيف ينساه الجميع إلا أربعتنا؟.. هذا الرجل عرف من مولانا الوصفة.. نفذها.. وارتحل بالزمن وحده.. لكنني لن أسمح له بسرقة حلمي.. أسمعتَ.. أسمعتما، لن أسمح له أبدًا.

عندئذ صفق «شاهق» قائلًا:

- عرض مسرحي عظيم.

وما لبث أن توارتْ السخرية خلف صفحة وجهه الصارمة وهو يستطرد:

- كُف عن هذا الهراء وأخبرني بالحقيقة؟.. ما تقول لا يدخل عقل طفل في الثامنة.. هل حسبتني غرًّا يقف أمامك لأصدق هذه الخزعبلات.. السفر إلى الماضي!.. لم أرَ أسخف من ذلك.

- لا تصدقني حسنًا هذا شأنك.. سألتني وأجبتك.. وتصديقك أو عدم تصديقك ليس من شأني.. بل من شأنك أنت.. تقول أن السفر عبر الزمن خزعبلات.. لا يا عزيزي، إنه حقيقي مثلي ومثلك.. وإلا أخبرني كيف تأتيني براغيثي بصور وأخبار الماضي؟.. كيف بإمكانها أن تسرق من الزمن بضعة ملفات كان قد احتفظ بها في أرشيفه.. إنها تسافر لكن سفرها محدود القُدرة، وما أسعى له هو أن أزيد من تلك القدرة.

- ها.. تزيد من القدرة!.. جميل، لكن هلا شرحتَ لي ماهية هذا السفر.. يعني هل تستقل البراغيث سيارة أم قطارًا أم طائرة؟.. آه، أعتذر، فلابد أنها تركب الصواريخ، أليس كذلك؟

- كلا بالطبع.. إنها تسافر عن طريق «شق دودي» صنعَته في الفضاء، مكنها من الارتحال إلى الماضي.

- «شق دودي»!.. آه، إذن لابد أن هذا الشق قد صنعته دودة!

- لا تسخر.. إنها فتحة أو تغيير في الشكل يمدنا بطريق مختصر.. نفق بين الحاضر والماضي.. ينتقل المرء عبر الشق بأسرع مما يفعل الضوء..

والمشكلة التي واجهتْ العلماء في الماضي هي أن بوابة «الشق الدودي» تنفتح وتنغلق بسرعة شديدة بسبب الجاذبية، ولا شيء يستطيع العبور

خلال هذه الفترة القصيرة.. حتى الضوء ذاته.. ولكي تبقى البوابة مفتوحة بقدر كاف يؤمِّن للمسافر الدخول والخروج بأمان.. يجب أن تتفاعل معها مادةً مضادة للجاذبية، يمكن إنتاجها عن طريق الطاقة السلبية.

ثم قال بيأس:

- ولكن إنتاج طاقة سلبية كافية لذلك.. أشبه بمحاولة العثور على العنقاء.

وما لبث اليأس أن تحول إلى حماسة وهو يردف:

- لكن «الكاتب الكبير» فعلها.. لا أدري كيف تمكن من فتح البوابة بقدر كاف.. كيف تمكن من إنتاج طاقة سلبية كافية لإبقاء البوابة مفتوحة حتى يمر منها بسلام.. طبعًا ليس بسلام كامل إذ أنه فقد إبهامه أثناء العبور.

جاء دور «شاهق» ليُصاب بحماسة بالغة.. لا أحد يدري بأمر الإبهام المبتور.. لا أحد على الإطلاق.. إلا إذا كان «بيضة الديناصور» فعلها، ولكن لماذا يفعلها؟

- كيف عرفتَ بأمر الإبهام؟

- البراغيث أخبرتني.

- كاذب.. كل هذا هراء.

هبَّ الصحفي صارخًا في وجهه:

- لستُ كاذبًا.. أتريد الدليل؟.. حسنًا هاك دليل أكبر من مسألة الإبهام.. سأخبرك بشيء لا يمكن أن يعرفه أحد سواك.

ثم أشار إلى «أسمر» الذي كان قد التزم الصمت من أجل تقييم الوضع، واستطرد:

- من الذي ضرب صديقك ليلة الجريمة وأفقده وعيه.. من الذي سرق منه كاميرته بما فيها من صور كان يأمل أن تعد له مستقبلًا مشرقًا؟..أنتَ!

شجعه صمت الرجلين على أن يهتاج أكثر:

- فعلتَ كل ما بوسعك حتى تقف عقبة في طريق صديقك، تركته فاقدًا لوعيه والدماء تسيل من جرح رأسه.. يا لها من صداقة!.. ظننتَ أن لا أحد سيعرف.. لكن براغيثي تعرف.. وتخبرني بكل ما تعرف.

كان «شاهق» قد استرد سريعًا إدراكه فصاح وهو يمسك بتلابيب الصحفي:

- كاذب لعين.

فرَّق «أسمر» بينهما.. لم ينظر إلى عين «شاهق».. تحاشى النظر إليه بينما يستجديه ألا يصدق هُراء الصحفي الكاذب، لكن «أسمر» علم أن الرجل ليس بكذَّاب.

هكذا تم الأمر إذن. ضربه «شاهق» وأفقده الوعي في السيارة، سرق الكاميرا، ثم سحبه إلى جوار الجثة.

واجهه «أسمر» بهذا السيناريو. عند تلك النقطة صاح «شاهق» بإصرار:

- أنا لم أسحبك بجوار الجثة.. لم أرَ الجثة من الأساس، غادرتُ مباشرة قبل سقوطه من النافذة.

الحنكة تفضحها دائمًا زلة لسان. عضَّ «شاهق» لسانه في غيظ، فقد اعترف بنفسه بما أنكره منذ ثانيتين فحسب. أنه هو من أفقد «أسمر» وعيه. رشق وجه الصحفي الشامت بنظرة غضب.

أما «أسمر» فعادت الصورة تتشوش داخل رأسه، إن لم يسحبه «شاهق» إلى جوار الجثة، فمن فعل؟

تُرى هل يكون العم «شلبي سليم الفخراني» صادقًا في مزاعمه وبراهينه، وأنه شرير الحكاية الذي سيلاقي في نهايتها أسوأ مصير؟!

هكذا تنتهي كل الحكايات، ينتصر الخير، ويزهق الشر.

أم أن هذه الحكاية ستنتهي بشكل مختلف؟

تنامى بداخله شعور بالتقزز تجاه كلا الرجلين، فلا جامع بينهما سوى لغة المصالح.. أوليس هذا ما يسعى إليه الناس في هذا العالم؟

ففي النهاية النفاق هو الغراء الذي يربط الناس ببعضها.. ولم يكن «أسمر» من قبل على استعداد لتحمل تبعات خسارة حصته من الغراء!

لذلك التزم الصمت دومًا. أما الآن ففاض الكيل.

إن لم تكن الحقيقة حقيقة، إن لم يكن البحر بحرًا، إن لم تكن الشمس شمسًا، إن لم يكن الصديق صديقًا.. فليذهبوا جميعًا إلى دركات الجحيم.

توهَّج العناد في عيني «الصحفي» وصاح مندفعًا خارج الغرفة:

- يكفي سئمتُ كل شيء.. لن أطيل الأمر أكثر.. هذه المرأة ستتحدث بكل ما تعرفه.. الآن.

***

في غرفة واحدة اجتمعتْ أربعة قلوب متنافرة، تتجاذبها الأهواء.

يظنون أنهم مُسيَّرون لكنهم في الحقيقة مُخيَّرون. يقول الناس دوما يا ليتنا نُصلح الماضي.. لكنهم يعيشون في الحاضر الذي هو ماضي المستقبل، فلماذا لا يصلحون الحاضر بما أنه بعد لحظات سيصير ماضيًا؟

إصلاح الماضي لا يتطلب السفر إليه، بل يتطلب الالتفات إلى اللحظة الحاضرة، لأنها بعد ثانية واحدة.. ستصير جزءًا من الماضي.

لم يصدق «الصحفي» ولا «الضابط» كلمة واحدة من قصتها.. يثق الصحفي -بغير دليل- أنها تعرف كيف ارتحل «الكاتب الكبير» زمنيًا.. ويثق «شاهق» -بغير دليل- أنها هي نفسها الظل في النافذة، أي القاتلة، وأنها سممتْ الرواية بمادة مميتة تقضي على كل من يقرأها.

هي لم تنكر أنها الظل في النافذة، بل اعترفتْ بذلك.. لكنها أنكرتْ جريمة القتل.

أخبرتهم بسبب ذهابها إلى بيت «الكاتب الكبير» تلك الليلة، روتْ لهم كل شيء عن أبيها وجريمة القتل.

قالت أنها دخلتْ الغرفة في الوقت نفسه الذي كان «الكاتب الكبير» يقف بالقرب من النافذة ويتشاجر مع السماء. وفي اللحظة نفسها التقطتْ عدسة «أسمر» ظلها. حاولتْ إبعاده عن النافذة لكنه لم يتلفتْ إليها.

ولَمَّا علا صراخه واشتد ظنَّتْ أنه فقد عقله وقد يُقدم على إلحاق الضرر بها؛ فغادرتْ الفيلا خائفة، خاصة وأن الحارس لم يكن موجودًا لتستنجد به.

وفي الوقت ذاته أنكرتْ أن تكون الرواية مختلفة عن غيرها من ملايين الروايات.. رغم أن أباها لم يسمح لها بقراءتها أبدًا.

وما إن انتهت من حديثها حتى كرر صاحب العدسة كلماتها مشدوهًا:

- أبوكِ هو الرجل الذي اتهم بأكل زوجته؟!

كانت إجابتها كالبصقة في وجهه:

- نعم، هو.

صُعق باعترافها، عصفتْ به الأفكار والظنون.

هو الوحيد الذي صدَّقها.. لأنه يتذكر تلك الحادثة جيدًا.. لأنه التقط صورتها بنفسه.. الصورة التي قضت على حياة أبيها.. لكنه لم يعرف وقتها أن الرجل برئ!

كان الأمر بالنسبة له ليس أكثر من فرصة ذهبية لالتقاط صورة مثيرة، يُكتب اسمه أعلاها أو أسفلها.

لكن يبدو أن هذه الصورة لم ترو أبدًا حقيقة المشهد.. تساءل في نفسه، هل كان مخطئًا طوال حياته عندما صدَّق بالصور وآمن بها؟

هل يمكن للصور أن تكون خدَّاعة ومُغوية مثل الكلمات؟

أخذ عقله يصرخ بالجواب.. نعم، نعم.

هل لهذا السبب تنظر له وحده بهذا الحقد؟.. كلا، يشعر أن الأمر أكبر من ذلك.. أكبر من تلك الصورة القاتلة.

ما السبب الكبير إذن؟

كان ليفكر في ذلك لوقت أطول لولا أن اندفع «شاهق» صوب المرأة يصفعها، ويصرخ «حصان طروادة» فيها مطالبًا إياها بمنحه المعلومات التي تخفيها.

اندفع «أسمر» صوب الرجلين يركل ويصفع.. يخدش ويكسر.. كان كالثور الهائج، بل ثلاثة ثيران هائجة تتصارع لدقيقتين ونصف. وكانت الغلبة لأقواهم جسدًا.. وقف «شاهق» مُهيمنًا بقوة قبضته، بينما يئن الرجلين أسفل قدميه في ألم. لكن ميزان القوة اختل فجأة عندما سحبتْ سرعة البديهة البساط من أسفل قدمي القوة.

نزع «أسمر» سلاح «شاهق» في غفلة منه، صوبه نحو رأسه؛ فاحتد «شاهق» منفعلًا:

- هل جننتَ؟.. دع هذا السلاح من يديك فهو ليس بلعبة.. أعرف أنك لا يمكنك أن تطلق النار عليّ يا «أسمر».. أعده إليّ الآن.

كان بإمكان «شاهق» أن يندفع صوب «أسمر» وينتزع السلاح من يده النجسة، لولا أن رأى في عينيه بريقًا غريبًا لم يره فيهما من قبل.. يشبه ذاك الذي رآه في عيني حارس الفيلا قبل أن يتحول إلى كلب حراسة.

يعرف جيدًا هذا الوهج.. يحرص كل صاحب سلطة على أن يطفئه في أتباعه.. الوهج يعني التفكير.. التحليل.. التمرد.. كسر أصنام التفكير.

ويعرف خطره حينما يكون صاحبه في موضع قوة.. الحارس لم يكن في موضع قوة، لم يستطع أن يحتفظ ببريق عينيه طويلًا، أما «أسمر» يمسك بسلاح في يده.. سلاحه الشخصي، يا للسخرية.

لذلك آثر التحدث معه بهدوء:

- «أسمر» ماذا تفعل.. دعه من يديك ولنتحدث رجلٌ لرجل وسنصل معًا إلى حل، هذه المرأة خطر على ثلاثتنا، كل منا يحتاج إليها كي ينجو من ورطته.. أرجوك فكر بعقلك قليلًا وستعرف أنني مُصيب.

سئم «أسمر» الحديث.. لا الكلمات حقيقية ولا الصور. أحلَّ وثاق «خيال» المأخوذة بما يحدث. دفع بها صوب الباب، وعندما حاول «شاهق» اللحاق بهما، أطلق «أسمر» طلقة ثقبت السقف، وكادت أن تثقب آذانهم جميعًا.

صرخ «شاهق» يهذي بجنون:

- «أسمر» أعدها إلى هنا.. إذا لم تفعل فأنت هالِك.. ستُعاقب بتهمة قتل «الكاتب الكبير».. لن يمكنك النجاة أبدًا.

حاكتْ عينا «أسمر» المتوهجتان من المعاني ما تفشل فيه أجمع الكلمات وأبلغها.

وبحركة خاطفة انتزع «خيال» من ذهولها صافعًا الباب خلفهما بقوة. أحكم إغلاقه بالمفتاح، تاركًا الرجلين حبيسين في الداخل، تحرقهما جمرات الغضب.

***

- هل تظن أنهما لن يتمكنان من الخروج؟ باتصال هاتفي صغير يستطيعان الحصول على المساعدة.

- أعرف.

تلك الكلمات القليلة هي الشيء الوحيد الذي تبادلاه أثناء رحلتهما داخل سيارة «أسمر»، أما أفكارهما ومشاعرهما فقد حبسها كل منهما بداخله. التزم كلاهما الصمت لمسافة تستطيع سيارته العتيقة أن تقطعها في خمس عشرة دقيقة. وعندئذ قالت باضطراب، وإن حافظ صوتها على حدته:

- يستطيعان الوصول إلى بيتي ومكان عملي، وكذلك بيتك ومكان عملك.

- أعرف.

سبَّته في رأسها.. ثم احتدتْ قائلة:

- حسنًا أيها السيد العارف بكل شيء، هلا أخبرتني إلى أين نذهب الآن؟

التفتَ صوبها للمرة الأولى منذ أن انطلق بالسيارة، ولم يزد عن كلمتين:

- لا أعرف.

وكان هذا في رأيها أسوأ كثيرًا من«أعرف».

توقف عند أحد الباعة الجائلين، وابتاع بعض المعجنات، ثم عاد ينطلق بالسيارة إلى اللامكان.

***

جرى الاتفاق على أن يقضيا الليلة في السيارة، إذ أن لجوءهما إلى فندق من شأنه أن يُسهل مهمة العثور عليهما في لمح البصر عن طريق هويتهما الشخصية. ترك لها «أسمر» السيارة وتولى طيلة الليل مهمة الحراسة. مما أو ممن؟ لا يعرف.. لكنه فكَّر أنه في موقف كهذا يجب أن يقوم شخص ما بمهمة الحارس.

لكن البرد والتعب تكالبا عليه فلجأ إلى أنفاس سيارته الدافئة، وإن كان على ثقة من أن هذا سيزعج رفيقته.

رأسه تضج بالأفكار ورغم ذلك كان منتبهًا لاضطراب المرأة الجالسة بجواره. سألها:

- ألا تشعرين بالجوع؟.. لم تأكلي شيئًا.

لم تجب، وكأنه لا شيء.. كما يعامله الناس جميعًا.

- لا تقلقي، ستعودين إلى بيتك سالمة.. ربما ينتهي كل ذلك في الصباح.

كان يعرف أنه يكذب كذبة مفضوحة جدًا، فما أقدم عليه فعل خطير وحتمًا ستكون له عواقب غير محمودة.

تأكد من سخافة ما قاله عندما رمقته بنظرات ساخرة. أزعجه ذلك، ثم عاد ليلوم نفسه.. لماذا يهتم برأيها فيه من الأساس؟

لعل هذا هو الفارق الجوهري بين الإنسان والحيوان.. فالأول يرسم صورته الذهنية عن نفسه من خلال رأي الآخرين به، أما الأخير فلا يعبأ كيف تتطلع العيون إليه.

كانت ليلة مُظلمة حالكة السواد، قضاها ما بين النظر إلى النافذة، ومُراقبة المرأة التي لم تنَم، أتُراها تحمل ذنبًا تنوء بحمله يحرمها من النوم...مثله؟

سألته:

- لماذا توقفنا هنا؟.. لماذا لا نأخذ أبي من النادي ثم نخرج من العاصمة؟

أجابها بصدق:

- لا أعرف، لكني.. وكأنني...

- وكأنك ماذا؟

- وكأنني يجب أن أفعل شيئًا ما.. هناك أمر خطير يجب أن أفعله.. هل تعرفين شعور ماريو في اللعبة الشهيرة التي اعتاد الناس اللعب بها في الماضي.. كان يجب عليه أن يقفز فوق العملات المعدنية ويتجنب الموت بالسقوط من ارتفاع شاهق.. كي يُقابل الوحش في نهاية الرحلة.. وينتصر عليه.. أشعر الآن وكأنني تجاوزتُ كل المراحل ولم يبق لي سوى مواجهة الوحش.

قالت محتدة:

- هل تمزح معي؟.. نحن في وضع بائس كهذا وأنت تحكي لي عن لعبة أطفال سخيفة!

انقطع عن استكمال حديثه، إذ أنه لن يتمكن من أن يشرح لها ما يعجز هو نفسه عن تفسيره.. كيف له أن يشرح لها أن المشاعر التي تلبسته حين كان طفلاً يتمنى أن يؤدي دورًا مزدوجًا مثل «سوبر مان»، عادت لتعصف بوجدانه مرة أخرى؟.. شعر فجأة وكأنه كان يمتلك بداخله طيلة الوقت هذه الحياة المزدوجة التي لا يعرف أحد بشأنها، وأنه يجب أن يقوم بالمهمة الرئيسية فوق المسرح.. لكن متى وأين.. لا يعرف.

سألها ليشتت أفكاره:

- لماذا لا تنامين؟

كيف تخبره أن الأصوات في الليل لا تهدأ، رأسها غربال تنفذ إليه الموجات الصوتية من حدب وصوب.. أوراق شجر تصفعها الرياح.. ضفدعة تنوح.. نجمة تحترق في السماء.. حجر يسقط من فوق الرصيف.. قطرة تسقط من معطف مُبلل.. عطسة.. وضحكة.. وسعال.. وزمجرة.

ظنَّ أنها لن تُجيب، لكنها أجابتْ سؤاله بسؤال:

- ولماذا لا تنام أنت؟

- ولماذا لا تنام أنت؟.. أنا لا أنام.

ولمَّا ارتفع حاجباها الدقيقان دهشة أكمل مخافة أن ينقطع خيط الحديث الذي امتد بينهما للمرة الأولى:

- منذ تلك الحادثة.. أي موت «الكاتب الكبير».. وأنا لا أنام.

- لماذا؟

- لماذا؟.. لأنني.. لأنني أخشى أن أكون قاتله.

التقط إشاراته دهشتها، فأخبرها عن تلك الليلة.. الإيجار المتأخر.. «شلبي سليم الفخراني».. رغبته في الحصول على صورة «للكاتب الكبير».. ذهابه إلى بيته.. تسلقه للشجرة.. مراقبته لها.. تصويره.. سقوطه عن الشجرة.. رجوعه إلى السيارة.. التقاط الصورة الأخيرة.. فقدانه للوعي.. وأخيرًا استيقاظه بجوار الجثة.

حتى أنه أخبرها بما لم يبح به لـ «شاهق» قط، الصورة التي التقطتْ من داخل الفيلا.. الساعة.. وجود شاهد مثل «شلبي سليم الفخراني».. وصراعه مع ضميره الذي انتهي بحرمانه من النوم.. حتى يعثر على القاتل الحقيقي.

باح لها بكل شيء، ليس لأنه يلتمس عندها دواءً لحالته.. بل لأن الذنب حمل يخنق صاحبه.. فأراد أن يتحرر منه ولو بضعة دقائق فحسب.

لكنه تجاوز عن إخبارها عن جريمة القتل التي أمره بها «شلبي سليم الفخراني»، وعن نبوءة مولانا «الشيخ جو» أنه سيقتل ثانية.

ظنَّ أنها ستشفق على حاله؛ فتعترف بجريمتها إن كانت بالفعل هي قاتلة «الكاتب الكبير».. لكنها بدلًا من ذلك ثارتْ بوجهه كإعصار:

- ولماذا لا تكون أنت هو القاتل الحقيقي؟.. لماذا تبحث عن شخص غيرك يتبنى جريمتك.

قابل إعصارها بانكسار، كما تحني الأشجار هاماتها في مواجهة الرياح العاصفة:

- صدقيني لو تأكدتُ من أنني القاتل سأسعى كي أنال العقاب الذي أستحقه.. لكنني غير متأكد.. كيف أنال عقابًا على جريمة لا أتذكر أنني مرتكبها.

لكن الإعصار يفوق العواصف قوة، إنه يقتلع الأشجار من جذروها:

- يكفي أن هناك دلائل ضدك لإثبات أنك القاتل.

سكت سكتة طويلة، كورقة شجر تبحث عن غصن تلجأ إليه فيمنحها رحيق الحياة قال:

- وذكرياتي؟.. أليس لها أهمية؟.. أخبريني لماذا نعاقب المجرم؟.. كي يشعر بمدى بشاعة جريمته، ولكي يدرك أن لكل خطأ ثمن، أليس كذلك؟.. كيف إذن أشعر ببشاعة جريمة لا أذكر أنني ارتكبتها.

هي لم تجرب كيف يحرق الشك الروح؛ فتنسلخ، فتُدمى، فتتشقق، فتنتفض باحثة عن دواء.. حتى وإن كان لهذا الدواء آثار جانبية.

عندما يتألم المريض ويشق عليه العذاب لا يفكر سوى في سبيل لتخفيف الألم.. تتعطل كل مُستقبِلات التفكير الأخرى.

ولأن خير وسلة للدفاع هي الهجوم، صاح بها:

- ولماذا لا تكونين أنت هي القاتلة.. كنتِ بجواره ليلة مقتله.. في بيت واحد وغرفة واحدةَ.

- ولماذا أقتله؟

- لأنه رفض الإنفاق على رحلة علاج والدك.

- هذا ما تتمناه، لكنه أبعد ما يكون عن الحقيقة.

- هذا ما تتمناه، لكنه أبعد ما يكون عن الحقيقة.
- لماذا تُكرر كلماتي؟
- لا أعرف.. عادة تلازمني.

- عادة غبية، لك عقل ولسان.. لماذا لا تنتقي كلماتك الخاصة؟!

- قلت لكِ لا أعرف.

تساءلتْ ساخرة:

- وهل تعرف شيئًا؟

- أعرف أنكِ قاتلة ترفض الاعتراف بجرمها.

- هذا ما يُصوره لك خيالك المريض.

- أنتِ قديسة إذن.. لم تُخطئي، لم تَخدعي.. أنتِ صاحبة ضمير حي!

كلماته لم تُشعرها بالخجل، لأنها لم ترَ في فعلتها جُرمًا من الأساس.. كان والدها سيُحاكم على ذنب لم يرتكبه، ما فعلته هو أنها أقامت محاكمة داخلية، وأصدرتْ الحكم ببراءة والدها، ثم سعتْ لتحقيق هذا الحُكم، حتى وإن استخدمتْ في ذلك الكذب والخديعة.

لا نفهم سوى الأحكام التي تصدرها محكمتنا الخاصة.. ولذلك يتوه مفهوم العدل بين ملايين المحاكم الخاصة.. والرسمية!

صوت رفرفة جناح بعوضة يقتحم عليها أفكارها.. يزعجها.. يغضبها.. فتقول:

- على الأقل ضميري يقظ بما يكفي كي لا أسرق من شخص ما صورًا بغير علمه.

- لكن لا بأس من تسللكِ إلى بيته بالكذب والاحتيال.. هذا منطقي!

عادتْ نظراتها حريقًا مُستعرًا، ولَّتْ وجهها شطر النافذة تُنهي حديثًا لم يكتمل.. لعله إنسانٌ يحمل بعض المساوئ مثلها، لكنه ليس قاتلًا.. الرجل الذي يشعر بهذا الذنب الكبيرِ لمجرد اشتباهه في قتل بالخطأ؛ لا يُمكنه أن يُقدم على قتل أبيها مُتعمدًا.

فلتتوقف إذن عن التفكير في كلمات عامل المشرحة المختل.

ضوء المصباح المتدلي من عمود الإنارة كان قويًا.. دفع «أسمر» لأن يعطس كلما رفع عينيه لينظر إليه.. خمس مرات.. عشر مرات.. وفي الحادية عشر قالتْ «خيال» بنفاد صبر:

- ما دمتَ تُعاني من حساسية الضوء فلا تنظر إلى المصباح.

لم يستجب لها، فقالتْ بشدة وكأنها توبخ طفلًا:

- هل فكرتَ في أن الضوء هو سبب حرمانك من النوم؟

استرعتْ بكلماتها انتباهه، تساءل:

- كيف؟

- هذا يحدث.. تردنا حالات كثيرًا في «النادي» يُعاني فيها المريض من الأرق المزمن بسبب التعرض المستمر للضوء.

- كيف ذلك؟

- أووف.. أليس واضحًا ما أعني؟.. هرمون «الميلاتونين» الذي تفرزه الغدة «الصنوبرية» يفتح بوابة النوم، والضوء يقلل جدًا من إفراز هذا الهرمون.. يبدو أنك لا تتعرض لدورة الضوء والظلام المعتادة، تمضي نهارك في ضوء الشمس، وليلك في أضواء المصابيح.. مثلما يحدث لعُمال الدوريات الليلية فتختل ساعاتهم البيولوجية.

كانت الرؤية المهزوزة قد باتتْ أكثر حدة، سألها بصوت يتمنى أن يغلبه النعاس:

- والحل؟

- «هرمون دراكيولا».

رفع حاجبيه في دهشة، فأردفتْ شارحة:

- هرمون «الميلاتونين» أعني.. عليك أن تمد جسدك به.. بالإضافة إلى البُعد عن الضوء ليلًا.

لكان شكرها بكل السبل الممكنة لولا أنه لم يولِّ كلماتها الانتباه الذي تستحقه، فقد حازت السماء على جل انتباهه؛ أنزل زجاج النافذة وأخرج رأسه منها، ثم أخرج من جيبه الساعة الوحيدة التي يحتفظ بها، ساعة «الكاتب الكبير».. أثارتْ حركاته فضولها فسألته:

- لماذا تنظر إلى السماء بهذا الشكل؟

بدا وكأنه لا يجد من الكلمات ما تسعفه لوصف حالته، ثم أخيرًا عثر على بضع كلمات شكَّل منها جملة مُربكة:

- ألم تلاحظي كيف انتهى الليل سريعًا وحَلَّ النهار؟.. ثم الساعة تشير إلى أننا تجاوزنا منتصف الظهيرة.. لكن الشمس.. الشمس صغيرة جدًا.. صغيرة إلى الحد الذي لا يُمكن معه أن ندعوها شمسًا.

- ماذا الذي تهذي به؟!

خرج من السيارة وأشار لها كي تتبعه. ظنتْ أنه يخدعها بحديثة عن الشمس الصغيرة.. لكن ما إن تطلعتْ صوب السماء حتى باغتها شكلها.. الشمس في حجم قرص أسبرين.. مضيئة.. متوهجة.. لكن ضوءها لم يكفِ ليغمر الأرض بالضياء!

الأجواء شديدة الغرابة، كما لو أن الليل والنهار اتحدا معًا.. لم يشبه الأمر كسوف الشمس.. كانت الدنيا أشد ظلامًا، وسلوك الشمس أكثر غرابة.. إذ فقدتْ قدرتها على الثبات في مكان واحد، وأخذت تتنقل من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق كطفلة تلهو في حديقة منزلها.

- هل هذه نهاية العالم كما يقول أبي؟

لم تلقِ السؤال على أحد، صوتها كان عاليًا بما يكفي لتلتقطه آذان «أسمر»، عقله الذي تتداخل فيه الصور بالظلال، الأفكار والأحداث اللامنطقية ليست سوى ظل لأفكار وأحداث منطقية.

وبما أن من المنطلق وجود شيء من اللامنطق في المنطق، فكَّر في احتمالية صحة كلمات والدها، البوابة.. العالَم الذي سينهار.. دوره في إنقاذ الجميع.. ثم فكَّر في البراغيث.. اختفاء البحر.. الصور التي يعلو صوتها.. تلاشي «الكاتب الكبير» من رؤوس الجميع إلا أربعتهم.. الآثار الجانبية الغريبة لزراعة الضمير.. «الصحفي» وحديثه اللامنطقي عن آلة الزمن.. والآن هذيان الشمس!

وسط كل هذا اللامنطق طرق عقله تساؤل آخر، فعبَّر عنه بصوت مرتفع:

- لماذا لا أستطيع أن أحلم؟

حادثت «خيال» بأنظارها عن الشمس المُتقلصة:

- ماذا تقصد؟

- أنا لا أحلم.. لم أحلم أبدًا.

- لا يمكنك ألا تحلم.. جميع البشر يحلمون.

- لكن أنا لا أحلم.

- بل تحلم.. لكنك تنسى أنك كنت ف حلم.

- أنا لا أنسى.. أنا بالفعل لا أحلم.. لم أحلم قط ولو لمرة واحدة.

وكأن عدوى اللامنطق أصابتها، وجدتْ نفسها مدفوعة لتقول:

- هل تعرف أن في الأحلام لا مذاق ولا رائحة؟

قالتها وهي تتذكر مئات النكهات والروائح المعدنية، مرَّتْ من عقلها لتستقر في عقله، دومًا كان يشعر أن للعالّم نكهة مُصنَّعة، نكهة المطاط المحترق!

واستكمالًا لحوار يحيد عن التعقُّل سألها:

- هل تقصدين أننا في حلم؟

من البديهي أن تُعنفه في الجواب، أو تسخر منه، أو تتعالى عليه.. لكنها وجدتْ نفسها مُساقة لتقول بحيرة بالغة:

- لا أعرف!

وبينما تتضرع نظراتهما إلى الشمس العابثة، سألها:

- لو كانت هذه هي النهاية حقًا.. ما هي أمنيتكِ الأخيرة؟.. في أي مكان تريدين أن تكوني؟

مرَّ بخاطرها خيار واحد لا ثاني له:

- أحضان أبي.

التغيرات المتدرجة لا تسرق الانتباه.. لا يسلب الناس اهتمامهم إلا الأحداث المُزلزلة، لم ينتبه إلى اختفاء «البحر الأبيض المتوسط» سوى كبار البحَّارة والصيادون والملاحة البحرية، تعطَّلت مصالح الكبار، وفسدتْ بضائع ذوي السلطة وأرباب التجارة.

لكن على جانب آخر لم يمثل اختفاء البحر للعامة أي معنى... حُرموا من التنعم بخيراته والتمتع بإطلالته الجميلة أعوامًا طويلة.. لا فارق بين اختفاء الممنوع أو بقائه.

لكن عندما انتشرتْ أخبار ذوبان القمر.. سقط الجميع في بئر الفزع.. لأن القمر لم يكن حكرًا على أحد.. كان للجميع.. لم يتمكنوا من حبسه خلف الأسوار.

ذوبان القمر يفتح الطريق أمام اختفاء شقيقته الشمس.

ولو اختفت الشمس من الوجود لأصبح ليل الأرض كنهارها.. لن ينبت زرع لاختلال عملية البناء الضوئي.. ستفنى الحيوانات آكلة العشب.. ثم آكلة اللحوم.. والأكثر سوءًا هو توقف عملية إنتاج الأكسجين، هذا إن لم تختفِ مصادر مياه الشرب قبلها.

يُمكن تخيل عالم بدون بشر.. لكن لا يُمكن تخيل عالم بدون أكسجين.. ستنهش الأرضَ مخالبُ الصقيع.. ستتجمَّد الكرة الأرضية.. وتعوم تائهة في الفضاء الكوني.

سيتحقق السيناريو الأسوأ لفناء البشرية.

(٢٤)

المنطق سُم الخيال

في بداية نوبات الصرع رسم «فان جوخ» لوحة «ليل النجوم» وقال: «أنا لا أعرف شيئًا على وجه اليقين، ولكن رؤية النجوم تجعلني أحلم».

لم تكن النجوم في لوحته كما أبدعتها يد الخالق في لوحة السماء، بل كانت شموسًا عديدة ملتهبة.

هذا ما تذكرته «خيال» وهي تنظر إلى السماء بعد أن قاد «أسمر» سيارته متوجهًا بها إلى النادي. السماء محمومة بالعديد من الشموس الصغيرة اللاهية هنا وهناك.. انقسمت الشمس على نفسها وتقطّع منها هؤلاء الصغار.. أليستِ الولادة شيء كهذا؟.. تقتَطع الأم جزءًا من ذاتها وجسدها وتمنحه لوليدها؟

لكن الأم الكبيرة هذه المرة تلاشتْ في سبيل حياة صغارها.

البحر الأبيض المتوسط.. البحر الأحمر.. البحر الميت.. نهر النيل.. المحيط الأطلنطي.. بحر العرب.. البحر الأسود.. خليج ألاسكا.. بحر الشمال.. البحر الأصفر.. بحر الصين.. المحيط الهادئ.. بحيرة طبرية.. بحر اليابان.. المحيط الهندي.. خليج المكسيك..

كان اختفاؤهم على التوالي، وما اختفى من بعدهم لم يعد أحد يهتم بمعرفة ترتيبه في قائمة المفقودين.

اختفى اللون الأزرق من الأرض!

خرج الناس ينظرون إلى السماء، فإذ هي تتشقق كقبة من زجاج تتدحرج خلالها شموس صغيرة.. تزداد الشروخ وتمتد من الشرق

إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.. يراها الناس وهي تنمو وتتسع كسرطان الزجاج، ولا يملكون حيلة لجبرها.

المكان: شوارع العاصمة المزدحمة بالسيارات والعابرين، يصدم كل منهم الآخر.

الزمان: لم يعد أحد يعرف الفارق بين النهار والليل، فأضواء المصابيح صارت بديلًا صناعيًا للشمس والقمر.

الوسيلة: سيارة «أسمر»، يقودها، بينما تجلس «خيال» بجواره.

الوِجهة: النادي الذي لم يعد حال المقيمين فيه أسوأ ممن هم خارجه.

أطلق العلماء النداء الثاني والأخير لـ«سفينة نوح».

طائراتهم تحوم فوق الرؤوس، غربان الجحيم كما يراها البعض، وملائكة رحمة تنقلهم إلى باب الجنة كما يراها آخرون.

تلتقط بخطاف كبير أصحاب «صمام الضمير»، بسهولة ويُسر، فأصحاب الصمام أخذوا يتوهَّجون بلون أخضر برَّاق، يُسهِّل على الطائرات مُهمة رصدهم، والتقاطهم، استعدادًا لتوصيلهم إلى «سفينة نوح».. سفينة النجاة، والسفينة بدورها ستنقلهم إلى الجنة الموعودة.. «الجنة الخضراء».

جدار فاصل نشأ فجأة بين الفريقين.. جدار لا يمكن رؤيته لكن يمكن بسهولة الشعور به.. تذوقه.. وشم رائحته.. جدار عزل كلا منهما في جهة مختلفة، لا تُمكن أحدهما من أن يسمع صوت الآخر.

وبين بهجات ذوي اللون الأخضر، وصرخات باقي البشر كانت الأجواء تنتفض، ذرات الهواء نفسها تتصادم في هلع. اندفع الناس يخترقون جدارًا غير مرئي ويتشبَّثون في ذوي اللون الأخضر، بينما الحبال تسحبهم إلى الأعلى، وما إن ترتفع أمتارًا كثيرة حتى يخل اتزانهم بفعل

الصراع الجسدي، فيخل توازنهم ويسقطون من ارتفاع شاهق، مُهشمين كالزجاج.

وبعضهم كان هدفهم الوحيد هو منع ذوي اللون الأخضر من النجاة، انقضوا عليهم يُمزقونهم، ينهشون بأظافرهم وأسنانهم القاطعة في أجسادهم.. تناثرت الدماء فوق الأرض وكأن العالم كله يخوض «حربًا عالمية ثالثة» أبشع من سابقتيها.

اخترقتْ سيارة «أسمر» الحشود بصعوبة، بينما «خيال» الجالسة بجواره توشك على أن تفقد وعيها لهول ما ترى.

استقر الهلع بقلب «أسمر» عندما لاحتْ منه نظرة صوب مرآة السيارة.. فرآها وقد أصابها الهذيان بدورها.. فوجهه في المرآة يكاد يكون بغير معالم.. كان ليظن أن المرآة أصابها عطب ما لولا أن التفتَ إلى رفيقته ليُصدمه معالم وجهها السائحة.

تضخمتْ أنفها بشدة.. كادتْ حدود عينها تسيح بين الوجنة والجبين..

التفتَ إلى الناس من حوله.. ليرى نفس المنظر.. وجوه الجميع تتلاشى حدود قسماتها.

وكأن الجميع في طريقهم إلى أن يحملوا نفس الوجه.. وجه خال من المعالم!

هل هذا الهذيان يحدث فعلًا أم أن عدم النوم قد أصاب عقله باللوثة؟!

بإمكان «خيال» أن تسمع صوت الدماء، وأن تشم رائحة الضوضاء، وعند حلمات التذوق في مقدمة لسانها اتضح مذاق الغيوم السوداء!

وفي الاقتتال بين ذوي اللون الأخضر وغيرهم رأت صراعًا أزليًا بين الموجب والسالب.. هكذا هو الحال في كل وقت وكل مكان.. لا يمكن فصل الناس إلى موجب وسالب إلا ويومًا ما ستلتقي الأقطاب المتضادة.. تقترب.. تتلامس.. فيحتدم الصراع.

هذا الصراع الشرس لا يعترف بالواقفين على الحياد بين الأقطاب المحتدمة.. بل يسحقهم في طريقه.

شيطان الدماء ينفر من الأشباه، وينجذب إلى الأقطاب المختلفة لأن كلًّا منهما يرى في الآخر خطرًا مُميتًا!

أوقف سيارته أمام النادي، قالت له بلهفة:

- ستنتظر هنا حتى أحضر أبي لنذهب إلى مكان آمن، أليس كذلك؟

أومأ برأسه إيجابًا، لعل تلك هي المهمة النبيلة التي تنتظره، أن ينقذ «خيال» وأباها فيكفر عن ذنبه في حقهما.. يعرف ملجأ تحت الأرض كان قد اعتاد التخييم فيه والخروج لالتقاط صور مميزة للمارة في أوضاع مختلفة، كما يفعل المصورون المحترفون مع الحيوانات في البرية!

في ملجئه طعام معلب وزجاجات مياه مع الاقتصاد ستكفي ثلاثتهم شهرًا. سيأخذهما إليه، حتى ينتهي هذيان السماء.

أسرعتْ «خيال» باقتحام البوابة التي تركها حراسها ولاذوا بالفرار.. لكن فرارٌ ممن وإلى أين؟

يمكن الفرار من كل شيء لكن من المستحيل الفرار من النهايات!

انتفض قلب «أسمر» فزعًا.. كلما مر به رجل أو امرأة أو طفل توقفوا عند نافذة السيارة لوهلة فقط ليقولوا:

اقتله.. اقتله.. اقتله.

ثم يسيرون في طريقهم وكأن شيئًا لم يكن.

زاد الجنون أكثر.. تصاعد النداء من كل مكان.. ظن أن المقعد أيضًا يتحدث.. مرآة السيارة.. النوافذ.. الإطارات.. الرمال.. أعمدة الإنارة.. الأبنية.. السحب السوداء.. كل ما في العالم يتحدث فقط ليهمس له:

اقتله.. اقتله.. اقتله.

كاد أن يختنق.. خرج من السيارة يحاول تعبئه رئتيه بالهواء.. وجد نفسا وجهًا إلى وجه مع رجل نحيل ذابل. لو لم يكن واقفًا يتحرك لظن أنه جثة متعفنة.

أفزعه أمره فحاول العودة إلى داخل السيارة. لكن الرجل اعترض طريقه قائلًا بفم خال من الأسنان:

- ألا تذكرني؟

دقق «أسمر» بوجهه.. لم يتذكر أنه قد رأى هذه القسمات من قبل.

- لا أتذكرك.

- حاول أكثر.

طول قامة الرجل وصوته، مع بعض المخيلة، وذاكرة فوتوغرافية امتلكها «أسمر»، تمكن من إضفاء اللحم والشحم إلى وجهه، ثم صاح بدهشة:

- أنت الرجل الذي ركب سيارتي مع زوجته عندما عرفنا خبر اختفاء البحر، ماذا حدث لك؟.. كيف وصلت إلى هذا الحال؟

قبض الرجل على ذراعه متجاهلًا أسئلته، فاحت رائحته القذرة حتى كادت تصيب «أسمر» بإغماءة، خرجتْ كلماته وكأنها آتية من بُعد آخر:

- اقتله.. يجب أن تقتله.

- أقتل من؟

- الرجل الذي تنتظره هنا.. والد المرأة.

- لن أقتل أحدًا.

- ستقتله.. كما قتلت «الكاتب الكبير».. تلك هي مهمتك يا «أسمر».

القتل ليس مهمة الأبطال، الأبطال ينقذون العالم.. يحمون الضعفاء..

يصارعون الأشرار.. لا يُمكن أن تكون تلك هي مهمته.. لا يمكنه أن يكون الوحش في هذه الحكاية.

ثم كيف يُحدِّثه الرجل بما يجول بداخل نفسه.. «المهمة».. كيف له أن يستخدم المفردات نفسها التي دارت بخلده منذ لحظات؟

هذا ما فعله أيضًا «مولانا الشيخ جو» من قبل.

حرَّر ذراعه والتجأ إلى سيارته، أغلق نافذتها وبابها بإحكام، لكن صرخات الرجل اقتحمت الزجاج والمعدن وخلايا جسد «أسمر» ودمائه:

- أنت لا تفهم.. بإمكاني وحدي أن أفهم.. صمام الضمير جعلني أفهم.. وجعل هؤلاء الذين تحبسوهم في الداخل يفهمون.. نحن رأينا الحقيقة.. رأينا أيادينا التي من زجاج.. رأينا الموتى في القبور سرابًا.. رأينا أن أجسادنا خالية من لزوجة الدماء.

أراد «أسمر» الصراخ، أعلنتْ أحباله الصوتية العصيان عليه.. يُحاول أن ينفخ فيها الروح.. يفشل.. تبدو له مثل آلة «الكاليمبا» الموسيقية حين تصدأ أشواكها المعدنية.. أخذَ يتساءل في نفسه مندهشًا:

- ما هي «الكاليمبا»؟

فتجيب نفسه:

- آلة عزف أفريقية.

فيعود ليسأل نفسه:

- من أين أعرفها؟

فتجيبه:

- كان لأبيك واحدة قديمة يجيد العزف عليها، لا زلت تحتفظ بها في بيتك رغم كرهك للموسيقى، لكنها تُذكرك به.

فيندهش أكثر ويقول لها:

- أبي كان بوابًا لا يُجيد نطق كلمة «الكاليمبا» فضلًا عن العزف بها!.. وأنا لا أعرف شكلها فلم أرَ في حياتي واحدة!.. لا انتظري.. تحضرني صورته وهو يُمسكها بيده.. أعرفها وأعرفه.. أبي و«الكاليمبا» كانا رفيقي درب لا يفترقان.. هناك في شرفة بيتنا.. وأمي تمر علينا بأطباق الفاكهة والعصير الطازج، يطالبها أبي بأن تسمح له بتدخين سيجارة واحدة، ترفض.. يعترض.. يصر.. تتظاهر بالغضب.. يخرج واحدة من جيبه.. فتغضب حقًا وتلقيها من الشرفة ولا تسمح له.

يزداد تشوش عقله، تُهاجمه الأصوات والأضواء والصور.

أدار «أسمر» موتور السيارة.. عليه أن يبتعد عن هذيان رجل ليس أكثر من مشعوذ مجنون.. سلبه «العلماء» رشده. لكن قدمه كذلك أعلنت العصيان، ولم تدفع السيارة للحركة، أفسحتْ المجال للرجل ليصيح أكثر:

- لا شيء من هذا حقيقي.. عليك أن تقتله كي ينتهي كل ذلك.. أرجوك أعد لنا آدميتنا.. أعد لأجسادنا رائحة الدماء.

لماذا يقبض على ساعة «الكاتب الكبير» بيده، متى أخرجها من جيبه؟.. لماذا تتوهج الساعة.. لماذا يرى بداخلها انعكاسًا لوجهه؟

لا ليس وجهه.. إنه وجه «الكاتب الكبير».. داخل مكتبه.. يعرف تفاصيل مكتبه لأنه زاره مرة.. مرة واحدة.. ليلة مقتله.. يرى في زجاج الساعة انعكاس لنظرات الفزع المطلة من عين «الكاتب الكبير» بينما يدفعه «أسمر» صوب النافذة.. فيسقط منها ميتًا على الفور.. متى كان بإمكان الساعات أن تتحول إلى مشغل فيديو يعرض الذكريات؟

يرفع «أسمر» رأسه صوب مرآة السيارة.. أنفه افترشتْ وجهه بالكامل.. لم يعد لوجهه ملامح تفرق بينه وبين وجه ملايين البشر.. الجميع يحمل الوجه ذاته الخالي من القسمات.

لا يزال الرجل يصرخ بالخارج:

- ما هو العالم الوحيد الذي بإمكان الوجوه فيه أن تختفي؟.. وأن تتحول أيادينا إلى زجاج.. بإمكاننا أن نسمع ونشاهد أدق التفاصيل في حياة الآخرين.. يُسمح لنا أن نكون ثلاثة أو أربعة أشخاص في وقت واحد.. لا يمكن فيه دفن الموتى.. نرى البحر دون أن نشتَم رائحته.. عالم يخلو من الروائح والأحلام!

سكتَ برهة يتلقط أنفاسه ثم أردف:

- ما هو العالم الذي من الممكن أن يختفي فيه أشخاص بالكامل.. أو جزء من ذكرياتهم؟.. أنت تعرف الحقيقة، تعرفها لكنك تحاول إنكارها.. الحقائق لا تختفي بتجاهلها.

قالها الرجل وسقط أرضًا منهك القوى.

احتدم عقل وقلب «أسمر» بالأسئلة.. هل يمكن أن يكون ما فهمه حقيقيًا؟.. هل يقصد الرجل أن هذا العالم ما هو إلا....

قاطعة وجه «شلبي سليم الفخراني» يبرز له من الساعة.. متى كان بإمكان الساعات أن تتحول إلى هواتف نقالة؟

صاح به «شلبي سليم الفخراني» مُشجعًا:

- هيا يا «أسمر».. اقتله.. لقد قمتُ بتحميل الذكريات إلى عقلك.. أنت تعرف الحقيقة الآن.. هيا.. اقتل الفيروس اللعين.. واسمح للجميع بالخروج!

الهلع الذي أصاب كل شبر خارج النادي امتد إلى داخله، الناس يهرولون، يتسابقون، يتقافزون، يتصارعون.. بغير هدف واضح.

كادت «خيال» أن تنهار عندما لم تجد أباها في غرفته. يجب أن تنقذه، إنه الشخص الوحيد في هذه الحياة الذي يهمها أمره.. لا يمكنها أن تسمح للموت أن يختطفه منها.. أبوها لا يموت!

وجدته أخيرًا في أحد زوايا غرفة الطعام، وبجواره الصحفي البغيض يضغط عروق رقبته بسكين حاد.. عرفتهما من هيئتهما وملابسهما لا من ملامح وجهيهما.. إذ بدت لها قسمات وجهيهما مثل قطعة عجين عبث بها طفل مشاغب.. تساءلت في نفسها، ما خطب عينيها؟.. هل ضعف بصرها فجأة إلى هذا الحد!

كيف تنقذ أباها من بين يدي هذا المعتوه؟

لم تفعل تضرعاتها.. صرخاتها.. عبراتها في أن ترقق من قلب الصحفي، ولم يتغير مطلبه:

- أريد قطرة الماء.

فثارتْ بغضب:

- وهل تظن أنني أحتفظ بقطرة مياه في جيب معطفي؟.. حسنًا، مُدَّ يديك وخذها إن استطعتَ.

يا لسخرية الأحداث، حياة أبيها مرهونة بقطرة مياه!.. مجرد قطرة واحدة!

- ليست معكِ.. بل بحوزته هو.

قالها «حصان طروادة» بينما يشير برأسه إلى شخص ما يقف خلفها. التفتتْ «خيال» تتطلع إلى «أسمر» مستنجدة، عرفته ملابسه وهيئته.. لقد وصل في الوقت المناسب لإنقاذ أبيها.

بادرته بلهفة:

- «أسمر»، أنقذ أبي، أرجوك.

مرة أخرى أشار «حصان طروادة» صوب «أسمر» برأسه:

- أعطني القطرة.. وإلا قتلته أمام عينيك.

أردفَ «أسمر» بآلية وكأنه يستخدم صوت شخص آخر:

- أي قطرة؟

- لا تلعب معي.. أعرف أنها معك.. البراغيث أخبرتني.. القطرة داخل ساعة «الكاتب الكبير» في جيب بنطالك الأيمن.

ضغط الصحفي بالسكين أكثر فوق عنق «رامي قشوع»، أصابه بجرح أسال الدماء فوق قميصه الأبيض، قالت «خيال» في لوعة:

- أرجوك يا «أسمر» أعطه ما يريد.. أبي.. إنه يموت.

أخرج «أسمر» الساعة من جيب بنطاله الأيمن، أدارها في يده، بينما تدور الأحداث المتسارعة في رأسه.. والكلمات التي سمعها منذ قليل.

«ما هو العالم الوحيد الذي بإمكان الوجوه فيه أن تختفي؟

ألقى «أسمر» بالساعة أرضًا، قال وقد بهتَ إدراك حواسه لما يحدث حوله:

- إنها لك.

ما هو العالم الذي من الممكن أن يختفي فيه أشخاص بالكامل.. أو جزء من ذكرياتهم؟

تبادل «أسمر» مع أبيها نظرات طويلة.. طويلة جدًا.. وكأن كلّا منهما ينتظر من الآخر أن يقوم بدوره المُقدر لتكتمل المهمة. انقض «حصان طروادة» على الساعة، أخذها وانصرف مسرعًا مخافة أن يبدل «أسمر» رأيه.. اعترض «أسمر» طريق «خيال» التي تسوق أباها إلى الخارج قائلًا:

- أين يقع مخزن الأدوية من هذا المبنى؟

أجابتها وقد أدهشها سؤاله:

- في الطابق الثالث.

- أعطيني «هرمون دراكيولا».. جرعة كبيرة منه.

عنفته قائلة:

- الآن؟!

تجاهلتِ طلبه، هبَّت للخروج والبحث عن أبيها، أوقفها «أسمر»، اعترض طريقها، هزها، عنَّفها، هدَّدها، أمسك بتلابيبها مانعًا إياها من المرور.. مُجبرة توجَّهتِ به إلى قسم الأدوية، لتحضر له الهرمون.

لم تفهم رغبته في النوم في وقت كهذا.. وأخفى عنها أن هدفه ليس النوم.. بل إجبارها على الصعود إلى طابق مرتفع.

منحته «خيال» الهرمون وهي تقول:

- هذه الجرعة كافية لتُنيم فيلًا.. لا تأخذها إلا عندما نصل إلى الملجأ.

أخذ عقل «أسمر» ينضح بالأسئلة.

كيف يعيش «شلبي سليم الفخراني» بعدة شخصيات متفرقة دون أن يخالف ذلك قوانين العالم؟

كيف تُمحى من عقله بعض الذكريات.. ثم تعود مرة أخرى؟

كيف يعرف «مولانا الشيخ جو» كل شيء عن أي شيء؟

كيف لنوادي البوكر أن تلعب على الكلمات؟

كيف تختفي الوجوه؟

كيف ترى البراغيث الماضي؟

كيف ترتدي «خيال» دائمًا معطفًا أصفر؟

كيف تسمع صوت النجوم؟

كيف يعرف أن «خيال» تسمع صوت النجوم دون أن تخبره هي بذلك؟!

لا يوجد لكل تلك الأسئلة سوى إجابة واحدة منطقية.

هيا.. اقتل الفيروس اللعين.. واسمح للجميع بالخروج!

قدماه تقودانه إلى «رامي قشوع» الذي ينظر إليه في استسلام.. وفي غفلة من «خيال» دفعه صوب النافذة.. فتحها.. وساعده على تسلقها.

انتبهتْ «خيال».. نظرتْ إليهما في لوعة.. سقطَ العقار من يديها.. اندفعتْ صوب النافذة في لوعة.

«خيال» تنازع والدها.. تحول بينه والنافذة.. تلفظ السماء الكثير من البرق والرعد.. وتتقيأ الأرض الزلزال!

يختل توازن «خيال»؛ فتحيد عن النافذة.. وتترك الطريق مفتوحًا أمام قفزة والدها.

لا يحب «شاهق» أن يخرج من معاركه خاسرًا، لكن بدا وكأن الخسارة تُلازمه في الفترة الأخيرة، إلا صراع أخير لابد أن يكون فيه المنتصر الوحيد، ولا سبيل له للانتصار بغير مساعدة «الصحفي».

بعد نجاحهما في الخروج من الغرفة التي حبسهما فيها «أسمر» بكسر بابها، أخرج من جيبه صورة مطوية يحتفظ بها في محفظته دومًا، وضعها أمام وجه «الصحفي» قائلًا:

- أريد أن أعرف أين يقطن هذا الرجل.. اسمه «الفنان».

النهاية تدفعنا لنخوض صراعاتنا الأخيرة، صراعاتنا الأهم، وكان القبض على «الفنان» هو صراعه الأخير، الذي يجب أن يخرج منه ظافرًا.

استدعى «الصحفي» براغيثه التي اختلت ساعاتها البيولوجية بغياب القمر وانقسام الشمس، كانت أسرع في وتيرة حركتها أثناء تجمعها فوق جسده، وكأنها تُدرك أن هذه الساعة ليست كأي ساعة تسبقها، إنها الساعة التي لن تليها ساعة أخرى.

كان للصحفي أيضًا شهوة أخيرة، وجب عليه إشباعها، ولأن الوقت صار جنونيًا شعر أنه وصل إلى النادي يبحث عن العنصر الأخير في الوصفة.. أخذ الساعة من «أسمر».. عاد إلى بيته.. دون أن يستغرق كل ذلك سوى دقيقتين فحسب.

أخرج من خزانته السرية علبة معدنية بها باقي مكونات الوصفة، وعلبة أخرى تسكن بها براغيثه الزرقاء، مزج قطرة الماء بالوصفة، وقدَّمها إليهم فوق الطاولة الخشبية الكبيرة، يدعوهم إلى وليمتهم الأخيرة.

أسقط جسده فوق المقعد، وكلما انتهى برغوث من طعامه فارق الطاولة إلى جسد «حصان طروادة».. يتسلقه بسرعة كبيرة، برغوث وراء برغوث، حتى تغطى بهم كالرداء. أخذ الرداء البرغوثي يهتز، وينتفض.. وكأنهم سيحملون الرجل ويطيرون به، وهم الذين لا يملكون أجنحة ولا يعرفون الطيران.

هذا هو البيت.. الطابق.. الممر المؤدي للشقة.. أخيرًا سيلتقي وجهًا بوجه مع «الفنان» خارج أسوار «صالة البوكر».. أخيرًا سيربح الرهان، رهان الحياة.

كم سيندهش الرجل لمرآه، سيفزع، ستقهره الهزيمة.. كان الناس يحتمون في بيوتهم من هذيان السماء، ولا بد أن «الفنان» في بيته في هذه اللحظة.

لكن ويا لبشاعة ما رأى.. على الممر علامات مُعلقة فوق الجدار تشير إلى شقة «الفنان».. ثلاث. سبع.. تسع.. اثنتا عشرة علامة ثم باب شقته.

لم تكن العلامات تقليدية كتلك التي يُقابلها في الطرقات.. بل جثث لأطفال ضاحكة، ونائمة في وضعيات مختلفة.. مُعلقة فوق الجدران!

كيف احتفظتْ بسِماتها دون أن يُغيرها الزمن أو يأكلها الدود؟!

هذا المجنون اتخذ من الأطفال علامات للطريق كما فعل الألمان مع الأسرى الروس!

دنا من الباب.. رأى الضوء من أسفل الباب.. اتسعتْ ابتسامته.. وقبض بيديه على سلاحه.

طلب من براغيثه أن تأخذه إلى اللحظة الأولى التي ابتدأت فيها الحياة..

لكنه صُدم.

لا يمكن أن تكون هذه هي بداية نشأة الكون!

هذا مُحال!

ظن أنه سيعود إلى ملايين السنوات إلى الماضي، إلى اللحظة التي تفجر عندها كل شيء.. لكن ما يراه أمام عينيه عبث، لا بد أن براغيثه مخطئة، لا بد أنها أصيبتْ بعضًا من هذيان السماء.

أحكم «رامي قشوع» قبضته على هاتف «أسمر».. لابد من هاتف.. لابد من وسيط بين هذا العالم وما فوقه!

التفتَ يمنح ابنته نظرة أخيرة، يطمئنها كما يفعل الآباء دومًا:

- لا تخافي.

تصيح به ألا يفعل.. تنهض عن الأرض.. تهرول.. يعيقها «أسمر».. تدفعه.. تضربه.. تلطم وجهه، لكنه لا يتزحزح.

- أرجوك لا تفعل بأبي ذلك.. أرجوك لا تجعله يموت.

الحقيقة التي أضاءت كل خليه من عقله فاض وهجها على الجميع.. الكل بات يعرفها الآن.. فلماذا تصر «خيال» على إنكارها؟

تُفلت نفسها من بين يديه.. تندفع صوب أبيها.. تمد يديها.. لكن الرياح كانت أسرع من لهفتها، والجاذبية أقوى من لوعتها.

کل شيء من حوله يتلاشي، لكنه حطَّم الباب قبل أن يختفي، خط للداخل، الجدران تتآكل، وكأن وحشًا عملاقًا يقف خارج الكون ويقضمه، قضمة بقضمة، يبتلعها دون أن يمضغها.

رأى «الفنان» يجلس أمام الجدار، وكأنه يرى فيه أبعادًا أخرى غير الطول والعرض والارتفاع والزمان.. بُعدًا جديدًا لم يكتشفه أحد:

- انتهت اللعبة.

قالها «شاهق» بتلذذ كبير ملوحًا بسلاحه.. نطق بها أخيرًا وهو ينظر إلى داخل عيني «الفنان».

ما تُريه إياه آلة الزمن مستحيل، وينافي كل قوانين المنطق!

لا يمكن أن يكون الكون كله قد نشأ قبل.. خمسة أعوام!

اقتربتْ من النافذة تُلقي نحو الأسفل نظرة أخيرة.. ظنتْ أنها سترى كومة من الملابس المختلطة بلحم وعظام ودماء أبيها.

لكنها لم ترَ سوى هوة عميقة.. عميقة جدًا، وكأن الأرض فتحت فمها على اتساعه.

صَدَق أبوها.. سقوطه فتحَ البوابة!

* * *

كل شيء من حوله يتآكل.. حتى مسدسه الذي يصوبه إلى «الفنان».. اختفى فجأة من يده. يده نفسها بدأ الفراغ في التهامها.. إصبعًا فإصبعًا.. حتى أكل الفراغ رسغه.. ثم ذراعه.. قدميه.. بطنه.. صدره.

التفت حوله فرأى الفراغ يأكل الجدران.. المقاعد.. السقف.. الزوايا والأركان.. حتى «الفنان» لم يبقَ منه سوى عينيه .. ويا للغرابة، كان بها نظرات ظفر.

الفنان لا يلعب أبدًا بقوانين المنطق، لذلك فهو دومًا الفائز الوحيد!

* * *

في أرجاء العالم كله تلاشتْ القسمات التي تميز وجهًا عن آخر.. الأنوف.. العيون.. الأفواه.

بات الجميع يحمل الوجه نفسه.. وجهًا كرتونيًا خاليًا من القسمات!

بدون خصوصية.. بدون هوية.. بدون أسماء.. بدون ذكريات!

* * *

استلقى «اسمر» فوق الفراش الوحيد في الغرفة، يمد أطرافه في وضع المصلوب، يلقي على السماء الكالحة المُتبدية من النافذة نظرة أخيرة، ثم ينظر إلى السقف، ويغمض عينيه.. ويُقدم نفسه عبدًا تحت أقدام سُلطان النوم.

انتابته عاصفة من الشعور بالنعاس.. أخيرًا سينام نومًا عميقًا.

وكان السؤال الأخير الذي تردد في عقله قبل أن يستسلم تمامًا لسلطان النوم،

أي الملائكة سيُلاقي عند استيقاظه،

ملائكة الرحمة.. أم ملائكة العذاب؟!



تسجيل خروج

المستوى الأول

(٢٥)

بيت الدود

لا فارق بين النوم والموت، كلاهما تأشيرة لمغادرة العالَم الواقعي، والترحُّل عبر بُعد آخر، له قوانين خاصة تُسيِّره. يجد «أسمر» نفسه في كون فسيح من النور المتوهج؛ فلا يعرف إن كان نائمًا أم ميتًا!

يغلب على ظنه في البداية أنه نائم، ثم يتذكَّر أن النائم لا يعرف أنه نائم، بل يتعامل مع عالم الأحلام وكأنه حياة حقيقية، لذلك يغضب الحالم، ويخاف، ويضحك، ويهرب من الخطر.. ولو عرف أنه في حلم لجلسَ في أحد زواياه لا يلوي على شيء، حتى وإن هاجمته وحوش العالم.

يُقيِّم «أسمر» أوضاعه بناء على إدراكه ووعيه؛ فيغلب على ظنه أنه ميت.

لم يسمع من قبل أن الميت يرى ضوءً باهرًا يكسو العين، لكنه سمع عن ضمة القبر، ففيها حنان وشفقة الأم على وليدها إن كان المرء من أهل اليمين، وفيها غلظة وقسوة، حتى تسحق عظامه وتتداخل أضلاعه إن كان من أهل الشمال.

وضمة القبر التي يشعر بها الآن قاسية بغير ألم، صلبة، باردة، وكأن القبر نفسه ثلاجة تُبرِّد ما فيها.

ثم يخطر بباله أمر آخر، لعله مات ولا يزال داخل ثلاجة حفظ الموتى في المشرحة، ولم يُدفن في قبره بعد.

ذاكرته تضطرب بشدة. يسأل نفسه: أي مشرحة؟!.. كان العالم ينهار عندما حقن نفسه بـ«هرمون دراكيولا».. بينما القيامة الكُبرى تقوم من الذي سيهتم بدفن الموتى في قبر يُقال له «بيت الدود» في الوقت الذي أصبحت الأرض كلها مرتعًا للدود؟

إكرام الميت دفنه، لكن لا كرامة في عالم ينهار.

تصل إلى أذنيه أصوات متضاربة، لا يعرف وسط الضباب الضوئي مصدرها، ولا طبيعتها، إن كانت بشرية أم طبيعية أم مصطنعة..كطفل يسمع للمرة الأولى، فلا يكاد يميز بين ترددات الأصوات.

تتضح الرؤية شيئًا فشيئًا، يختفي الضباب الضوئي من الوسط، بينما لا يزال قويًا في الأطراف.. وفي البقعة التي انحسر عنها الضوء يرى شيئين مستديرين ينحنيان نحوه، أحدهما ذات اليمين والآخر ذات الشمال.. مصباحين.. كرتي بولينج.. ثمرتي بطيخ.. أو رأسين ربما!

يتذكر ما يعرفه عن القبر غير ضمته، يسأل نفسه: هل هذان «مُنكَر» و«نَكير»؟!

ملكان أسودان أزرقان يظهران للميت في قبره ويسألانه ليميز المؤمن من الفاجر، فيجعلان «بيت الدود» للصالح روضة من رياض الجنة، وللطالح حفرة من حفر النار.

يرى تشاور الملكين، تباحثهما في أمره، اقتراب رأسيهما من رأسه.. يُحركانه، يهُزَّانه، يقلبانه، يعدلانه، يُدخلان أشياء مؤلمة في جسده، في عنقه وذراعه وصدره.. يزداد الألم.. ينتفض جسده.. ينتفض أكثر.. يرتعد الضباب الضوئي، ينقشع.. ينقشع أكثر.. تتجلى الرؤية.. الملكان لا أسودان ولا أزرقان.. أشبه به، أشبه بالبشر.. بل هما بشريان.. ملكان بشريان فوق جسديهما ينسدل معطف أبيض.

ينفك عقد الأصوات.. يميز ترداداتها.. وكان أوضحهما يقول:

- حمدا للّه على سلامتك يا دكتور «أسمر»!

ﻌﻌﻌ

هذه المرة يستغرق وقتًا طويلًا كي يفتح عينيه، هذه المرة يعلم أنه كان نائمًا، ولربما كان يحلم.. لكنه يفشل في تذكر الحلم.

عقله في تشوش رهيب، مثل جهاز تلفاز في غير مواعيد البث، ضوء، وضوضاء، وصور متلاحقة لا يكاد يميز معناها بها من فرط سرعتها.

الغرفة يبتلعها الظلام، لكن ليس لوقت طويل، إذ تتوهَّج المصابيح فجأة، فيحمي عينيه من الألم بذراعه.. يسمع القادم يقول:

- أعتذر، نسيتُ أنك غير معتاد بعدُ على الضوء الحقيقي.

على ذكر الضوء الحقيقي عادت ذاكرته إلى العمل مرة أخرى.. ببطء.. لكن بثبات.. وما إن وقعت أنظاره على وجه القادم حتى اختفى التشوش من عقله.. عاد البث إلى عمله.. الآن يتذكر كل شيء!

ﻌﻌﻌ

يردف الرجل الذي كشفت أيادي القمر أنه يربو من الخمسين، خمري البشرة، سمِح الوجه:

- لا تقلق، ستتحسن خلال الساعات المقبلة.. طبيعي ما تشعر به من اضطراب بعد تجربتكَ الرهيبة يا دكتور «أسمر».. لكنكَ نجحتَ.. وأنهيتَ المهمة على أكمل وجه.

يرجف قلب «أسمر».. تأثرًا لا زهوًا.. يتساءل في لهفة:

- هل أنقذنا الجميع؟

يربتّ الخمسيني بود أبوي على رأسه، تلمع فوق معطفه الأبيض شارة مدون بها اسمه «البروفيسور شلبي سليم الفخراني».. ثم يجيبه باسمًا:

- لقد أنقذنا الكثير.

***

يتأنق «أسمر» في بدلة سوداء فخمة.. ويتعطَّر بعطر نفاذ.. وعبر رواق طويل لمبنى ضخم يسير مُنتفش الصدر.. تستقبله العيون ببشاشة، يُمهدون أمامه الطريق كفاتح مغوار.

يستقبله على باب القاعة البروفيسور «شلبي سليم الفخراني». يا له من رجل، تمكن من عيش حيوات كثيرة، فقط لأنه يمتلك عدة حسابات بهويات مختلفة!.. يقول باعتزاز:

- أهلًا بدكتور «أسمر».. بطلنا العظيم.

يعبران معًا إلى قاعة فسيحة تضم مئات المقاعد.. تلتفت الرؤوس كلها نحوهما.. ينهض الجميع فجأة.. يصفقون.. يستمر التصفيق إلى الحد الذي يظن معه «أسمر» أنهم لن يتوقفوا أبدًا.

يتقدم «أسمر».. يجلس في مقعد بالصف الأمامي.. الناس من حوله يتخلل حديثهم الهامس كلمات مثل: «الرحلة الرهيبة».. «النجاح العظيم».. «إنقاذ البشرية».. «الحياة الثانية».. وأشياء أخرى عن مدى عظمة وروعة بطولته.

يطلب مُقدم المؤتمر انضمام البروفيسور «شلبي سليم الفخراني» إلى المنصة ليفتتح الندوة بكلمته.

***

- كان الناس قبل سنوات غير بعيدة جدًا يظنون أن من المستحيلات أن تستمر الحياة بغير ورق، فالورق هو الأدب، والتاريخ، والقوانين، والهوية.. إنه العنصر اللازم لحياة منظمة متحضرة..

لكن في عصرنا الرقمي، وتحديدًا في عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعون قام العلماء بتجربة في ولاية «أيرزونا» الأمريكية، بإشراف جامعة «كولومبيا» لتجربة الحياة بغير ورق.. عاش خلالها ثمانية متطوعين في سفينة زجاجية في حجم باخرة كبيرة، بداخلها نماذج من جميع الكائنات الحية على وجه الأرض.. تمامًا مثل سفينة نوح!.. واستمرت التجربة لمدة عامين.. ثمانية وأربعون شهرًا بغير ورق!

كانت السفينة نموذج مُصغر لمحاكاة الحياة على سطح الأرض، وعلى الثمانية متطوعين أن يستبدلوا الورق بحياة إلكترونية مكثفة.. وليس ذلك فحسب، بل عليهم أن يكونوا رقميين نُشطاء، فيذاكروا ويحصلوا على درجات أكاديمية متقدمة، يجمعون المحاصيل، يزيلون الحشائش الضارة.. والحرص على توصيل كل البيانات والمعلومات التي تتعلق بحياتهم بالمذياع إلى زملائهم خارج الوجود الإلكتروني، ويراسلونهم من الخارج عن طريق آلات فاكس يتم التعامل معها إلكترونيًا.

وفي نهاية التجربة قالت إحدى المتطوعات وهي «ليندا لياي» أن عيش حياة إلكترونية كاملة داخل سفينة التجارب كان يتطلب الكثير من الناس بالخارج الذين يعملون إلكترونيًا كذلك.. وأننا لا يمكننا أن نعيش في جزيرة ما حياة إلكترونية كاملة بمعزل عن الورق.. وإذا صح ذلك فبإمكان فيروس خبيث القضاء على تلك الحياة بأكملها.

أثناء تحدث البروفسور «شلبي» كانت كلماته تُذاع بثًا مباشرًا في كل أرجاء العالم.. أردف «شلبي» مخاطبًا العالم أجمع:

- طموح الإنسان لا حد له.. ومثلما تطور السلاح البسيط الذي كان من الممكن أن يُستخدم لمصلحة الإنسان وحمايته إلى قنابل نووية قادرة على إبادة شعب بأكمله.. تطورت «مواقع التواصل الاجتماعي» في عصرنا الرقمي إلى الحد الذي ابتلع حيوات الناس بالكامل!

وهذا يجعلنا نحن العلماء نحمل على عاتقنا مهمة ردع هذا التطور طالما فيه انهيار للبشرية جمعاء.

ثم أشار إلى الشاشة من خلفه والتي تعرض صورة كبيرة لرجل وامرأة يضحكان بسعادة ومن خلفهم بيت صغيرة بحديقة غنَّاء، وهو يقول:

- أدمن الناس استخدام مواقع التواصل الاجتماعي.. استغنوا بأصواته وصوره وكلماته عن الأصوات والصور والكلمات الحقيقية..

انغمس مستخدمو تلك المواقع فيها هربًا من واقعهم..

وفي لحظة تطور كل شيء بسرعة لمواكبة عصر السرعة.. اتحدَتْ مواقع التواصل الاجتماعي معًا.. فيسبوك.. تويتر.. يوتيوب.. سناب شات.. إنستجرام.. جوجل بلس.. تمبلر.. ماي سبيس.. لينكد إن.. وغيرهم.

اتحدَتْ لتصنع عالمًا متكاملًا طغى على فكرة غزو الفضاء وتعمير الكواكب الأخرى..

أضحتْ «مواقع التواصل الاجتماعي المتحدة» جنة لكل مستخدمي الإنترنت على ظهر الأرض.. «عالم ثاني» لا يحمل مساوئ العالم الحقيقي.. وأطلقوا على هذا الاتحاد العظيم اسم «حياة بديلة».

يستطرد «شلبي» بما يعرفه «أسمر» عن ظهر قلب:

- «الوهم» كما يُعرِّفه العالم اللغوي الأمريكي «ويبستر» في قاموسه.. ليس شيئًا غير موجود، وَإنما هو شيء موجود ولكن ليس كما يبدو لنا!

والواقع الافتراضي أو الـ Virtual reality هو أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة.. ينغمس الإنسان في بيئة اصطناعية من الصوت والصورة واللمس يتعرض خلالها إلى سلسلة من الإحساسات والمؤثرات والتفاعلات ضمن وسط مُبرمج إلكترونيًا بإتقان؛ ليجعل الإنسان يشعر بالوهم كما لو كان هو الحقيقة الوحيدة.

الواقع الافتراضي يوظف رغبة الإنسان في الهروب من الواقع بتعقيداته ومشكلاته وصراعاته، إلى عالم واسع رحب مليء بالتخيل والافتراضات.

يفقد «أسمر» تركيزه.. لا يعبأ بالإنصات إلى أستاذه الذي تربى علميًا على يديه، لأنه يعرف بقية الحكاية.. والتي تدور في عقله الآن كشريط سينمائي..

ازداد الهروب من الواقع.. بقهره وظلمه وظلامه والتزاماته ومعاناته.. وتسابق الناس على أعتاب «العالم الثاني».. يأملون في حياة جديدة مختلفة عن تلك التي يعيشونها كل يوم بالمرارة نفسها..

زادت الفجوة الاجتماعية بين الناس.. تصاعد انخراطهم في التعامل مع «العالم الثاني».. لم تكن فرصة الحياة الثانية متاحة للجميع، فالطبقة التي تعيش تحت خط فقر المال والعلم والآداب العامة توحَّشتْ، وثارتْ حقدًا وحسدًا على أولئك الذين يملكون هذه الفرصة الذهبية.. فاجتاحتْ بلاد العالم الحقيقي أوبئة السرقة والقتل والاغتصاب.

ازدادت كثافة تعداد سكان «العالم الثاني» على نحو مخيف.. وطول فترات مكوثهم فيه دفع بشركة عالمية مثل شركة «حياة بديلة» إلى اكتساح السوق، بتوفير كبائن آمنة مُجهزة لكل مُستخدِم يُحقَن فيها بمادة خاصة؛ فيدخل فيما يشبه غيبوبة طويلة، مُستلق فوق فراش بائس.

يتنقل ذهنيًا إلى العالم الثاني دون أن يحمل همًا للعمليات الحيوية الأساسية لجسده، ولا أن يخشى على حياته من الوحوش الذين يجوبون الطرقات ليلًا نهارًا لا تقوى جهود الشرطة على ردعهم.. فالشركة تعتني بكل هذه المشكلات التي تعيق المُستخدِم عن الانخراط كلية في شخصيته الافتراضية.. والحياة التي اختارها بنفسه.

وليس على المستخدم أن يضحي سوى بشيء صغير.. صغير جدًا!

فلكي يتم منحه حياة افتراضية كاملة ينغمس فيها بكل كيانه داخل مواقع التواصل الاجتماعي المتحدة.. عليه أن يوافق على بتر إحدى كفيه واستبدالها بشريحة إلكترونية زجاجية.. تُشبه الهاتف النقال!

في الواقع لم يكن الخيار صعبًا على أي حال.. فالناس باتوا يسيرون في الشوارع والطرقات ويعيشون داخل منازلهم ويؤدون أعمالهم بينما الهاتف الخليوي يلتصق بكفوفهم!

حولتنا الحياة الرقمية إلى بشر ذوي كفوف من زجاج!.. أصبحتْ قطعة من زجاج هي جواز سفرنا إلى عالم آخر..

لو عاش «داروين» إلى عصرنا هذا لفوجئ أن بإمكان الإنسان أن يتطور.. إنه يدنو شيئًا فشيئًا من أن يصبح آلة صمَّاء.. مُجردة من المشاعر وحس الفن والدين والأخلاق!

يعود «أسمر» إلى اللحظة الراهنة، يستمع إلى «شلبي» وهو يقول:

- تكاتفنا نحن العلماء من خمس عشرة دولة في سرية تامة؛ لإثبات أن الحياة في مواقع التواصل المتحدة ليست فقط مُدمرة للحياة الواقعية، بل أن مستخدميها باتوا يعانون بداخلها من نفس الأشياء التي كانوا يحاولون الهرب منها.

ولتحقيق هذا الهدف كنا بحاجة إلى دراسة نفسية واجتماعية دقيقة جدًا لسلوك المُستخدم داخل «العالم الثاني».. كنا بحاجة إلى متطوع

وكان هذا المتطوع.. دكتور «أسمر».. الحاصل على الدكتوراه في «علوم تطبيقات الانترنت» من جامعة هارفرد.

يعلو التصفيق من جديد.. دقائق تمر حتى يتمكن «شلبي» من أن يردف:

- أما في عالمنا فقد تطورت الحياة الرقمية إلى الحد الذي دفع شركة «حياة بديلة» إلى أن تُعلن بشكل كامل قدرتها على فصل ذكريات المُستخدم في الحياة الواقعية عن ذكرياته في «العالم الثاني».. بل واستغلال بعضها إن لزم الأمر..

عندما يكون المقيم داخل عالمه لا يتذكر أي شيء من حياته السابقة.. يتحرر من كل التزاماته ومشاكله.. وتعرفون يا سادة كم الاندفاع الرهيب للحصول على عضوية مُقيمة في «العالم الثاني» بعد هذا الإعلان.

المقيمون يعيشون حياة خيالية داخل مقبرة يدفنون فيها أنفسهم أحياء، يتغذَّى فيها الدود على أعمارهم.. بينما شركة «حياة بديلة» تحصد إيراداتها المهولة من بطاقاتهم البنكية بشكل دوري..

والمقيم الذي تنتهي أرصدته البنكية يفصلونه عن حياته الرقمية ويُعيدونه إلى عالمنا الحقيقي فورًا.

يشير إلى صورة أخرى تجمع جثثًا كثيرة، يتنهد قائلًا بحسرة كبيرة:

- لكن للأسف لا أحد يرجع برغبته، لا يعود سوى الفئة التي نفدتْ أموالها، وهذه الفئة عديمة النفع لا تمنحنا أي معلومات تفيدنا في أبحاثنا.. لأنهم يعانون من شلل اجتماعي لا يُمكِّنهم من التواصل مع الآخرين.. بعضهم يفضل العزلة والإضراب عن الطعام والشراب حتى تخور قواهم.. وآخرون يلجأون إلى الانتحار بالسقوط من النوافذ والشرفات.

أصبح مشهدًا طبيعيًا أن تسير في الطرقات فترى إنسانًا مثلك يسقط تحت قدميك وكأنه براز أحد الطيور.. فتخُط فوقه، تنفض الدماء عن حذائك، وتستكمل طريقك!

ثم علا صوته هاتفًا بابتهاج:

- لكن كل ذلك انهار فجأة عندما تهدم «العالم الثاني» رأسًا على عقب.. لا نعرف المتسبب في ذلك.. لكننا سعداء كثيرًا بأن «العالم الثاني» اختفى من الوجود.

لكن «أسمر» يعرف أن هذا غير صحيح، فمجموعة من العلماء على رأسهم البروفيسور «شلبي» هم وحدهم المسئولون عن تدمير «العالم الثاني» واختفائه بكل ما فيه.. بحار.. أنهار.. سماء.. أرض.. حتى اختفى كل شيء واستيقظ المستخدمون أخيرًا من ثباتهم.

كان من المفترض أن يتم ذلك قبل ثلاث سنوات عن طريق زرع فيروس في «العالم الثاني».. يُمكنهم من القضاء عليه.. وكانت تقتضي الخطة أن يحصل «أسمر» على البيانات اللازمة لتحليل العالم الثاني، ثم يقوم الفيروس بالتدمير.

لكن خللًا ما حدث وانقسم الفيروس على نفسه؛ فاضطربتْ ذاكرة «أسمر».. واستمر ذلك لثلاثة أعوام كاملة.

حتى تلقَّى «أسمر» ضربة على رأسه أحدثتْ اضطرابًا في ذكرياته.. وتمكَّن أخيرًا من دفع الفيروس إلى تنفيذ مهمته.. فتدمَّر «العالم الثاني».. وخرج منه المستخدمين بسلام.

(٢٦)

يختلي «أسمر» بنفسه في بيته.. بيته الحقيقي المصنوع من الطوب والملاط، لا ذاك المصنوع من الأوهام.

ما إن يلج منزله حتى يجوس بأنظاره في الشرفة التي شهدتْ جلساتهم العائلية صيفًا.. وغرفة المعيشة التي ضمَّتْ ضحكاتهم شتاء.. آلة «الكاليمبا».. الكرسي الهزاز.. كُتبه.. ملابسه.. أغراضه.. كل شيء على حاله كما تركه قبل ثلاثة أعوام هي عمر حياته الافتراضية داخل «العالم الثاني».

يتأمل صورة كبيرة لـ«سبايدر مان» تُزين غرفته منذ أن كان طفلًا صغيرًا، يتذكر كم حلم أن يصير بطلًا خارقًا مثلا.. فينتبه إلى أنه اصطحب معه إلى «العالم الثاني» بعضًا منه.. تساءل في نفسه: هل عاد أيضًا من «العالم الثاني» وهو يحمل من شخصيته الرقمية شيئًا؟

لعل الأيام القادمة ستُبين له ذلك.. لكنه يثق أن هذا الطريق ذو اتجاهين.. الشخصية الحقيقية والرقمية لا يعيشان بمعزل عن بعضهما البعض، بينهما جسر مشترك تعبر خلالها الأفكار والمشاعر والأحلام، مهما تطورتْ التكنولوجيا وتلاعبتْ بفصلهما، لا يمكن أن يكون هذا الفصل تامًا.

لكن الغريب بالنسبة إليه كيف كان بإمكانه أن يحيا بشخصية تُخالف كثيرًا حقيقته.. «أسمر» الحقيقي قوي الإرادة، واسع الحيلة، فائر النشاط، عزيز النفس، وإلا لما جابَه المخاطر بخوض تلك الرحلة التي

كان من شأنها أن تقضي عليه، وكل ذلك من أجل مصلحة الناس، فهذه هي زكاة العلماء عن علمهم النافع.

أما «أسمر» الآخر كان هشًا، تُخاصمه الأحلام.. يُشارك كلمات الآخرين «Share».. ولا يجسر على البوح بكلماته الخاصة، أو لعله لا يملك القدرة على تحويل أفكاره إلى كلمات!

يجلس «أسمر» فوق الكرسي الهزاز المواجه لتلفاز يأكل جزءًا كبيرًا من الجدار.. يفكر.. كم شخصية تعيش بداخل الإنسان الواحد؟

ألا تتضارب الآراء طوال الوقت حول شخص ما.. البعض يحبه، البعض يكرهه، البعض يراه جبارًا وآخرون يرونه صعلوكًا؟.. هل هذه الرؤية غير الثابتة في تقييم إنسان تنبع من اختلاف المُقيِّمين أم من تعدد الشخصيات التي تعيش بداخل الإنسان موضع التقييم؟

هل نحن مثل «الكيميرا»؟.. الحيوان الخرافي الذي له رأس أسد، وجسم شاة، وذيل حية.. خلاياه تحتوي على ثلاثة أنواع مختلفة من الجينات.. فهل نحن أيضًا نحمل بداخلنا أنواعًا مختلفة من الشخصيات.. تظهر وتختفي حسب الحاجة؟

هل بإمكان إنسان أن يكون جبارًا عنيدًا إذا وضع تحت ظروف معينة، وفي الوقت نفسه يكون التقي الورع الذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر؟.. دون أن يشير هذا التناقض إلى خلل نفسي، بقدر ما يشير إلى فطرة طبيعية.

من أنا؟!.. هل «أنا» هو مجموعة الصفات التي أراها بداخلي.. أم التي يراها الآخرون فيّ.. أم مزيج من الاثنتين؟

عدة ساعات لم يغادر خلالها الكرسي الهزاز.. ثم أخيرًا فارقه.. أطفأ كل مصابيح البيت.. وتأكد من أن شاشة الحاسوب مُطفأة تمامًا.. بضوئها اللعين الذي يتغذَّى على النوم، وينشر عدوى الأرق!

يستلقي فوق فراشه.. يُغمض عينيه.

وعلي شُرفة النوم يقف مُستدعيًا الأحلام لزيارته.



(٢٧)

مُحاكمة بين عالَمين

في قاعة المحكمة حَظرتْ الهيئة القضائية استخدام الهواتف النقالة، الحواسيب، آلات التسجيل، آلات التصوير.. وأي وسيلة تكنولوجية تُمكِّن المتواجدين داخل القاعة من التواصل مع من هم خارجها.

ورغم مُناداة الصحافة بضرورة وجود وسيلة تُساعدهم على التواصل مع مراسليهم بالداخل، لرصد تفاصيل «مُحاكمة العصر» ـــ كما أسمتها العناوين الرئيسية في الصحف الرسمية بجميع بلاد العالم ـــ أولًا بأول؛ لم تحدِ السلطات القضائية عن قرارها.

ولأول مرة في التاريخ تقوم ثلاثون دولة كبيرة حول العالم بتوحيد كلمتهم والمطالبة بمقاضاة شركة واحدة.. وهي شركة «حياة بديلة» التي أسسها ويديرها أكبر المستثمرين في العالم.

ظن الجميع أن شوكة «حياة بديلة» قد انكسرتْ في اللحظة التي تدمرتْ فيها أسطورة «مواقع التواصل الاجتماعي المُتحدة».. وتوهَّم العلماء أنهم ربحوا الحرب، لكنها لم تكن سوى الجولة قبل الأخيرة.

فالجولة الأخيرة ستكون هنا في قاعة المحكمة، إذ أن شركة «حياة بديلة» وعدت بعودتها بقوة خلال فترة زمنية وجيزة، فسارعتْ حكومات الدول إلى المطالبة بوقف نشاطات الشركة، وتجميد أموالها، لانتهاكها حقوق الإنسانية.

يتواجه طرفان من أمهر المحامين ذوي جنسيات مختلفة.. القاضي نفسه ليس شخصًا واحدًا، بل هيئة مكونة من خمسة قضاة مُخوَّل لهم البت في «قضية العصر».

- بدأتْ المحاكمة.

صاح بها آخر صحفي يقف في نهاية القاعة قبل أن تُغلَّق الأبواب، وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة لا يذكرها، يعود آسفًا إلى استخدام الورقة والقلم.

***

في قاعة المحكمة تُعرض الكثير من البضائع في سوق الكلمات الموزونة، والعبارات الرنانة.. الكثير من الظنون والشكوك والادعاءات، ويُردُّ عليها بالكثير من النفي واليقين والإثباتات.. كل طرف يُصر على موقفه وكأنه راعي العدالة والحق والحقيقة في هذا الكون.

و«أسمر» يُتابع كل ذلك بعين السخط.. خاصة عندما قال أحد مُحامي شركة «حياة بديلة» للهيئة القضائية:

- أرفض تمامًا تصنيف العالم الاجتماعي المتكامل الذي وفرته شركة موكلي بـ «العالم الثاني».. بينما يتم وصف هذا العالم بـ «العالم الحقيقي».. ما هي الحقيقية يا سادة؟.. إنها الشيء الذي يُمكن وصفه ولمسه والشعور به والتفاعل معه والتأثر به.. وهذا بالضبط ما يحدث في العالم الاجتماعي المتكامل الذي تم تخليقه.. إنها حياة حقيقية تُؤثر في المقيمين بداخلها مثلما تؤثر فينا هذه الحياة تمامًا.. لذلك أطالب بشطب وصف «العالم الحقيقي» من الدعوة.. واستبداله بـ «العالم الأول».

ويزداد سخط «أسمر» عندما توافق الهيئة القضائية على نعت العالم الحقيقي بـ «العالم الأول».. وكأن «العالم الثاني» هو مستوى آخر من الحياة الحقيقية.. امتداد لها.. وهذا لا يُبشر أبدًا بالخير.

ويستكمل المُرافعة أحد المدافعين عن حقوق «العالم الثاني»:

- كلنا نبحث عن الخلود.. الكلمة السحرية التي تستقر في وجدان الإنسان منذ ولادته.. يبحث عنها حتى حينما لا يدرك أنه يفعل.. هذا ما دفع العلم إلى تجارب مثل التلقيح الاصطناعي.. الاستنساخ.. زراعة الأعضاء.. العثور على إكسير الحياة.. وحتى صناعة الأشرطة الصوتية..

الإنسان يُحب أن يُخلَّد.. لا أعضاء جسده فحسب.. لا ذرية من بعده تحمل جيناته الوراثية فحسب.. لا صوته فحسب.. إنسان «العصر الرقمي» يسعى إلى تخليد أفكاره.. أوهامه.. أحلامه.. يسعى إلى تخليد ذكرياته.. وآرائه.. وأخلاقه..

العالم الاجتماعي المتكامل هو فرصة لتحقيق حلم الإنسان في الخلود.. يصنع الإنسان من نفسه نُسخة رقميه تعيش أبدًا.. لا تموت.. نُسخة قادرة على منحه الخلود الذي كان يسعى له منذ أن طُرد «آدم» المُعَد للخلود من جنة الخُلد.. منذ أقدم قصة عرفتها البشرية، «ملحمة جلجامش» والتي يصارع فيها الملك «جلجامش» الحياة أثناء رحلته للبحث عن الخلود.. أغنياء أوروبا.. أباطرة الصين.. القدماء المصريين.. جمعهم كانوا يبحثون عن إكسير الحياة الذي سيؤمِّن لهم الشباب والخلود.

ماذا قال الروائي الفرنسي «ميلانكونديرا»؟.. «من يفتش عن اللانهاية عليه أن يغمض عينيه».. لكن شركة «حياة بديلة» أتاحتْ للإنسانية «اللانهاية» دون أن تغمض عينيها.. أيُعدُّ هذا جُرمًا سيادة القضاة؟

الدماء تغلي في عروق «أسمر».. تفور.. تحتشد في صفحة وجهه أسمر اللون.. توشك أوردته وشرايينه على الانفجار.. لا يُهدئ من ثورتها سوى كلمات أحد محامي الادعاء:

- من الجيد استشهاد زميلي الفاضل بأغنياء أوروبا أثناء بحثهم عن الشباب والخلود.. فلا نرى حضرات القضاة مسعى «حياة بديلة»

يختلف كثيرًا عن طريقة «إنكريتا مارتي» مصاصة دماء إسبانيا، والتي كانت تُحضِّر إكسير الحب والشباب لأغنياء «بارشلونة» من شحوم ودماء الأطفال بعد قتلهم.. فنيتها الخالصة في البحث عن الشباب وخلود الجمال لا يشفع لها أن فِعلتها جريمة شنعاء..

«العالم الثاني» ما هو إلا إكسير للخلود مصنوع من دماء وأشلاء الإنسان نفسه.. انظروا للمُقيمين في كبائنهم في كل ربوع الشركة حول العالم.. إنهم جثث تتنفس لا أكثر.. جثث تتصل بآلات صماء.. موتى على قيد الحياة!

الإنسان لم يُخلق منفردًا.. هو مخلوق اجتماعي وُجِد على الأرض كي يُعمِّرها.. النحلة لا يمكن أن تعيش بمعزل عن الخلية حضرات القضاة.. وإلا تفككت الخلية وانهارت.

الخلية الحقيقية هنا.. في «العالم الأول».. المكان الذي اختاره الله ليكون موطنًا للإنسان.

وفي اعتراض صفيق أثار ثائرة «أسمر» قاطعه أحد محامي الخصم ساخرًا:

- هذا يعني أن «الله» خالق «العالم الأول» غير «الله» المُهيمن على «العالم الثاني».. والمشكلة كلها تتلخص في صراع بين الآلهة حول من الذي سيُعمر الإنسان عالمه؟

- الألوهية لا تتجزأ زميلي الفاضل.. رب العالمين واحد.

- طالما رب العالمين واحد.. فما الاعتراض على تعمير «العالم الثاني»؟.. المُقيم اختار بنفسه ترك «العالم الأول» والبقاء في «العالم الثاني».. مثلما تقرر أنت أن تفارق «باريس» لتقيم في «برلين».. ما المشكلة في ذلك؟

- لا تلعب بالكلمات.. المُقيم لم يختَر مُفارقة مكان إلى آخر.. بل اختار مفارقة الحقيقة إلى الوهم.. الواقعي إلى الافتراضي.

هنا تحدَّث أحد القضاة سائلًا:

- هذا ما كان يحدث منذ عشرات السنوات فلما الاعتراض الآن؟

- أخبرك سيدي القاضي.. قديمًا.. عندما انتشر الإنترنت.. وأصبح قرية كونية كبيرة.. انتشرت مواقع التواصل الاجتماعي انتشار النار في الهشيم.. «العصر الأزرق» كما تعودنا أن نُسميه.. ورغم أننا حاولنا لعب «لعبة الأمم» على الانترنت.. وجعلناه جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية.. ساهم في تطوير الشركات والأشخاص.. وجعل العالم كله مثل جزيرة صغيرة يسهل التنقل بينها.. إلا أن الوضع كان مستقرًا.. صحيح أن جرائم إلكترونية مُبتكرة نشأت حينها.. وازداد معدل الجريمة الإلكترونية.. إلا أن كل ذلك كان تحت السيطرة.. لأن شكل المجتمع التقليدي في حياتنا الواقعية لم يتغير.. ظلَّ على استقراره..

أما الآن وبعد عشرات السنوات فقد تغير الوضع تمامًا حضرات السادة القضاة.. الناس تُسارع بجنون إلى مُفارقة عالمنا والتقوقع داخل كبينة من عدة أمتار فقط ليعيشوا حياة بديلة.. افتراضية.. مُتخيلة..

لم يعد الناس يجمعون بين الواقع والافتراضي كما كان يحدث في الماضي.. لقد استبدلوا الواقع بالافتراضي.. استبدلوه تمامًا..

أصبحوا يأكلون افتراضيًا.. يشربون افتراضيًا.. يتكاثرون افتراضيًا عن طريق تخليق حسابات وهمية لأطفال غير حقيقية «روبوتات».. أصبحتِ الصلاة افتراضية.. الحَج افتراضي.. التعميد افتراضي.. الذنوب افتراضية.. والحسنات افتراضية.. حتى أن هناك مقابر افتراضية يُدفن بها أصحاب الحسابات المُعطلة أو المنتهية!..

أصبح «العالم الثاني» هو أفيون الأمم.. ووظيفتنا نحن الذين لم تطالنا شذرات هذا الإدمان بعدُ أن نُعين هؤلاء المدمنين على العودة إلى صفوفنا.. وأن نضرب على يد الجناة، كما نُعاقب مُروجي المخدرات وبائعي الموت.

اعترض أحد محامي الخصم يقول:

- حضرات القضاة.. ما هو العالم؟.. إنه المكان الذي نشأ حين ظهر الإنسان.. لا يوجد عالم بغير إنسان.. ومتى وُجد الإنسان وُجد العالم.. العالم هو المكان الذي يتحقق فيه سعي الإنسان وطموحاته ورغباته وأهدافه.. وكل هذا يحدث داخل «العالم الثاني».. لذلك أرفض تمامًا أنا وزملائي النظر إلى «العالم الثاني» بطريقة مُخالفة لتلك التي نتعامل بها مع «العالم الأول» الذي نعيش فيه نحن وأنتم.

ضجَّ رأس «أسمر» بصداع رهيب.. وبينما يتوه «الأدرينالين» في متاهة عروقه.. كانت أفكاره تتوه بين متاهات العدالة.. بين الواقع والخيال جدار.. ولن يسمح له بأن ينقض أبدًا.. وبينما هو يتقدم صوب المنصة حين تم استدعاؤه كشاهد رئيسي في القضية، رأى نفسه كالعبد الصالح الذي أقام جدارًا كان يُريد أن ينقض.. ابتدره أحد القضاة:

- قل يا بُني بياناتك، وكل ما تعرفه عن هذه القضية.

ترقب «أسمر» الصمت الذي حلَّ على القاعة.. الكل بانتظار كلمته.. فهو الشاهد الأهم في القضية.. يأخذ نفسًا عميقًا.. عميقًا جدًا، ثم يقول:

- دكتور «أسمر».. خمسة وثلاثون عامًا.. أعمل في المركز العالمي لبحوث الواقع الافتراضي.

يتلبّسه رداء التشتت.. يصمت ثوان ليستجمع أفكاره.. ثم يقول:

- لا أعرف من أين أبدأ.. نعم كنتُ مستخدمًا في «مواقع التواصل الاجتماعي المتحدة»، مُقيمًا في عالمهم لسنوات.. فعلتُ هذا بمحض إرادتي لدراسة التغيرات النفسية والسلوكية والمجتمعية للمقيمين..

كان من المفترض أن يستمر مكوثي هناك عدة أشهر فحسب.. لكن بسبب خلل.....

قاطعه محامي الخصم موضحًا:

- بل بسبب نشاطاته السرية مع مجموعة من العلماء للقضاء على شركة موكلي بطريقة غير قانونية.. مما تسبب في خسائر فادحة للمستثمرين حول العالم.

عارضه محامي الادعاء:

- أعترض حضرات القضاة، فلا يوجد أي دليل مادي على أن شاهدنا الدكتور «أسمر» هاكر.. له يد مباشرة أو غير مباشرة في انهيار «العالم الثاني».. وإن لم يتوقف محامو الشركة عن مثل هذه الادعاءات بغير بينة فنطالب بمعاقبتهم للتشهير بدكتور «أسمر»، وبغيره من العلماء الأفاضل.

المحامي يعرف أنه يكذب.. ومحامو الدفاع يعرفون أنه يكذب.. والهيئة القضائية تعرف أنه يكذب.. وكل روح حية داخل قاعة المُحاكمة تعرف أنه يكذب.. لكن البعض تقبَّل الكذبة وتستر عليها؛ لأن رغباتهم تلاقت عندها، وآخرون غصُّوا بها لا يسعهم إثباتها.

يغتاظ محامي الخصم، يهتف:

- لم نقل أبدًا أن الدكتور «أسمر» «هاكر» Hacker يا زميلي الفاضل.. بل هو «كراكر» Cracker خبيث.. فـ«الهاكر» يخترق ويراقب ويتجسس دون إلحاق الضرر.. أما «الكراكر» هو ما تفعله المنظمات الإجرامية؛ فهدفها الأول هو التدمير.. تمامًا كما فعل دكتور «أسمر» ومن يقفون خلفه من أرباب العلم.. وكلاهما ممنوع بموجب القوانين السماوية والوضعية والأخلاقيَة.

ضجَّتْ القاعة بأصوات الطرفين حتى كادت تتحول إلى مشاجرة عنيفة إلا أن القضاة أحكموا السيطرة على زمام الأمر.

يستطرد الشاهد الوحيد، بينما الجماهير الغافرة المتجمهرة خارج المبنى، للمقيمين العائدين قسرًا، ترتفع أصواتهم رفضًا لمحاولة منع شركة «حياة بديلة» من ممارسة نشاطاتها:

- ماذا نفعل هنا؟.. صدقًا ماذا نفعل هنا؟

يتلفتُ الجميع.. يتبادلون النظرات في دهشة.. يُجيب أحد القضاة ببديهية:

- أنت في قاعة المحكمة.. وسط مُحاكمة القرن يا دكتور «أسمر».

يستطرد «أسمر» وكأنه لم يسمع كلمات القاضي:

- نحن في هذه الحياة لا نُعمر أجسادنا بالطعام والشراب والشهوات فحسب.. ولا نعمر الأرض بالطوب والزرع فحسب.. نحن نصنع كونًا.. عالمًا يسع الأجيال القادمة.. عالمًا لبناته هي المواجهة.. نحن هنا في هذه الحياة البغيضة اللعينة كي نواجه.. نواجه الطبيعة، وأنفسنا، والآخرين.. لا يكون العالم عالمًا بغير صراع بيننا وبينه.. وبيننا وبعضنا البعض.. وبيننا وأنفسنا..

استبدَل الناس الواقع المختنق بفضاء افتراضي رحب، فهل وجدوا فيه مبتغاهم؟.. كلا لم يجدوا.. لأن كما تفضل محامي الخصم الإنسان هو الذي يصنع العالم لا العكس.. لذلك تحوَّل العالم الافتراضي بدوره إلى واقع مختنق.. تحوَّل إلى بيئة بغيضة لعينة!

الإنسان هو الإنسان.. مهما تطورت التكنولوجيا لن تقضي أبدًا على طبيعته التي جُبل عليها.. كل ما حدث أن الجرائم تطورتْ.. والشهوات تفرَّعتْ.. والصراعات تعقدتْ..!

العالم البديل ليس متنفسًا وليس عالمًا ثانيًا من الأساس.. إنه نفس العالم بنفس منابع مشكلاته وصراعاته، لأن ببساطة شديدة الإنسان هو الإنسان!.. حتى وإن ذهب إلى المريخ، حتى وإن استوطن القمر..

سيُحوِّل أي مكان يذهب إليه إلى «الأرض» مرة أخرى، ستتكرر نفس السيناريوهات، وستتشابك الأحداث لتصنع النهاية ذاتها..لا جنة حيثما وُجِد الإنسان.

وكما اعترض المدافعون عن الشركة على تسمية عالمنا بـ «العالم الحقيقي».. فأنا أعترض على تسمية عالمهم بـ «العالم الثاني».. فكلاهما في الحقيقة الشيء نفسه.!

تضج القاعة بالأصوات المتلاطمة.. يظن البعض أن «أسمر» قد بدَّل موقفه.. يستغل أحد محامي الخصم ويبادره:

- ولماذا إذن المطالبة بتعليق نشاطات الشركة إن كان كلاهما واحدًا؟

يمنحه «أسمر» الجواب بثبات:

- لأنك عندما ترغب في تجنب تبعات العاصفة فأنت تفعل ذلك قبل قدومها، وليس أثناءها..

صحيح أن للعالمين الطبيعة النفسية والاجتماعية ذاتها وإن اختلفت آلياتهما.. لكن المستقبل لا يُبشر أبدًا بخير.. ليس على مستوى العالم الافتراضي فحسب.. بل هنا كذلك.. هذه الأرض تفقد عُمَّارها يومًا بعد يوم.. هذه الأرض يتم هجرها أكثر فأكثر.. ويومًا ما في المستقبل القريب.. أو حتى البعيد.. ستثور هذه الأرض كي تنتقم من مُخربيها..

وستكون تطبيقات الواقع الافتراضي مثل قاتل اجتماعي تسلسلي.. لا يقتل ضحاياه فحسب.. بل يلتهم أفكارهم وأحلاهم ورغباتهم..

ونحن نرغب في تلافي العاصفة قبل قدومها.

يلتفت «أسمر» بحركة دائرية ليواجه الجميع.. وهو يرفع هاتفه الخليوي عاليًا ويقول:

- هذا الصندوق الصغير يحتوي على قطعة صغيرة من العالم الذي تخلقه «مواقع التواصل الاجتماعي المُتحدة».. لكن هذه القضمة الصغيرة كافية لتخبركم بمذاق القطعة كاملة..!

نحن نُنشىء من أنفسنا نسخة رقمية في مجتمع خنثوي ثقافيًا.. مجتمع يهوَى الازدواجية.. يتشرَّبها، يتنفسها، ويدين بها.

نمنحه صلاحية مراقبتنا على الطريقة «الأورويلية»[1].. لم يعد الأخ الأكبر يبذل الجهد في سبيل معرفة أخبار مواطني دولته كما كان يفعل في الزمن الجميل.. نحن تشبَّعنا بشهوة الكلمات والأصوات والصور.. نخبر هواتفنا بما نخفيه عن أهلنا وزوجاتنا وخليلاتنا وأصدقائنا.. نتعامل مع الأخ الأكبر وكأنه مستودع آمن يحفظ الأسرار..

نؤدي أمامه رقصة التعرِّي، نُعري ضعفنا، أسرارنا، آثامنا، مخازينا.. والأخ الأكبر يضحك منا.. وعلينا.. بكلمة سِر نملكها فنظن أننا امتلكنا مفاتيح الخصوصية..!

تتدفق أمواج التكنولوجيا بالمعلومات.. حتى أن الأخ الأكبر يستطيع أن يعرف ماذا أكلت اليوم، أين ذهبت، من رافقت، وإلى أين تنوي الذهاب في عطلة نهاية الأسبوع..!

يعرف من أي متجر غادرت، وكم ابنًا أنجبتَ، وبيتك بكم اشتريته.. الأخ الأكبر يعرف محيط صدر زوجتك، ولون ملابسها الداخلية..!

لم يعد الأخ الأكبر بحاجة إلى بذل الجهد في تتبع حياة الناس، لأنها بالفعل تدخل في عينيه!

كل مستخدم يُنشئ تحت عرشه جنة افتراضية تتمثَّل في «قائمة الأصدقاء»، ونار افتراضية تتمثَّل في «قائمة الحظر».. يرصد، يراقب، يتصيَّد، يتهم، ويصدر الأحكام..

تفاعلك بـ«قلب» يخبره بانتماءاتك السياسية، وبـ «وجه غاضب» يكشف معتقداتك الدينية.. يقيس قدراتك، قراراتك، سرعة استجابتك، تأثرك بالأحداث مِن حولك..

---

(١)نسبة إلى رواية جورج أورويل «١٩٨٤».

الأخ الأكبر ينتهك الخصوصية، لكنك تُخبره بكل شيء طواعية، لم يجبرك على البوح، ولم يخبرك أنه يريدك أن تبوح.. والأخ الأكبر لا يجمع كل تلك المعلومات من أجل تصنيفك إلي أي الفرق تنتمي فحسب.. الأخ الأكبر صار رأسماليًا.. يجمع المعلومات ويبيعها إلى من يدفع فيها الأموال!

تتعالى الصيحات من جديد.. يصبح المبنى بين شقي أمواج عنيفة من الموجات الصوتية.. تغلفه من الداخل والخارج.. يُهدد القضاة بإخلاء القاعة.. فيعود الهدوء.. يردف «أسمر»:

- الإنترنت له وجهان، أحسنهما نعرفه، لكن أقبحهما الكثير يجهله.. وجهه القبيح مصيدة تكنولوجية عالمية لجمع المعلومات.. وبيعها إلى الشركات.. هذه المعلومات تستغلها الشركات في الترويج والدعاية.. تتحدث مع صديق يومًا ما عن رغبتك في صيد السمك.. فتجد عاصفة من الإعلانات قد حاصرتك عن آلات الصيد وتأجير البواخر والرحلات البحرية.

تأتيك رسائل من شركة بيع الخمور التي توقفتَ أمامها للحظات مساء الأمس أثناء عودتك من العمل.. ثم تتعجب من أين تحصَّلت الشركة على رقم هاتفك.. لكنك لا تتوقف عند ذلك كثيرًا.. وسط الضوضاء والفوضى والمُشتتات تنسى الموضوع.. وتستمر في ثقتك بالأخ الأكبر، فقط لأنه أعطاك حرية امتلاك كلمة سر!

يسكت قليلًا.. يلتقط أنفاسه.. يردف وهو يلوح بهاتفه:

- أعطني رقم هاتفك فحسب سيدي القاضي وسأخبرك بكل ما فعلته اليوم والأمس وأول أمس.. بل وما فعلته في اليوم الأول الذي اشتريتَ فيه هاتفك.. سأعطيك تقريرًا دقيقًا عن كل مكان ذهبتَ إليه.. ولا

تخبرني أنك غير مُفعِّل لخاصة الـ Gps فلا فارق إن فعَّلتها أم لم تُفعِّلِها.. فهي مُفعَّلة على الدوام!!

ولا تخبرني أنك حذفت صورك وفيديوهاتك القديمة، فبتطبيق صغير مثل Dr.Fone بإمكاني استعادة كل ملفاتك المحذوفة في أقل من ثانية!.. هل تريد أن تُجري تجربة بسيطة؟..

افتح متصفح هاتفك واضغط File://sdcard.. واستمتع بمشاهدة بعض مما تظن أنك حذفته من الوجود!

ثم يتبسَّم قائلاً وهو يرى القلق يسيطر على وجه الجميع، خاصة وأن هواتفهم ليست في جيوبهم أو أيديهم كعادتها:

- الانترنت بالنسبة لنا جنة زرقاء، لكننا بالنسبة له مجرد كائنات عشوائية تتألَّف من معلومات.. معلومات مُنتهكة الخصوصية.. الشاشة التي نجلس ورائها نافذة مفتوحة المصراعين على حياتنا.. ومن الغباء أن نظنها عباءة «هاري بوتر» للتخفِّي!.. لا فرق بين متصل «Online» و«Offline».. فالانترنت ليس مكانًا لا ندخل إليه ثم نخرج منه وينتهي الأمر.. طالما دخلناه مرة إذن فنحن هناك طوال الوقت!

ثم يقول وقد كسى الوجوم وجهه:

- لكن هل تعرفون ما هو الأخطر من كل ذلك؟

في مسرح الدُمَى الياباني «بونراكو»، لا يختفي الممثلون وراء جدار، بل يقومون بتحريك عرائس «الماريونيت» الكبيرة على مرأى من الجمهور، دون مواربة أو تستر، ويصب الناس تركيزهم على الدمية رغم علمهم أن الممثل هو الذي يمنحها الحياة.

لكن مواقع التواصل الاجتماعي لا تلعب على طريقة الـ «بونراكو»!.. إنها تُخفي الممثل وراء جدار زجاجي عازل.. كل ممثل يُحرك دُميته الشخصية من خلف الجدار، بصوته وخيوطه وقفزاته.. ينتقي لها ما يشاء من صفات، يسبغ عليها العلم والقيمة والقدرة، وينزهها عن كل رزيلة.. وبمرور الوقت ننسى أنها دُمية، نُعاملها معاملة الإنسان الحقيقي نفسه.. نُبجلها، نُكرمها، ونشهد لها بالعلم والحكمة.. بل ينسى الممثل نفسه أنها دمية.. وأنها تحمل صفات هو راسمها.. يظن أن روحه تلبستّ تلك الدمية، وأن شخصيته الحقيقية ما هي إلا محض أوهام.

الأسوأ من الكذبة تصديقها سيدي القاضي.. والأخطر من مُعاقرة الكذب هو الخلود في عالم الأكاذيب!

لماذا لا تكون ذواتنا الرقمية في شجاعة عروسة «الماريونيت» التي انتحرتّ على خشبة المسرح عندما اكتشفت أن هناك من يُحركها؟



(٢٨)

ثلاثة ورابعهم سِرهم (٢).

البدايات ما هي إلا خيالات صغيرة مُتنكرة في رداء الواقع، هكذا هو الزمن دومًا يسمح للخيالات الصغيرة أن تكبر وتترعرع حتى تستطيع الأيام فيما بينها أن تتشابك..

لولا الخيالات لانفرط عقد الزمن، وسبحنا في رحاب الكون بغير رغبة أو هدف.

والويل كل الويل لمن يحاول أن يدفع الناس لأن تستفيقَ من أوهامها!

لم يختر «أسمر» بعشوائية المجموعة الصغيرة التي سيستمر بدراسة سلوكها بعد العودة من «العالم الثاني».. بل اختارها بعناية شديدة.. ولم يُمانع البروفيسور «شلبي» عندما قال له:

- أريد ثلاثتهم ليكونوا «المجموعة A» محل الدراسة.

- بالطبع يا دكتور «أسمر» لك أن تختار مجموعتك كما تشاء.

لم يختر المجموعة فقط، بل المكان كذلك.. طلب إعداد غرفة تُحاكي سقيفة «حصان طروادة».. المكان الأخير الذي اجتمع فيه أربعتهم قبل انهيار «العالم الثاني».. ربما لأنه أراد أن يكون المكان الشاهد على أوهامهم هو نفسه المكان الذي يشهد على واقعهم.

لم يكن قد رآها في العالم الحقيقي من قبل لذلك ارتد عقله بصدمة خفيفة وهو يرى الممرضة تسوقها إلى الغرفة التي أعدها.. تمشي بتروٍّ

شديد.. تُقَدّم قدمًا وتؤخر أخرى.. ولولا الممرضة التي تدفعها بلطف لما انتهت الخطوات العشرون اللاتي تفصلها عن المقعد المواجه له.. ولبقيَت تخطو تلك المسافة حتى فناء الأرض وما عليها.

يبتدرها «أسمر»:

- تفضلي بالجلوس.

ثم يتوجه إلى الممرضة بقوله:

- شكرًا لكِ، يمكنكِ الانصراف وإحضار الاثنين الآخرين.

- أفعل يا دكتور «أسمر».. ها هي الجريدة التي طلبتها، أين أضعها.

يشير برأسه صوب طاولة أمامه، تضعها، ثم تنصرف.

يتأملها، بفضول من يرقب سمكة صغيرة حبيسة حوض زجاجي.. تتأمله، بخوف من يرقب صيادًا شرسًا انتزعها من عالمها المائي.

يُدون في دفتره الأسود بقلمه الفضي فحوى رسائلها.. نظراتها الحادة رسالة، انفعالاتها الصارخة رسالة، عزوفها عن الحديث معه رسالة، تشابك كفيها رسالة، حركة ساقيها رسالة.. يُسجل على الهامش توترها الكبير.. كأنفها!

تدون في دفتر ذاكرتها هالة القوة والثقة التي تحيط به، والتي ذابت حول شخصية «أسمر» السائق.

تُقلِّب صفحة وجهه، تحاول أن تقرأه.. يُقلِّب ملفها الذي يضم كل شيء عن حياتها الحقيقية، يحاول أن يقرأها..

شاعرة هي، تحفظ الشعر وتكتبه وتُدرِّسه.. مرهفة الحس لكنها ليست ضعيفة الإرادة، أو هكذا اعتادت أن تكون، قبل الحادثة.. حادث مروري اختطف أباها وأمها وأخاها الصغير.. وتركها وحيدة في عرض الطريق كطير كُسر جناحه..

وفي الأيام التالية امتلأ البيت بالباكين والمولولين والمتأثرين ببلواها.. ربت كل منهم على جناحها المكسور.. بقوة لم تداوِها بل آلمتها.. الجناح المكسور يحتاج إلى جبيرة لا إلى ضغطة موجعة.. ثلاثة أيام ثم لم تعد تتحمل الألم، غلَّقتْ الأبواب دون الجميع، وبقيتْ في بيتها حبيسة الجدران والصور..

وفي رحاب الانترنت وجدت كوكبًا أزرق يغري بالسفر إلى عالم آخر جناحها فيه غير مكسور.. لم تودع أحدًا، ولم تخبر أحدًا بموعد الرحيل.. حملت آلامها فوق ظهرها وسافرتْ.. ومنذ اللحظة الأولى لها في هذا العالم المسحور وجدتْ أن جناحها لم يعد مكسورًا، وحوّل كتفيها ساعد أب يلتف بقوة وحنان.

فاختارت لنفسها في هذا العالم صورة واحدة ثابتة.. التقطها لها أبوها الحقيقي قبل وفاته، ضاحكة مستبشرة ترتدي معطفًا أصفر اللون في ليلة شديدة البرودة، وقررتْ أبدًا ألا تعود!

ثم تناستْ أن هوسها لسنوات بشفاء أجنحة الآخرين في ناديها، كان دافعه الأعظم هو ألا تتذكر جناحها هي.

***

- أين أبي؟

يسمعها لكنه يتظاهر أنه لم يفعل.. يترك قلمه الفضي فوق الطاولة التي تفصل بينهما.. تُكرر سؤالها، يستمر في تظاهره، لكنه يعجز عن الاستمرار في الثالثة، يرفَع رأسه، يركز بغير إرادة على أنفها، ثمة بقع بنية صغيرة تتوسطه، يترك الدفتر، يشبك أصابعه، ثم يجيبها:

- تعرفين أن والدك توفي في حادث سيارة قبل هروبك إلى «العالم الثاني».. اعذريني إن كانت كلماتي قاسية لكنكِ بحاجة إلى ذلك.. أنت لم تذهبي إلى هذا العالم للترفيه مثل البعَض، أو للمنفعة مما أتاَحه لنا التكنولوجيا والعِلم.. بل ذهبتِ للهرب.. أبوك، أمك،

أخوكِ الصغير.. لم تتحملي فقدانهم.. لذلك توقفي عن خداع نفسك.. أنتِ هنا في العالم الحقيقي.

تنامى الغضب في نظراتها، هاجمته بحدة:

- من أين تحصَّلتَ على هذه المعلومات؟

وقبل أن يُجيبها بادرته ساخرة:

- من مولاك الشيخ «جوجل» بالطبع، أليس كذلك؟!

بحدة مماثلة أجابها:

- ليس مولاي، ولن يكون أبدًا.. نعم أستخدمه وقت الحاجة.. كما تستخدمين أنتِ آلة غسل الملابس.. لكنني لا أُسلِّمه عقلي كاملًا.

- لا يهمني حتى وإن سلَّمته روحك.. أسأل عن أبي داخل «العالم الثاني».. أين هو.. مَن يكون؟

حاور وناور.. حاول الهرب.. مثلها.. لكنها لم تسمح له.. وكان هو يعرف أن لا شيء سينفعها سوى الحقيقة.. الحقيقة وحدها.. خشي ألا تكون مستعدة لتحمل الحقائق، لكن إصرارها على السؤال حسم تردده.

يلتقط من جيبه علبة محارم ورقية، يقلبها بين أصابعه، ثم يتركها بجوار القلم الفضي فوق الطاولة، ينظر إليها، ينتقي كلماته بعناية وهو يقول:

- في الحرب البيولوجية يتم استخدام الفيروسات المسببة للأمراض للقضاء على العدو.. وهذا ما فعلناه للقضاء على «العالم الثاني».. استخدمنا «فيروس» شديد الخصوصية لتدمير أركان هذا العالم الافتراضي.. لا يدمره بانفجار أو بهدم.. بل بمحو تفاصيله واحدًا تلو الآخر.

«فيروس» بإمكانه أن يتخفَّى في شكل مُستخدم مثلي ومثلك ومثل كل المقيمين في هذا العالم.. لكن ومثلما يحدث عادة في الحروب البيولوجية تظهر ثمة انحرافات غير متوقعة.. ولا يمكن التنبؤ بها أو حسابها معمليًا قبل إطلاق الفيروس.. عوامل متغيرة بتغير طبيعة المكان والزمان..

«الفيروس» الذي استخدمناه في مرحلة ما وقبل أداء عمله انقسم على نفسه.. وهذا ما أخَّر تدمير العالم الافتراضي ثلاث سنوات كاملة.. «الفيروس» انقسم إلى نصفين لكل منهما حياة مستقلة.

احتدتْ بعنف:

- لا أريد أن أسمع تفاصيل خطتكم العبقرية للقضاء على المكان الوحيد الذي يصلح للعيش بعيدًا عن الأنقاض البشرية.. أريد أن أعرف أين أجد «أبي»؟

- المكان الوحيد الذي يصلح للعيش؟.. حسبتك ذكية كفاية لكي تكتشفي أن الناس يهربون من الواقع لأنهم فقدوا ما يحبون أو لا يستطيعون الحصول على ما يشتهون.. إلى عالم وجدوا فيه نفس الوحش الذي كانوا يهربون منه.. حياة الناس هنا لا تختلف عن حياتهم بالداخل.. ولذلك قرروا الهرب مرة أخرى وأنشأ علماء العالم الافتراضي «جنة خضراء» وأعدوا «سفينة نوح» لتحملهم إليها لأنهم توقعوا فناء العالم.. لكن أتعرفين؟.. لو ذهبوا إليها لما كانوا سعداء فيها أيضًا.. وسيبني علماؤهم مكانا جديدًا ليهربوا إليه.. ستستمر سلسلة الهروب إلى الأبد.. أتعلمين لماذا؟.. لأنه لا وجود لحياة مثالية على الأرض..!

حتى تلك التي حلم بها «أفلاطون».. مدينة أطلانتس الفاضلة.. ليست مكانًا مثاليًا للعيش.. ليست مكانًا أحب أنا وأنتِ العيش فيه.. الناس فيه يعيشون بآلية يؤدون دورهم مثل تروس الساعة..

فكرة العالم المثالي من الأساس فكرة يهودية.. تتحقق فيها العدالة على الأرض..

الأرض لن تكون أبدًا جنة يهودية.. سيبقى فيها الظلم، والقهر، والعذاب، والمعاناة.. حتى قيام الساعة.. جنة الخلد هناك.. فوق سبع سماوات.

- لا يهمني أين تكون الجنة.. يهمني أين يكون «أبي»؟

- أبوكِ الحقيقي مدفون في مقابر عائلتكِ تحت التراب.

- أبي الوهمي.. الزائف.. غير الحقيقي كما تحب أن تدعوه.. أين يكون؟

يُخرِج حمالة مفاتيحه من جيب سترته، يتلمَّس مفتاحًا تلو الآخر، ثم يتركها بجوار القلم الفضي وعلبة المحارم الورقة فوق الطاولة.. يأخذ نفسًا عميقًا.. ينظر في عمق عينيها.. يشد قوس لسانه.. ثم يُطلق السهم:

- هو في لا مكان.

- ماذا تقصد؟

يحسم تردده، يبوح بالحقيقية الموجعة:

- لقد كان أحد نصفي الفيروس!

***

هل كان عليه أن يواجهها بالحقيقة في الجلسة الأولى؟.. لماذا لم ينتظر؟

صعدتْ مرارة الحنظل إلى حلقه بينما عبراتها تتساقط في صمت.

لا يفهم الدموع.. لا يحبها.. يرتبك في حضرتها.. لكنه هذه المرة شعر أن شيئًا ما بداخله يُشاركها البكاء.. لماذا يباغته مرة أخرى شعور قوي بأنها جزء منه.. أو هو جزء منها؟!

رفعتْ صوبه عينين لوَّامتين، تحتشدان بالألم، ثم قالت:

- أنت سلبتني أبي مرتين.. مرة الآن.. ومرة حينما ساعدتَ في إدانته بجُرم هو منه براء.

ليس في حاجة لأن يستفهم.. يعرف جيدًا ماذا تقصد.. الصورة البائسة التي التقطها له بينما فمه ويداه سائحان في دماء زوجته.. الصورة التي انتشرتْ في كافة الصحف مع عنوان كبير «الرجل الذي أكل زوجته»!

قرَّب الجريدة التي تركتها الممرضة من القلم الفضي، علبة المحارم الورقية، وحمالة المفاتيح.

لماذا كان يؤمن بصدق الصور إلى هذه الدرجة؟.. لماذا لم يفكر في أن الصور خدَّاعة شأنها في ذلك شأن الكلمات والأصوات؟

لماذا آمن بأنها الحكايات التي ترويها الصور دومًا صادقة؟.. وأن الظلال التي تعكسها بداخلها أبدًا لا تكذب؟!

لماذا لم يشك ولو للحظة أن للصورة ألف وجه، وبأنه لا يرى سوى وجه واحد منها؟.. وأنها كميزان العدالة.. المرأة التي تحمله في يدها، معصوبة العينين!

كيف سمح لصورته أن تُدمر حياة إنسان؟.. بل إنسانين!

تُخرجه من دوامة الأسئلة بسؤال:

- لماذا تبني بيننا هذا الجدار؟

ينظر إليها مُستفهمًا بدهشة:

- أي جدار؟

تشير بإصبعها إلى القلم الفضي، علبة المحارم الورقية، حمالة المفاتيح، والجريدة.. يتطلع إليها ثانية بسؤال صامت، فتجيبه:

- الذنب ينهشك من الداخل، أليس كذلك؟.. لذلك تبني بيننا هذا الجدار لتحتمي به.. لتختبئ خلفه.

يزدرد ريقه بصعوبة.. يتعرق جبينه.. تضطرب ضربات قلبه.. تزوغ عيناه.. فتميل هي صوبه.. تقيِّده في مقعده بنظرات نارية من عينين حمراوين مشتعلتين من أثر البكاء.. ثم تردف وقد حمل صوتها قسوة الصخر وثقله:

- لكنني لن أسمح لك.

كان الوثنيون يعبدون الأفاعي، من منطلق أن الشيء القادر على قهر الإنسان أو قتله يستحق أن يُرفع به إلى عرش السماء.. وكان «شاهق» يخاف من الأكتاف الممتلئة بالنجوم.. وكأن صاحب الكتفين صيَّاد ماهر يلقي بشباكه في عقر السماء ويختطف منها صغارها دون أن تجرؤ على ردعه..

هل لهذا السبب عمل كـ«ضابط إيقاع»؟.. هكذا فكَّر «أسمر».. لكن التفكير لم يُفضِ به إلى شبه يقين في أنه اختارها على سبيل التبرك باسمها.

لكنه ولا شك يتبرَّك بالبيادات القديمة التي يرصها في خزينة ملابسه، وفوق طاولة الطعام، وأسفل مقاعد غرفة المعيشة.

يتحصَّل عليها من صديق له يعمل كأمين شرطة، لعل هذا الصديق كان يتعجب في كل مرة يأتي له فيها ببيادة قديمة، وما يدفعه مقابلها من مال.. لكنه استمر في تلبية رغبة صديقه الشاذة، دون أن يجرؤ على سؤاله عما يفعله بها. في الواقع لقد سأله مرة واحدة، لكنه لم يحصل منه على جواب قط، فتوقف عن السؤال مخافة إغضابه، فيقطع عنه مدد المال.

لكنه سمع مرة من جار له أن صديقه يأتي بالبيادات في جوف الليل ويصفها فوق فراشه، ثم يسجد لها واحدة تلو الأخرى. هكذا رآه يفعل في ليال متفرقة فعلم أنه طقس ليلي لا يسهو عنه ولا يغفل.

يراه «أسمر» مُقبلًا مع الممرضة التي تسوقه إلى المقعد المقابل له، والمجاور لـ «خيال» التي لا زالت تحن إلى عالم الخيال.

فزع «أسمر» لنحافة جسده، صحيح أن صوره القديمة في ملفه الشخصي تُظهر وجهه كعظام يكسوها جلد بغير لحم، لكن مرأى جسده أفزعته.. هل يمكن للإنسان أن يُصبح بهذه النحافة؟

أين ذهبت القوة، والجبروت، والتجبر، والتكبر؟.. كيف استطاع أن يخفي هزال شخصيته بهذه الحرفية؟

من الغريب أن الشخصية التي كان يتعامل معها في العالم الافتراضي ويجلها ويبجلها، يراها الآن صغيرة وهشة مثل سحابة صيفية عابرة لا يتوقف عندها أحد.

لم يكن «أسمر» هو البادئ في الحديث هذه المرة، بل «شاهق»:

- «الفنان».. أريد أن أعثر عليه.. لن أساعدك في بحثك التافه هذا ما لم تجعلني أقابله وجهًا لوجه.

من المهم لـ «أسمر» أن يفهم لماذا يهتم «شاهق» بهذا «الفنان».. من المفهوم لماذا تبحث «خيال» التي خرجت عن أبيها الزائف، لكن لماذا لا يزال هو يبحث عن الفوز في مراهنة لم تعد تنتمي لتفاصيل هذا العالم؟.. يسأله:

- تعرف أنك لست ضابط شرطة يا «شاهق» لتلقي القبض عليه، أليس كذلك؟.. أنت تعمل في فرقة سيرك متجول، فرقة شعبية تجوب المحافظات بحثًا عن لقمة العيش، فلماذا لا تزال مهتمًا بالعثور عليه؟

يميل صوب «أسمر»، تحمر عيناه، يرغي الزبد حول شفتيه، يسأله:

- ما هو مصير الكلمات التي تولد في الجحيم؟

يُجيب على سؤاله بنفسه:

- مصيرها هو النار.

يرجع بظهره إلى الخلف، يقول:

-أريد أن أمحو نظرة الفوز من عينيه ولا يهمني إن فعلتُ ذلك في الجنة أم النار.. قاتَلني الله إن لم أفعل.

يفكر «أسمر».. يكتب.. يُحلل.. يبدأ في رؤية نقاط مشتركة بين الشخصية الحقيقية والافتراضية.. لا تعيش كل منهما بمعزل تام عن الأخرى حتى وإن بدا ذلك للوهلة الأولى.. لا بد من قواسم مشتركة.. خيوط عنكبوتية خفية تصل بينهما.. جسور متهالكة، لكنها قابلة للترميم.

هذا الرجل كان يحمل مقدارًا من الخير يفوق نصيبه من الشر، لكنه في العالم الافتراضي قطع آخر خيوط الفضيلة، وعندما عاد كانت قد تغيرت بعض من خصاله.

يلتقط «أسمر» إحدى الصحف، والتي قرأها بالفعل قبل بدء الجلسة، يفتحها على الصفحة السابعة.. يُدنيها من يد «شاهق».. يتردد للحظة.. لكن فضوله يغلبه.. يأخذ الصحيفة.. ينظر إلى الخبر الذي يتوسط صفحتها السابعة، يقرأ هامسًا:

- «القبض على أحد مُشعلي الفتنة».

وأسفل العنوان صورة «الفنان» تزدان.. تتسع ابتسامة «شاهق».. أكثر فأكثر.. تتبدى نواجذه..يضحك.. أكثر فأكثر.. حتى تدمع عيناه.. تنتهي ضحكاته فجأة كما بدأت فجأة.. تضيق ضحكته.. تختنق ابتسامته.. يتأمل الكلمات الصغيرة أسفل العنوان الكبير:

«ألقت الشرطة مساء الأمس القبض على مصمم فوتوشوب كان مطلوبًا منذ عدة سنوات لاتهامه بالإساءة لفخامة السيد الرئيس

بتصميم صور تضع رأس سيادته على جسد حمار وحشي أبيض مخطط بالأسود، أو حمار أسود مخطط بالأبيض لم تتأكد مصادرنا بعد من تلك المعلومة، علمًا بأن أذني الحمار الوحشي كانتا مصنوعتين من مجموعة صور متناهية في الصغير لفم فخامة الرئيس».

يدخل ثالث المنتظَرين، وهذه المرة تلتفت كل الرؤوس صوبه.. تتساقط الدهشة من العيون، هل هذا هو «حصان طروادة» الصحفي الشهير؟

تبدى أمامهم رجلٌ قد بلغ من الكبر عتيًا، كهلٌ غابت عنه روح الشباب منذ زمن سحيق، نفرت منه قوة الجسد، وتساقط عنه رداء الحكمة.

كالطفل الصغير تسحبه الممرضة إلى المقعد الوحيد الشاغر.. يسقط بجسده فوقه، تدور رأسه لتتأمل المكان والوجوه، يضم يديه ليداعب لعبة بلاستيكية صغيرة على شكل برغوث أزرق اللون.

يتذكر «أسمر» كيف كان للرجل قوة محادثة البراغيث، في الواقع لم يعرف «أسمر» قط كيف طوَّرت شركة «حياة بديلة» هذه المهارة ومنحتها لمستخدم وحيد.. لماذا «حصان طروادة» بالذات؟!

وإن كان «حصان طروادة» يُمثل أهمية كبيرة للشركة؛ فلماذا وضعتْ إقامته ضمن فئة ذات سرعة إنترنت منخفضة؟.. حتى بدا أحيانًا حديثه ومشيته بالحركة البطيئة!

لا أحد يعرف.. فكل المعلومات الخاصة أخفتها الشركة عن الجميع.. غلب على ظن «أسمر» في البداية أن الرجل تابع مخلص لهم، أو لعله أحد المستثمرين الكبار الذي أراد التخفي لسبب ما.. لكن رؤيته الآن قضت على كل الظنون.

لا يمكن أن يكون ركام الإنسان الجالس أمامه الآن ذا شأن في هذه الشركة العملاقة. بل لا يبالغ إن قال أنهم لا يُمكن أن يقبلوا بأن يعمل لديهم كعامل يُعد الشاي وينظف المراحيض.

لماذا هو إذن؟.. هل تم اختياره عشوائيًا؟.. ربما.. هذا هو التفسير الوحيد.

لم يكن له طلبات مقابل موافقته على مساعدة «أسمر» في بحثه الاجتماعي.. لم يوافق صراحة، لكنه كذلك لم يعترض عندما شرح له «أسمر» أنه يرغب في إجراء حوار معه سيستفيد منه في بحثه المعني بخدمة البشرية فيما يخص تطور تطبيقات التواصل الاجتماعي، فأَعَدَّ «أسمر» صمته علامة قبول.

يسأل الكهل بغتة ولا يزال يمسح فوق رأس برغوثه البلاستيكي:

– ما فائدة أن يكون لك أجنحة دون أن تعلم غايتها؟

يُجيب «أسمر»:

– البراغيث لا تملك أجنحة من الأساس.

– كيف تعرف؟

– أعرف.

– كيف تعرف؟

– قرأتُ عنها.. رأيتُها.. لذلك أعرف.

يرفع برغوثه الأليف أمام عينيه بأيدي مرتعشة أكلها الجُذام:

– لكنه أخبرني أن بإمكانه أن يطير.

يصر «أسمر»:

– البراغيث لا تطير.

فيقول الكهل وكأنه يهذي:

– الحياة مثل السمك المُملَّح .. إما تحبه جدًا أو تكرهه جدًا.. لا يوجد أنصاف مشاعر.

يردف «أسمر» متجاهلًا هذيانه:

- تعرف أن لا شيء عشته في «تطبيقات التواصل الاجتماعي المُتحدة» حقيقي، أليس كذلك؟.. لا أنت الصحفي الكبير.. ولا البراغيث تخبرك بأسرار الماضي التي تعرفها من الجدران.. السفر إلى الماضي مجرد أوهام اختلقتها لأنك لم تجد في «العالم الثاني» ما يثير اهتمامك ويجعلك تتفاعل معه.. اختلقتَ داخل العالم المختلق عالمًا من بنات أفكارك.

يتجاهل كلماته، يقول بغتة:

- «الكاتب الكبير» يعرف.. اسألوه.

- لم يسافر «الكاتب الكبير» لا إلى الماضي ولا إلى المستقبل.

يُحدث نفسه ثانية:

- أحمق من سمَّى عقارب الساعة بهذا الاسم.. فالوقت لا يلدغنا، بل يسرقنا.. كما تفعل البراغيث.

ثم ينفعل كما لو أنه انتبه فجأة إلى حديث «أسمر»:

- «الكاتب الكبير» يعرف كل شيء.. اسألوه.

- لا يمكن أن نسأله عن أي شيء، ولو سألناه فلن يجيب.

- لماذا لا تسألوه؟

يأخذ «أسمر» نفسًا عميقًا، يتبادل النظر مع ثلاثة أزواج من العيون، ثم يقول:

- لأن «الكاتب الكبير» لم يكن مستخدمًا في شركة «حياة بديلة» مثل ثلاثتكم.. كان مجرد نصف «فيروسَ» تمرَّد على وظيفته التي خُلق من أجلها.. ولا يمكن لأنصاف الفيروسات، ولا تلك المكتملة التكوين أن يكون لها وجود في العالم الحقيقي، أليس كذلك؟

كان من المفترض أن يدون الفيروس الشيفرة التي ستدمر «العالم الثاني».. وبمجرد كتابتها ستنطلق شرارة التدمير.. لكن الفيروس انقسم ليكون «الكاتب الكبير» و«رامي قشوع».. تمرَّد «الكاتب الكبير» ورفض أن يقرأ الشيفرة التي كتبها «رامي قشوع» على شكل رواية.

واستمر ذلك لثلاث سنوات.. كان خلالها «رامي قشوع» حبيس النادي لاتهامه بجريمة قتل زوجته.

حتى قررتْ «خيال» دون أن تعلم أي شيء عن ذلك أن تذهب «للكاتب الكبير» وتضع أمامه الشيفرة الذي كان يجب عليه أن يقرأها منذ البداية.. وما إن قرأها حتى بدأ العد العكسي لاختفاء العالم.

وكان يجب عليه عندئذ أن يسقط من ارتفاع شاهق وفي يده هاتف محمول ليفتح البوابة بين العالمين.. إنها الطريقة الوحيدة لتوليد طاقة سلبية كافية لفتح البوابة.. تمامًا كما هو الحال مع الفضاء والشق الدودي.. حتى يتمكن المستخدمون من مُغادرة «العالم الثاني» دون أضرار كبيرة.

يقولها وهو يتأمل الفراغ الذي تركه الكف المبتور لأربعتهم.. لقد قضم «العالم الثاني» من أجسادهم قضمة صغيرة مقابل إقامتهم فيه!

يتلوَّى وجه الكهل، تحتشد الدماء في عروقه، يصيح:

- هذا كذب.. أنت كذَّاب أفَّاق.. لقد دخلتُ آلة الزمن وعبرتُ الثقب الدودي قبل أن تأتوا بي إلى هنا.. ورأيتُ بداية العالم.. رأيتُ كل الأحداث الماضية.

يباغته «أسمر»:

- أنت لم تدخل آلة زمن تُعيدك إلى الماضي كتلك التي تملأ كُتب الخيال العلمي.. أنت دخلت آلة زمن فريدة من نوعها.. «آلة زمن رقمية» موجودة داخل شبكة الإنترنت.. إنها تحتفظ بكل المعلومات والبيانات حتى تلك التي يقوم المستخدمون بحذفها من مواقعهم وصفحاتهم

الشخصية.. تُبقي بداخلها نسخة عن كل كلمة وكل صورة وكل حركة إلى الأبد.. ماضٍ غير قابل للمحو.. تمامًا كصحائف أعمالنا.

ثم يشير إلى البرغوث الذي يحتضنه الكهل بين أصابعه ويقول:

- حتى براغيثك الزرقاء لم تكن حقيقية.. بل براغيث إلكترونية.. أو بمعنى آخر الحشرة الإلكترونية «بروميس».. هل تعرف ما هو عمل هذه الحشرة؟.. إنها تقنية تجسس دخلت عالم المخابرات بقوة ودقة.. تحصل على المعلومات المطلوبة وتحللها ثم تنقلها بسرعة وحرفية بالغة.. واسمها في أوساط المخابرات «التجسس الفرويدي» لأن بإمكانها تحليل الحالة النفسية للشخص المستهدف بعد السطو على معلوماته.. يمكن وصل البرغوث الإلكتروني بأي كمبيوتر وفي جزء من الثانية ينقل كل المعلومات إلى القمر الصناعي عبر محطات التقاط.

ومع آخر كلماته عمَّ على المكان صمت ثقيل لزج.

يدرك «أسمر» أنه سبب لثلاثتهم صدمة كبيرة، رغم تعمده لذلك إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الإشفاق عليهم.. ما أصعب أن يتدمر عالم الإنسان فوق رأسه، وأن يتلاشى ما يؤمن به..

فلا يعرف حينها فيما يثق، أو لا يثق..

المرض يقتل صاحبه .. الجهل يقتلِ صاحبه .. الغباء يقتل صاحبه.. لكن انهيار الثوابت قاتل جماعي يُبيد أَمَمًا بأسرِها.

زاد ذلك من عزيمة «أسمر» لكي يقضي على مهمة الشركة في التبشير بحياة بديلة.. سيمنع ــــ بالدراسة التي سيجريها على هؤلاء الثلاثة ــــ جريمتهم الشنعاء في حق الإنسانية.

يهذي الرجل الذي أضحى ضحية لتعدد الهويات:

- البرغوث يطير.. سأثبت لك.. سأثبت لكم جميعًا.

يتجاهله «أسمر».. يرقب الفتاة والفتى.. الخيال والضابط.. يمكن للخيال أن يكون ضابطًا للواقع.. لا يمكن أبدًا للواقع أن يكون ضابطًا للخيال.

يعود بنظراته إلى الكهل.. ثابت الجنان.. مشدود الجسد.. بعكس رفيقيه اللذين انعكست ظلالهما على الجدران وقد تهدل كتفاهما وكأنهما يحملان هموم الدنيا فوقهما.

«الظلال أبدًا لا تكذب».. يتذكر «أسمر» مرة أخرى هذه العبارة.. لكنه لا يتذكر قائلها..!

يهز «أسمر» رأسه.. ينفض عنه شتات أفكاره.. يعود بتركيزه إلى الجلسة.. يستمع إلى ثلاثتهم:

- كيف لأبي أن يكون «فيروسًا».. هل تحب الفيروساتُ؟.. هل تكتب؟.. هل تحنو؟

- ها هاها.. مصمم فوتوشوب.. إذن لا بد أن المرأة التي تضفي على الحياة الألوان هي خاطبة لزواج متعة أو مسيار.. ها هاها مصمم.. ها ها فوتوشوب.

- البرغوث يطير.. أخبرني أنه يطير.. البراغيث لا تكذب.

أكثر الفقراء استحقاقًا للشفقة، فقير الأحلام، هؤلاء حطَّمهم الواقع من الداخل، فتَّتهم وأعاد تشكيلهم.. لكن «أسمر» لم يهزمه الواقع، فلماذا إذن لم يحلم منذ أن استفاق في العالم الحقيقي؟!

ماذا قالت «خيال» في عالم الخيال؟.. قالت أن الإنسان يجب أن يحلم.. لا يوجد بشري لا يحلم، خاصية الأحلام تتفعَّل تلقائية في البشر عند ولادتهم..

فلماذا تعطَّلتْ برمجيتها في رأسه؟

يعود ليسمعهم:

- كان يعانقني.. يغني لي.. يقرأ لي.. كان يقص عليَّ حكاياته.. كان يحلم.. هل يمكن للفيروسات أن تحلم؟
- قال لي أنه يقطع البشر من خلاف.. ويركب الأجساد كما البازل.. كان يجب أن أفهم.. لماذا لم أفهم؟.. والكلمات التي كنت أبحث عنها.. الكلمات التي لها قوة تدميرية لمفاعل نووي.. أخيرًا عرفتها.. «تم حظر حسابك»!
- البرغوث يُحدثني الآن.. يقول لي لا تصدقهم.. أنا أطير.. وأنت أيضًا تستطيع أن تطير.

يستدعي «أسمر» أفكاره الهاربة.. يراها لكنه لا يستطيع أن يمسك بها.. كلما حاول أن يقبض عليها تفر من بين أصابعه كالرمال..

يتأمل ثلاثتهم.. الفتاة تبكي.. الفتى يضحك.. الكهل يدنو من النافذة المفتوحة.. يرغب «أسمر» في أن يجذبه.. يود لو يمنعه.. لكنه لا يجسر.. كما لو أن حجرًا غير مرئي يجثم فوقه ويمنعه من الحراك.. الجاثوم ربما.. لكن الجاثوم لا يزور سوى النائمين الخارجين للتو من بوابة الأحلام.. وهو مستيقظ كأشد ما تكون اليقظة.. حتى وإن نام فلا يمكنه أن يحلم.. لا خوف من الجاثوم إذن.

تسقط نظراته فوق مقالة بالجريدة المفتوحة.. يتأمل عنوانها الرئيسي «**الإنسان أصله نبات**»..

وأسفلها بخط أصغر «**نظرية جديدة يصدق عليها المجتمع العلمي، هيكل الإنسان تطوَّر من نبتة منقرضة.**»

يعود ليتأمل ثلاثتهم.. الفتاة تبكي.. الفتى يضحك.. الكهل يتسلق النافذة..

البرغوث لا يطير.. يعرف كل عاقل أن البراغيث لا أجنحة لها.. فلماذا يصر هذا الخرِف على أنها تطير؟

ذات يوم قرأ عن الكاتب «ألدوسه كسلي» أنه قال «قد يكون هذا العالم جحيمَ عالمٍ آخر»..

لكن «هكسلي» لم يقل كيف نعرف أننا في «هذا العالم» وليس في «العالم الآخر»!.. ثم أين قرأ ذلك؟.. لا يذكر أنه حمل بيديه كتابًا لـ «ألدوس هكسلي» من قبل.

العالم الحقيقي لا يمتلئ باقتباسات من كُتب لم نقرأها وصورٍ لأماكن لم نذهب إليها!

في الأحلام لا مذاق ولا رائحة، هكذا قالت خيال في عالمها الخيالي.. لماذا لم يشعر بطعم فطور اليوم، أو عشاء البارحة، أو غداء أول أمس.. لماذا شعر أن قهوته الصباحية، والزهور المهداة التي تُزين مكتبه كما لو أن لهم رائحة المطاط المحترق؟

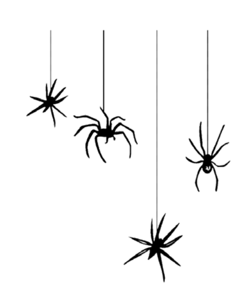
ينظر إلى انعكاس وجهه في شاشة هاتفه المحمول، لماذا ازداد حجم أنفه.. لماذا تاهت حدود عيناه؟

يتأمل ثلاثتهم.. الفتاة تتوقف عن البكاء.. الفتى يتوقف عن الضحك.. الكهل يلتفت إلى ثلاثة أزواج من العيون الجاحظة ويقول:

- ألم تسألوا أنفسكم مرة لماذا اسمي هو «حصان طروادة».. أنا سألتُ.. وعرفتُ الإجابة.

هل ما يراه حقيقي أم أن وجوههم باتت تُشبه بعضها.. بلا سمات.. بلا ملامح!

يقفز الكهل من النافذة.. ويطير بعيدًا.. بعيدًا جدًا.. وبجواره يطير برغوثه الأليف!



تسجيل خروج

المستوى صفر

(٢٩)

ثلاثة ورابعهم سِرهم (٢).

هل يدور رأسك؟

هل تشعر بالحيرة؟

هل أصابك التعب وكأنك تتسلق جبلًا شديد الانحدار؟

اهدأ.. التقط أنفاسك.

عمَّ تبحث حولك؟.. لن تجد الإجابات تدور هنا وهناك، بل في داخلك. أتشعر أن الحجرة الواسعة تضيق بجسدك؟.. رغم ذلك أنت تعرف أن داخلك ضيقًا أكثر، مثل فم إبرة.

تحاول النهوض.. تخونك قدماك.. ينتفض قلبك.. تتشنج أطرافك.. فتتوقف عن المحاولة.. تشعر بمخك كما لو أنه عصيدة طازجة مُعدَّة للالتهام.. من الذي سيلتهمها؟.. لماذا تسأل؟ وكأنك لا تعرف الجواب!

ماذا تفعل؟.. إياك أن تضغط زر «بوابة الدخول» من جديد.. هذا الزر ممنوع على أصابعك، مثلما حرَّم كِتاب السيدة «غاو» اقتراب كتب المؤلفين الذكور والإناث فوق رفوف المكتبات، ما لم يكونا متزوجين.

وإصبعك لم يتزوج «بوابة الدخول» أبدًا.. بينهما علاقة رغبة لا أكثر.. إن شئتَ دنوتَ، وإن عزفتَ هجرتَ.

ألا زال رأسك يدور؟.. أظنه قد بدأ في الاسترخاء الآن.. هدأت تشنجات أصابعك.. حتى أن بإمكانك الآن أن تُحرك قدميكَ بحرية.. هيا جرب ذلك الآن.. أحسنتَ.

هل تذكرتَ ما حدث في آخر مواسم الهجرة؟.. أثق أنك تتذكر.. لكنك تحاول الهرب.. لا تهرب.. دع الذكريات تتوافد على عقلك..

أتتذكر آخر المهاجرين ذا الاثنا عشر ربيعًا؟.. كيف نظر برجاء إلى والديه ألا يرغماه على الهجرة معهما، ومفارقًا عالمه الذي يألفه.

هل تتذكر وقتها كيف ثارت مشاعرك؟.. لأنه الرجاء نفسه الذي رأيته في أعين أبيك وهو يرجوك أن تتوقف عن دعوة الناس إلى الهجرة ذرافًا وفرادى..

لكنك أبيت أن تُلبي الرجاء.

كنتَ مثل الإمبراطور «شارلمان» الذي أنشأ أروع مكتبة في أوروبا في حين أنه لا يُحسن القراءة..

كنتَ أنت أيضًا تدعو إلى الهجرة الإلكترونية بينما لا تُحسن قراءة ما ينتظر الناس في أرض المهجر..

كنت تثق بشيء واحد فحسب.. أن هذا العالم ضيق جدًا على أصحاب الضمائر الحية.. وقمئ جدًا كي يسع أصحاب الضمائر الميتة والمنخنقة والمتردية والنطيحة!

كنت ترى أن فرقتك هي الناجية، وأن وجهتك هي الضائبة، وأن عقيدتك هي الراسخة.. حسبتَ أن المدافعين عن قضيتك نُسخًا متشابهة منك.. لذلك أردت عزلهم عن هذا العالم.. كما يُعزَل الأصحاء عن المرضى عند انتشار وباء الطاعون.

تنهض.. تتحرك بصعوبة صوب النافذة الوحيدة في الغرفة.. تفتحها.. تنتظر أن يملأ اللون الأزرق عينيك.. لكن يفزعك اللون الأسود الذي يجثم على الأرض والسماء، ويتخلل ذرات الهواء!

لماذا أنت مندهش؟.. ألم تزعم دومًا أن العالم رمادي فاسد لا يصلح للعيش فيه؟.. ألم تقل أننا مخلوقات من الريح وأن الريح لا تتنفس تحت غيوم رمادية؟

ألم تنادِ بعزل الأبيض.. فاستجاب لدعوتك المئات فالآلاف فالملايين؟.. انسحبوا مِن الحياة.. من المسؤولية.. من الفعل ورد الفعل.. وصاروا يدًا بيد نحو هجرة تاريخية إلكترونية على مراحل أولى فثانية ثم ثالثة وكانت تلك هي الأخيرة.

ألم يسلم الناس عقولهم لآلات صماء، ودوائر كهربائية، وأداروا ظهورهم للطبيعة، فأخذتْ السماء، والأرض، والأشجار، والجبال، والبحار تُناجي نفسها بمنولوج طويل بائس؟

لماذا إذن تتعجب من كل هذا السواد؟!

كنتَ تعرف بـ «مارك برنيسكي» خبير التقنية الأمريكي الذي صاغ مصطلحي «المواطن الرقمي» و«المهاجر الرقمي».. بالطبع لم يقصد وقتها هجرة كاملة كالتي تحدث الآن.. لكن المصطلح كان الشرارة التي أشعلَتْ في عقلك فكرة الهجرة الكاملة.

فأصبح هدفك أن تصنع من كل مواطن رقمي -صالح بمقاييسك الخاصة- مُهاجرًا يعيش في العالم الافتراضي إلى الأبد، يتكلم بلغته ويدين بقوانينه.

بعد أن اطمأننتَ على اكتمال مواسم الهجرة بقيتَ على اتصال بالعالمين كي تحرس الجدار الذي يفصل بينهما.. جهاز كمبيوتر متصل بدوائر إلكترونية كبير يملأ غرفتك.

لكن عالمك أخذ ينهار بسرعة كبيرة.. ينحدر أخلاقيًا.. واقتصاديًا.. ودينيًا.

لم يستجب إلى دعوتك للهجرة من العالم أجمع سوى الطبقات الوسطى.

لم تعرف وقتها مخاطر نزع البذرة الثائرة المثقفة من العالم.. كنتَ كمن يُقرب شعلة نار من بئر بترول.. لم تتوقع كل هذا الانفجار.

انسحبتْ الطبقات الوسطى من الحياة فانسحبتْ معها كل الألوان، ولم يبق سوى خراب بلون أسود متفحِّم.

ولأن الحياة لا تستوي إلا بدرجات ودركات، طيب وخبيث، غث وسمين.. كان على الطبقة الوسطى أن تتدرَّج داخل العالم الافتراضي.. ليس استنادًا إلى مال أو علم.. بل بالإعجابات وعدد المنضمين إلى دائرة المتابعين والأصدقاء.. فضَّلوا أن يكونوا أبطالًا في الفضاء السيبراني على أن يكونوا كومبارس في الحياة الواقعية.

ثم تطورتْ الحياة بالداخل حتى أضحتْ نسخة تشبه الحياة الواقعية.

انسلختْ إنسانيتهم داخل العالم الافتراضي إلى إنسانية افتراضية.. لا تتعاطف سوى مع الصور والظلال!

«العالم الواحد» كذبة فجَّة كبيرة. يجتمعون في مكان واحد لكن قلوبهم شتَّى. سخطوا على القوانين الوضعية لكن الضمير وحده لم يكفِ للحفاظ على إنسانيتهم بالداخل.

لا يلتزمون بالقوانين إلا خوفًا من العقاب!

ولا يلتزمون بحُكم ضمائرهم إلا رغبة في الثناء!

وإذا تنازعوا لا يحتكِمون إلى كتاب مُنزَّل من السماء!

يمكنكَ أن تتظاهر بأنك لم تكن تعرف أن القنبلة ستنفجر ذات يوم لتخلف كل هذا الخراب.. يُمكنك أن تخدعني، لكن نفسك تعرف أنك خادِعها..

فأنت قد جهَّزت قبل رحيلك برمجية خبيثة من نوع «Trojan Horse».. أو الذي يدعوه العامة بـ «حصان طروادة»!!

وأخفيتَ بداخله شفرة تمكنك من تدمير العالم الافتراضي عند وقت معلوم.

كنت تعلم أن «حصان طروادة» برمجية ذكية تُقدم نفسها للمستخدمين كعنصر غير مؤذٍ حتى توقع ضحاياها في شباكها.

تمامًا كما اختبأ جنود الإغريق داخل حصان خشبي بريئ المظهر، أغرى أهل «طروادة» بإدخاله إلى مدينتهم المحصنة؛ فانقض الجنود عليهم تحت جنح الليل حاصدين الرؤوس بسيوفهم.

اعترف «آخيل» بطل حرب طروادة في «الإلياذة» بأنه قرصان.. بفخر لا يشوبه الخجل.. وللكوميديا السوداء فأنت كذلك قرصان.. وإن اختلفت آليات القرصنة منذ تلك العصور السحيقة وحتى الآن.

لم يتملكَ الفخر مثل «آخيل» لأنك كنت تشعر بالخطر، لكنك لم تولِّه الاهتمام الكافي. نفسك الأمارة بالسوء دفعتك لتستكمل دعوتك للهجرة الإلكترونية دون حساب النتائج.

لكن أخبرني بربك لماذا اخترت أن تنقسم إلى ثلاثة مواطنين رقميين، وأودعتَ في كل واحدٍ منهم جزءًا من نفسك؟

ألأنك كنت تشعر دومًا أنك ثلاثة أنفس تعيش في جسد واحد.. نفس أمارة بالسوء، ونفس لوَّامة، ونفس مطمئنة؟

لماذا اخترتَ أسماءهم «شاهق».. «أسمر».. «خيال»؟!

صحيح أنك اخترتهم بعقلك الواعي عشوائيًا.. لكن لعل الإجابة تكمن في عقلك الباطن فابحث عنها.

بين ثلاثتهم صراع أبدي.. تُريد كل نفس منهم أن تتغلب على الأخريين وتسيطر على الجسد وحدها.. لكن أتعرف أمرًا؟.. ثلاثتهم لا يمكنهم العيش منفصلين أبدًا..

أحيانًا تتغلب إحداهم.. لكن ليس طوال الوقت..

ألم يتغلب «أسمر» في النهاية؟.. ألهذا السبب دمَّرت العالم الافتراضي وأعدتَ الناس من هجرتهم التي دعوتهم إليها؟.. لعل هذا هو السبب بالفعل.. استيقظ ضميرك في الوقت المناسب.

لماذا وثقتَ بالطبقات المثقفة الرافضة لظلم وعدوان حُكَّامهم، وتأمل في العيش داخل مدينة أفلاطونية من بنات أحلامهم؟.. ظننتهم ملائكة لا تزل؛ فعزلتهم خلف جدران زجاجية مثل فصيلة توشك على الانقراض.. ها أنت قد رأيتَ بنفسك أنهم مارسوا كل رذائل البشرية داخل العالم الافتراضي!

هربوا من واقعهم القاهر.. لكنهم في العالم الأزرق وقعوا في كل ما كانوا ينادون ببطلانه.. مارسوا على بعضهم البعض ألوانًا من القهر، الظلم، الخيانة، الفساد، التنمر، العنصرية، الحقد، الغِل، الحسد، التباغض، تتبع العورات، وقذف المحصنات..!

تعاملوا مع بعضهم البعض وكأنهم يخالطون آلات صماء لا تحس.. أو لعلهم بالفعل صاروا مزيجًا من البشر والآلة.. كلما صارتْ التكنولوجيا أكثر ذكاءً، جعلتنا نحن أكثر غباءً!

فتحتْ التكنولوجيا أمامهم دروبًا واسعة.. لكن ما فائدة العلم بغير أدب؟!.. ما فائدة الضمير بغير مرجعية ربَّانية يحتكم إليها؟!

وفوق ذلك يرفضون الاعتراف بأنهم أصبحوا نسخًا من كل شيء كانوا يبغضونه!

هل تسمع وقع الأقدام التي تعدو في الخارج؟.. بالطبع تسمعها.. إنها عالية جدًا.. تعلو.. وتعلو.. فجحافل الناس تُقبل صوب بيتك، تدك الأرض بأقدامها دكًا دكًا بعد أن دمَّرتَ حساباتهم الشخصية في الفضاء الأزرق!

تعرف أنهم سيثورون عليك ومع ذلك أعدتهم إلى العالم الحقيقي الذي يكرهونه.. لقد سحبتهم مِن الانسحاب!

إنهم يشعرون الآن أنهم ناقصون جدًا.. فكل منهم أكمل بالأوهام ما كان ينقصه في الحقيقة.. إنهم الآن لم يعودوا يشعرون بالاكتمال في غياب شخصياتهم الرقمية.

كنتَ تعرف كل ذلك عندما أصررتَ على إيقاظهم، وإيقاظ نفسك قبلهم.. كم أغبطكَ لشجاعتك.

الأصوات تعلو أكثر.. وتدنو أكثر.. لماذا يبدو عليك كل هذا الثبات؟.. كيف تستطيع أن تمتلك هذا القدر من الشجاعة لمواجهة أخطائك، بل ولتصحيحها؟

هل خفتَ من قصة أصحاب السبت التي قرأها عليك مُعلمك في صغرك؟.. عندما أخبرك أن الله لم ينزل عقابه على العُصاة وحدهم، بل على أولئك المتفرجين الذين لم يأمروا بمعروف أو ينهوا عن منكر.. هل تذكرتَ القصة الآن؟.. هل قوي قلبك وعزيمتك على تغيير المنكر في واقعك بدرجاته.. قلبًا ولسانًا ويدًا؟

أأدركتَ الآن أن الحل ليس في الهرب، بل في إعادة بناء الضمائر والأخلاق؟

الأقدام الصاخبة تصفع بابك.. وكأنها طبول تدق وتدق وتدق.. لكنك لم تهتز.. تندفع الأجساد المتلاحمة في إيقاع متناغم صوب غرفتك.. تقتحمها.. تُقبِل على المقعد الذي تجلس فوقه.. تمتد إليك الأيادي الثائرة.

ترى بعين الخيال سواد العالم يختلط بلون أحمر زاهٍ.. دافئ كأحضان حبيبة.. وتفوح منه رائحة الحياة.

لكنك لم ترتجف.. أنت شجاع.. ظلك المسترخي على الجدار أمامك شامخ في ثبات.

تحتشد الدقات حولك.. تحاصرك الأصوات والكلمات والصور.. ترى ظلالهم تدخل دائرة الضوء.. تتساقط فوق الجدار.. تتحد كالبنيان المرصوص وتبتلع ظلك بداخلها.

تذكَّر أنك كنتَ دومًا تقول «الظلال أبدًا لا يكذب»!

لكن دعني أُجبر نقص كلماتك فأقول «لكنها لا تَروي القصة كاملة»!



همومنا كجبالٍ فوق أظهُرِنا

وفي القلوب كموج البحر تضطربُ.

تضيق سبعُ سماوات بأنفسنا

فلا يُرى في السما ضوءٌ ولا سحبُ.

هو السواد وكلٌّ يستحيل لهُ

اللون والطعم والأشعار والكتبُ.

د. محمد فؤاد.